AL- MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العـــدد 730 – 731 الســـــنة 63- ذو الحجة – المحرم 1445-1446هـ تموز- آب 2024م

محمد ياسين صالح

وزير الثقافة

المدير المسؤول
د.شهلة سيدعيسى

رئيس التحرير
د. محمود حمود

أمين التحرير
رنا عيسى

هيئة التحرير

د. فايز الداية
د. ماجدة حمود
د. عيد مرعي
د. حنان ديابي

الإشراف الطباعي: **أنس الحسن**

التصميم والإخراج: **ردينة أظن**

التدقيق اللغوي: **نغم حامد**

دعوة إلى
الكتـــاب والمثقـفين العـــــرب

ترحـب مجلّـة المعرفـة بإسهامـات الكتّـاب وتأمـل أن يراعـوا الشروط الآتية في موادهم:

- يفضـل أن يـتراوح حجم المقـال بـين 2000 - 2500 كلمة، وحجـم البحث بين 3000 - 3500 كلمة.

- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب الآتي:

اسـم المؤلّـف - عنوان الكتاب - دار النشر والتاريخ - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق إنْ كان الكتَاب محققاً، واسم المترجم إنْ كان الكتاب مترجماً.

- تأمل المجلة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف مُوجز لهم.

- تأمـل المجلة أن تردهـا الإسهامات منضدة على الحاسـوب محققة من كاتبها وألا تكون منشورة إلكترونياً أو ورقياً.

تلتـزم المجلـة بإعـلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها، ولاتعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة

www.moc.gov.sy
Almarifa1962@yahoo.com

نشكر إسهامات الكُتّاب في المجلة، ونأمل منهم مراعاة شروط النشر الجديدة (عدد الكلمات).

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة. وترتيبها يخضع لاعتبارات فنية.

سعرُ النسخة (280) ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

ميلاد جديد للمعرفة... 5
وزير الثقافة محمد ياسين صالح

كلمة العدد

الأنوميا ومظاهرها في مجتمعاتنا 7
رئيس التحرير، د.محمود حمود

باب الدراسات

قرطاج صفحات تتجدد 14
المعرفة

قرطاجنّة إفريقيا أسطورة جديدة وتاريخ جديد 16
د. فوزي محفوظ

التوسع الفينيقي وراء البحار..... 32
د. عمار عبد الرحمن

نقوش بونيّة من قرطاجة..... 41
د. باسم ميخائيل جبّور

هانيبال ودوره في الحروب البونية 55
د. محمود حمود

الحرب البونية الرابعة صفحات جديدة لتأريخ قرطاجة 71
د. فايز الداية

الخطاب الغنائي

عابرون في الغياب..... 92
محمود حامد

تراتيل في حضرتها 95
علي جمعة الكعود

الخطاب السردي

الكشكول..... 97
ترجمة: د. منذر عبسي

آفاق المعرفة

استخدام السينما في نكبة فلسطين..... 104
د. سيد علي إسماعيل

الأدب الرافديني القديم..... 117
تأليف: جوشوا ج. مارك
ترجمة: محمد الدنيا

آخر حرائق الحكم المطلق..... 126
تأليف: بيير إيف بوربير
ترجمة: د. محمد أحمد طجو

التّطوّر التاريخي لرمز الهلال 132
د. هيفين محمّد

الوسائل البديلة لتسوية المنازعات في الفقه الوضعيّ المعاصر..... 141
فريد أمعضشو

سلوى بكر..... 158
بدران المخلف

متابعات

الواقعية في قصص فاضل السباعي 166
عبد اللطيف الأرناؤوط

على الدرب

حوار الشتاء والصيف 173
رئيس التحرير

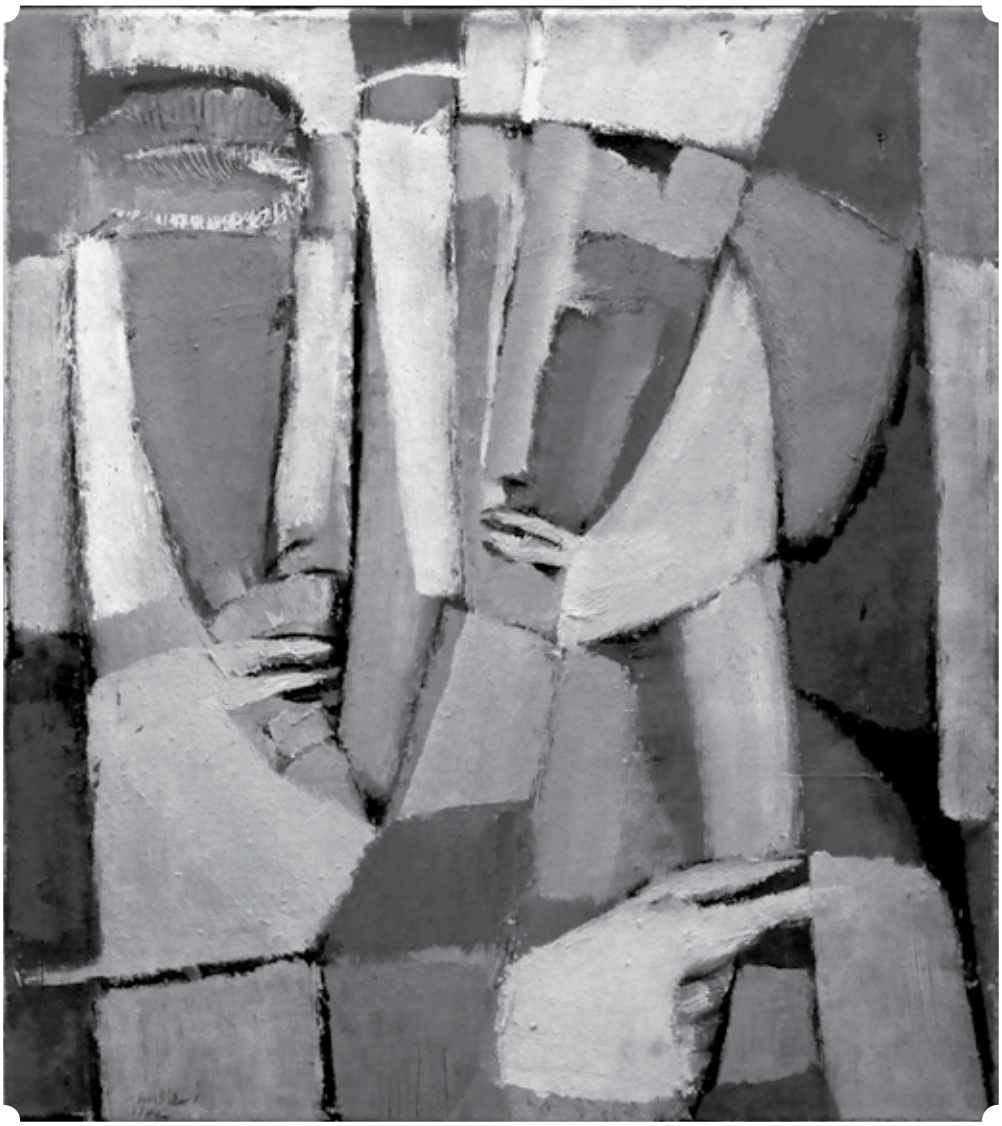

لوحة تكوين

للفنان أسعد عرابي

ميلاد جديد للمعرفة

وزير الثقافة

محمد ياسين صالح

قرأت للعقاد يوماً أن «الأسلوب الذي يخرج من فطرة سليمة هو أسلوب عصري في جميع العصور». وكذلك هي المعرفة الحقيقية، تلك التي تنبع من فطرة سليمة، لا تتجمد عند حدود ما هو سائد أو تقليدي، بل تكون في حركة دائمة، تسعى لتطوير نفسها، وتنمو مع تطور الفكر البشري. إنها لا تحاصر نفسها في قوالب جاهزة، بل تنفتح على جميع الاحتمالات، وتبحث دائماً عن الحقيقة، وتبني الفهم من داخل أفق الإنسان وواقعه.

إن المعرفة نور الفكر، وهي المفتاح الذي يفتح أمام الإنسان أبواب التقدم والتطور، ولكن الثقافة هي التي تهذب هذه المعرفة وتوجهها نحو أهداف نبيلة. فالحقائق العميقة لا تكتمل دون أن تنسقها الثقافة بتأصيلاتها وتعميق جذورها في الوعي الجمعي للأمم. ومن هنا تأتي أهمية هذه المجلة «المعرفة» في سعيها المستمر نحو نشر المعرفة المستدامة التي تشكل طاقة فكرية تقودنا إلى المستقبل عبر التفاعل المستمر مع القيم الثقافية والمعرفية.

المعرفة المستدامة طريق طويل محفوف بالتحديات الفكرية والوجدانية. إنه طريق مملوء بالهم الفكري الذي لا ينتهي، ذلك الهم الذي يقود الإنسان إلى البحث الدائم عن الحقيقة، والذي لا يرضى بالقليل من المعرفة ولا يستكين للظلال. إن هذه الرحلة الفكرية تتطلب منّا الاستمرار في السعي والتمحيص، وهي ليست مجرد رحلة علمية، بل هي أيضاً مسيرة ثقافية تعمّق فهمنا للعالم من حولنا.

ومن أجل أن نبني هذا الصرح المعرفي المضيء يجب أن نكون حذرين من أن نصبح مرتهنين لفكر غريب أو تأثر غير مبرر بأيديولوجيات استعمارية فكرية، تحاول أن تقوّض هويتنا الثقافية وتجعلنا نغفل عن أصالتنا. السعي النبيل في هذا السياق هو أن نحافظ على استقلاليتنا الفكرية، وأن نبني معارفنا على أسس ثقافية راسخة ترتكز على هويتنا، فلا نسمح لأفكار غريبة أن تعكر صفو رؤيتنا. كما يجب أن نكون قادرين على تصفية ما نتلقاه من ثقافات وأيديولوجيات بما يتناسب مع قيمنا واحتياجات مجتمعاتنا.

❁❁❁

كلمة العدد

الأنوميا ومظاهرها في مجتمعاتنا

د. محمود حمود
رئيس التحرير

عندما تتعرض المجتمعات البشرية لمحنٍ واضطرابات، وتعصف بها نوائب الدهر وصروفه وملماته، تحدث فيها تغيرات سريعة. فتفقد توازنها وتفقد تماسكها وتتصدع بنيتها، وتهتز الثوابت التي تجمع أفرادها، فينهار ضميرها الاجتماعي وتصاب بأحد أخطر أنواع الأمراض الاجتماعية. وقد درس هذه الحالة بعمق عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم وأطلق عليها اسم الأنوميا في كتابه «الانتحار» عام ١٨٩٧. والمصطلح يشير إلى ظاهرة اجتماعية غير سليمة، وهو مشتقٌ من الكلمة اليونانية «أنومي» Anomie، وتعني القلق وعدم الاستقرار والفوضى، أو غياب المعايير والقانون والنظام، والافتقار إلى الهدف والمثل العليا.

وعندما تصيب هذه الحالة المجتمع، تُفكّك مؤسساته، وتُفضي به إلى الفوضى والصراع التناحري والانحراف والتفسخ والانحلال والشذوذ. في الأنوميا يفشل المجتمع في أن يكون رقيباً على أفراده، وضميراً جمعياً يضبط

سلوكهم، وتنخفض قدرته على التوجيه الأخلاقي لأعضائه الذين يعيشون في حالة من الاغتراب تؤدي بهم إلى العزلة والانفراد، ثم مناهضة ثقافة مجتمعهم، وانتهاك كل معايير وأعراف المنظومة الأخلاقية والحضارية التي صاغها هذا المجتمع، ووضع أسسها، عبر الأجيال، وعلى مرِّ مئات السنين، وربما أكثر.

لا شك أنه كلما كانت هذه المنظومة صلبة ومتينة، تمكن المجتمع من حفظ نفسه ونجح في وقف التفكك والانهيار الذي يداهمه. فالأخلاق هي الحصن المنيع والعنصر الأهم في بقاء الشعوب ونهوضها ونمائها ورقيّها، وحفظ هويتها. وعندما يضعف الضمير الاجتماعي وتضعف سلطته على الأفراد، يقوى الضمير الفردي وتتضخم الأنا فتصبح المنفعة الذاتية هي الغاية التي يسعى الإنسان لتحقيقها. وهنا يبدأ البناء الاجتماعي بالتفسخ والانحلال تحت وطأة الأنوميا.

ليس بالضرورة أن تكون الاضطرابات ناتجة عن الحروب، وهي بلا شك سبب مهم فيها ولا سيما إذا طالت سنواتها، لكنها أيضاً، قد تكون بسبب التقدم التقني ومنعكساته في العمل والعلم والإعلام وغير ذلك. فعندما درس دركهايم هذه الظاهرة، كانت فرنسا ودول أوروبا في خضم الثورة الصناعية التي أدت إلى تقسيم العمل وتوزيعه بين العمال، ومن ثم تعقيد المجتمع البسيط وحلول الآلة مكان الانسان، واختلاف العلاقة بين العامل وصاحب العمل. فقد كانت المجتمعات كتلة واحدة متماسكة متآلفة متعاضدة تحكمها البساطة وتسود فيها الروح الجماعية، تعمل على تأمين قوت عيشها ومكاسبها البسيطة بأبسط الطرق كالزراعة والصيد والمهن اليدوية وغير ذلك. فجاءت الثورة الصناعية لتفكك بنية هذه المجتمعات والعلاقات بين قواها المنتجة، وتزرع علاقات جديدة قائمة على المنفعة الخاصة والفردية.

لا جدال في الأثر الإيجابي الذي خلقته ثورة التقانة الرقمية وتدفق المعلومات، التي عملت على تقريب العالم بعضه من بعض، وجعلت منه قرية صغيرة، واختصرت طرق الوصول إلى بحور العلوم ومختلف أنواع الفنون والمعرفة. لكن الأثار المعاكسة لهذه العولمة وثورتها، حتمية الوقوع، وقد بدأت مظاهرها تطفو على السطح ونرى نتائجها في كل مكان من العالم، وهي تصيب المجتمعات الهشة بمقتل وقد تقتلعها من جذورها، فتمحو لغتها وإرثها الثقافي والمعرفي، وتدك هويتها الوطنية، وتشجع على انتشار سلوكيات ومعارف لم تكن مقبولة حتى الأمس القريب.

طالما كان مفهوم الأخلاق وما فيه من معايير وأعراف وقوانين وفضائل، ميزاناً لتقييم سلوك البشر، ومقياساً لتحضر ورقي الأفراد والمجتمعات والأمم في أي مكان من العالم. فالأخلاق هي جوهر الحياة الإنسانية وهوية الشعوب المتحضرة التي تنشد الأمان والاستقرار والعيش الكريم. وقد حثَّت الشرائع، السماوية والوضعية، على ضرورة تحقيق هذه القيم، فدعا أنبياء الله تعالى الناسَ للتحلّي بمكارم الأخلاق والتمسك بها، وآخرهم نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، الذي قال: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق». وقال أيضاً: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً».

إذا ما نظرنا بتأمل إلى واقع مجتمعاتنا، ظهر جلياً سلسلة من الظواهر الجديرة بالدراسة التي تؤكد استفحال هذا المرض الاجتماعي في جسد أمتنا، ونخره لبنيتها الاجتماعية، ومن أهم مظاهره، على سبيل المثال لا الحصر: تحول المجتمع إلى المادة والرغبة في الاستهلاك الدائم، وتسليع كل شيء حتى أصبح الأمان سلعة تباع وتشترى. ومن مظاهره، تغليب الروح الفردية، وانكفاء دور المحيط أو البيئة الاجتماعية، كالأسرة والشارع والقرية والحي

والمدينة والمدرسة والجامعة، هذه المؤسسات التي كان لها دور حاسم في فرض قيمها وضوابطها الأخلاقية، وأسهمت في ردع كل من حاول أن يتجاوزها. ومنها: غياب الرحمة بين الناس وانتشار الفقر وسيادة الظلم وغياب العدالة، وانتهاك حقوق المستضعفين والأرامل واليتامى وازدراء الفقراء، ومنها أيضاً، الكذب والنفاق وغياب المروءة والنخوة والإثرة والبِرِّ، وحضور النميمة وهتك أعراض الناس واستغابتهم ونشر الإشاعات. ومن مظاهره، الحرام عندما يغدو حلالاً، والحلال وقد أصبح حراماً. ومنها أيضاً، ما نراه في كثير من منتجاتنا الصناعية والزراعية، وفي بضائع تجارنا والباعة وتعاملهم مع الناس، وما نراه بتصدّرِ السفهاء المجالس، وادعاء العلم من لا يتقنه، وانكفاء أهل العلم والفضل إلى صوامعهم، أمام تمدد المنتفعين اللاهثين نحو الظهور والتكسب، والثقافة السطحية، وتلاشي الثقافة العميقة.

ولعل من أخطر مظاهر الأنوميا الاجتماعية، ارتفاع معدلات الجريمة التي تحظى، مهما كان نوعها، بالقبول والتغاضي، ويصبح الفرق بين المجرم والإنسان العادي هو مدى المنفعة، ومنها: انحدار الوعي، وانتشار العنف، وخطاب الكراهية، وانحسار خطاب التسامح والمحبة، القادر على بناء الكون، ومنها: حلم الشباب بالهجرة، حتى إن كانت تنتظرهم مهاوي الردى، بحثاً عن لقمة كريمة ولحظة أمان مفقودة.

بالتأكيد لا وجود لمدينة فاضلة في هذا الكون، ولا يخلو مجتمع في العالم من أمراض تعتريه، والأنوميا وجدت في كل الأمكنة والأزمنة. كما أنه، أمام تسونامي الحداثة وعولمة الثقافة، لا يمكن النأي بالنفس بعيداً عن العالم، ولا بد من التعامل مع منتجات العصر الثقافية والمادية. لكن من المهم، ولا سيما في هذه المرحلة، العمل على تحصين مجتمعاتنا أكثر، وذلك بالعودة إلى

مؤسسات التعليم والتربية والثقافة، وابتكار أشكال ومفاهيم جديدة تخاطب الأجيال بمنهجية علمية صحيحة؛ منهجية تجمع بين التراث والحداثة، وتُعمّق الإلتزام بالقيم الأخلاقية، لتكون قادرة على دفع الناس نحو الفضائل وردعهم عن فعل الرذائل، فتحدُّ من تأثير هذه الظواهر المرضية وتخفف وقعها على المجتمع، وصولاً إلى الصحة والتعافي.

ويبقى تحلّي الأمم بمكارم الأخلاق، معيار قوة أي أمة من الأمم وازدهارها، وغيابها أو ضعفها مقدمة موضوعية لانهيار الأمة وزوالها، مهما طالت دولتها. وقد قال الشافعي يوماً:

قدمات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت إن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

❀ ❀ ❀

مالفا الوطن

للفنان عمر حمدي

باب الدراسات

- قرطاج صفحات تتجدد	المعرفة
- قرطاجنّة إفريقيا	د. فوزي محفوظ
أسطورة جديدة وتاريخ جديد	
- التوسع الفينيقي وراء البحار	د. عمار عبد الرحمن
- نقوش بونيّة من قرطاجة	د. باسم ميخائيل جبّور
- هانيبال ودوره في الحروب البونية	د. محمود حمود
- الحرب البونية الرابعة	د. فايز الداية
صفحات جديدة لتأريخ قرطاجة	

قرطاج صفحات تتجدد

المعرفة

تجمع المصادر التاريخية على أن الكنعانيين الفينيقيين، سكان الساحل السوري اللبناني القدماء، كانوا أمهر الشعوب التي ركبت البحر وشغفت به، وتحدَّت المجهول وكل أنواع الأهوال ومخاطر الطواف، فتجاوزوا بسفنهم جبل طارق الذي كان يدعى أعمدة هرقل، حيث نهاية حدود العالم القديم. وقد اندهش القدماء من شجاعة الفينيقيين وحبهم للمغامرة فوصف هوميروس شاعر الإغريق العظيم الفينيقيين بـ«المهرة المشهورين بالسفن».

لقد أسس هؤلاء على الشواطئ التي نزلوا فيها، كثيراً من المراكز والمعمّرات التي بنيت في مواقع استراتيجية مهمة، وما زالت آثارها باقية حتى الآن وتشهد على وجودهم. وقد شيّدت جميع هذه الحواضر بمباركة وترحيب السكان المحليين وتعاونهم الكبير، ولعلَّ من أهمها قادس في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا)، وأوتيكا الواقعة على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شمال غربي قرطاجة، وليكسوس التي تقع في الزاوية الشمالية الغربية للقارة الأفريقية، وقد أُسست جميعها نحو عام ١١٠٠ ق.م. كما أسسوا معمّرات أخرى في قبرص وصقلية وسردينيا وغيرها. لكن المركز الأكثر أهمية على الإطلاق كان مدينة قرطاجة، أو «قرت حدشت» ويعني اسمها المدينة الحديثة، التي أسسها مهاجرون قدموا من مدينة صور مع أميرتهم إليسّا ابنة موتو ملك المدينة، وأخت بغماليون، نحو عام ٨١٤ ق.م.

وقد نقل الفينيقيون ثقافتهم وعاداتهم ومعتقداتهم وطقوسهم ومعارفهم ومهاراتهم من وطنهم الأم إلى المهجر، بما في ذلك أبجديتهم ولغتهم، التي عرفت بالبونية، وأضافوا لها كثيراً من إبداعاتهم وخبراتهم الجديدة.

اختلف الباحثون في تحديد الأسباب التي دفعت الفينيقيين إلى الهجرة وإنشاء هذه المراكز، واجتهدوا في البحث عن المبررات وتقديم تفسير منطقي لها. ومن الأسباب التي طُرحت: الصراعات السياسية، والتهديدات الأمنية، والزيادة السكانية، والكوارث الطبيعية ومن بينها الزلازل، إلا أن أكثر العوامل منطقية، هو البحث عن مصادر المواد الأولية التي تحتاجها صناعتهم المتقدمة، ولا سيما النحاس والفضة، وكذلك تصدير منتجاتهم الصناعية والزراعية التي اشتهروا بها.

بعد تأسيس قرطاجة ازدهرت المدينة بسرعة فائقة تجاوزت شقيقاتها بكثير، وتوجهت أنظار القرطاجيين نحو البحر وتأمين الطرق البحرية إلى الغرب حيث مناجم الفضة والذهب الإسبانية، وهذا ما ساعدهم في تحقيق ازدهار اقتصادي ورفاه اجتماعي كبير، وأثار حسد القوى المتربصة بهم. وقد أدى هذا النفوذ القرطاجي الكبير في تجارة البحر المتوسط إلى صِدامٍ بين قرطاجة وبعض المدن اليونانية مثل سيراكوزا في صقلية، ثم بينها وبين روما القوة الصاعدة التي خاضت ثلاث حروب مع قرطاجة انتهت عام ١٤٦ق.م بسيطرة الرومان على العاصمة البونية وتدميرها بما فيها وحرق مكتباتها، والقضاء على الحلم الفينيقي المهاجر، وعلى الحضارة التي صنعها هؤلاء. وكان ذلك إيذاناً بنشوء الإمبراطورية الرومانية وسيطرتها على محيط البحر المتوسط.

رغم أن حفريات التنقيب عن آثار قرطاجة بدأت مبكراً، منذ عام ١٨٥٩م، وما زالت مستمرة، فإنّ آثار الحضارة البونية المكتشفة حتى الآن محدودة جداً، مقارنة بآثار المدينة التي تعود إلى العصرين اللاحقَين، الروماني والبيزنطي، وربما كان السبب هو حجم التدمير الكبير الذي تعرضت له المدينة بعد احتلال الرومان لها، ومحاولتهم محو ذكرها. ومن المعروف أنهم نثروا الملح في أرجائها كي لا ينبت فيها زرع من جديد. ولهذا، تبقى المعلومات التي يقدمها علم الآثار عن هذه الحضارة محدودة جداً حتى الآن، ومعظم المعلومات التي نعرفها عن الموقع تأتي من مصادر كتابية يونانية أو رومانية، وفيها كثير من التحيز الأيديولوجي. على أمل أن تقدم أعمال التنقيب المستقبلية مزيداً من المكتشفات والمعطيات العلمية؛ إذ إنَّ مساحة كبيرة من الموقع تنتظر معاول المنقبين.

* * *

قرطاجنّة إفريقيا
أسطورة جديدة وتاريخ جديد

د. فوزي محفوظ *

لقد كانت قرطاجنّة[1] بموقعها ومعالمها وبحرها وقنواتها المتفرعة في مختلف أرجاء المدينة فاتنة ساحرة، حتى عُدَّت من عجائب الدنيا، فشكلت بمعالمها الفاخرة وحدائقها الغناء وخضرتها اليانعة وبيئتها البرية- البحرية الجذابة، فخراً واعتزازاً لسكان إفريقيا[2] وغيرهم ممن زاروها من المشرق والمغرب على حد سّواء.

إن المتصفح للمصادر العربية المتعلقة بمدينة قرطاجنّة يلاحظ بداية كثرتها وامتدادها الزمني. فذكر قرطاجنّة لم ينقطع من القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري). ويلاحظ أيضاً أن من تعرضوا ينتمون إلى أغراض أدبية مختلفة ومتباعدة في بعض الأحيان. فهنالك

التنقيب في قرطاجة

*- أستاذ بجامعة منوبة وعضو المجمع التونسي للعلوم بيت الحكمة / الجمهورية التونسية.

المؤرخون، والجغرافيون والإخباريون والفقهاء، وأصحاب التراجم والمعاجم والشعراء... إلخ. وهم ينتسبون إلى أصقاع مختلفة من بلاد الإسلام؛ كبلاد فارس والشام والعراق ومصر وإفريقيا وصقلية والمغرب والأندلس. بدأت الكتابات العربية حول قرطاجنّة في الظهور منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وتصاعد نسق التأليف بعد القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) والقرون المتوالية، فتعددت المؤلفات والإشارات بصفة منتظمة لتغطي كامل العصر الوسيط والعصر الحديث، مما يتيح للمؤرخين والأثريين مادة مصدرية متواصلة.

قراءة في المصادر العربية

يقودنا استعراض أهم المؤلفات العربية إلى إبداء بعض الملاحظات الشكلية والجوهرية في الوقت نفسه. وأول ما يشدُّ الانتباه، ونود التنويه إليه، هو أن المعلومات التي تعلقت بقرطاجنّة تعدّ مختصرة جداً إذا ما قورنت بتلك التي سبقت عن عواصم أخرى مثل: بغداد وواسط والكوفة والبصرة ودمشق والقاهرة والقيروان وتونس وفاس ومراكش وقرطبة، أو حتى مدن صغرى مثل: قابس وسوسة وصفاقس، فكل ما لدينا حول قرطاجنّة لا يعدو غالباً أن يكون معلومات سريعة وعرضية مختصرة.

كما نلاحظ أن أقدم الكتابات العربية عن قرطاجنّة تعود للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهذا يعني أنه ليس لدينا أي مؤلف يرقى إلى فترة الفتوحات وعصر الولاة، بحيث يبقيان من العصور الغامضة المستعصية على المؤرخين، فمعرفتنا لهذه الحقبة الأساسية مرتبطة بالرجوع إلى ما جاء في بعض المؤلفات المتأخرة بقرن أو بقرنين، وهو ما من شأنه أن يُدخِل اضطراباً في ترتيب الأحداث ويسمح بمزج الواقعي بالخرافي.

لقد وردت الكتابات الأولى مختصرة إلى أقصى الحدود وقد دوّنها في بداية الأمر مشارقة كانوا يجهلون إفريقيا ومجالها الجغرافي وخلفيتها التاريخية، لاهتمامهم الأولي بمعرفة المشرق مركز الدولة العربية الإسلامية. ولنا مثال ساطع على ذلك فيما أورده كل من ابن الفقيه الهمذاني وابن خرداذبة، فكلاهما من أصول فارسية إيرانية يجهل كل شيء عن المغرب، وهو ما حدا بهما إلى القول: إن «**اسم مدينة تونس قرطاجنّة**»، والخلط نفسه نجده لدى الزهري الذي لم يكن يعلم أن قرطاجنّة هي التي لقبت بـ «المعلقة». أما كُتّاب الأندلس فكثيراً ما كانوا يخلطون بين قرطاجنّة إفريقيا وقرطاجنّة الخلفاء بالأندلس[٢]. وهذا الخلط لدى هؤلاء وأولئك سببه عدم معرفة المجال الموصوف، وقلة العناية بالمجالات البعيدة عن الأوطان، ومحدودية الاطلاع والفضول والاقتصار على النقل عن الغير. وهكذا نرى أنّه منذ العصور الأولى هنالك

نـزع إلى المحلية. وهـذا ما يفسّرُ عدم الاكتراث بقرطاجنّة لدى أكبـر كتّاب العصر الإسلامي الأول ومؤرخيـه مثل الطّبري والبلاذري واليعقوبـي الذين لم يشيروا ولو مرة واحدة لقرطاجنّة علـى عظمها وكبرها؛ بل إنّنا نرى أنَّ أولئك الذين أقـروا بأهميتها وبمركزها المتميز، بصفتها عاصمـة الدّولة البيزنطية الروميـة بإفريقيا قبل قدوم العرب واستقرارهم بها، لم يكتبوا عنها سـوى بعض الشذرات التي لا تشفي الغليـل والّتي لا تتعدى غالباً الأحوال بعض الجمل السّريعة. وهـذا هو شـأن العراقي خليفة بن الخياط الذي أشار في تاريخـه إلى حملة وقعت على المدينة سنة ٥٩/٦٧٩، والمصري ابن عبد الحكم الذي كان مقتضباً في سرد الأحداث على أهمية موقع قرطاجنّـة في تاريخ الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب وإفريقيا. والثّابت، هو أنه يصعب على من يكتفي بقراءة كتب الجغرافيا ونقلها وتلخيصها من دون دراية بالواقع الميداني، أن يتصور الحقيقة وأن يدلي بمعلومات سليمة من الأخطاء، ولا سيّما إذا ما مزج عرضه بالأسطورة، فهذه الأخيرة لا تحترم المسافات والحدود الزمنية والجغرافية.

غير أن هذا الاختصار بدأ يمحى مع نهاية القرن الثّالث وبداية القرن الرّابع الهجريين/٩ و١٠م، بعـد قيام نظـام سياسي جديـد متمثّلاً في الدّولـة الفاطمية. لقد تحوّلـت إفريقيا مع الفاطميين مـن ولاية طرفية خاضعة وموالية للمشرق – مع الخلافـة الأموية والعباسية – إلى مقـر مركزي لأول خلافـة شيعية في تاريـخ المسلمين، لها عاصمتها: المهديـة، التي أضحت تضاهـي بغداد ودمشق وقرطبة، ولهـا إشعاعها الديني والثقافـي والسياسي الذي شمل أغلب أرجاء الدولة العربية والإسلامية مشرقاً ومغرباً. بل إن الدّولة الفاطمية نجحت في مدّ نفوذها إلـى مناطـق أساسية في المجال العربي مثل: مصر وبلاد الشام. ومن البدهي أن هذا التّحول السياسي صحبه تحول ثقافي كبير إذ صار لإفريقيا كتابها وفقهاؤها ومؤرخوها وجغرافيوها... وفي هذا الإطار العام بدأت العناية بجغرافية إفريقيا تتطور وتتجلى بصورة أوضح. وشمل هذا التّحول النّوعي قرطاجنّة بوصفها من أكبر مدن إفريقيا التاريخية.

وهـذا التحول أشار إليه حسـن الوزان حين قال: «**بقيت المدينة مهجورة مدة من الزمان إلـى أن جاء الخليفـة المهـدي فعمّرهـا من جديـد لكن لم يسكـن منها حينئذ سـوى نصف عشر مساحتها**»[٤]. ولا شك أن من مظاهر الاهتمام بالمدينة القديمة، العناية التي كان يوليها خلفاء الدولة الفاطمية لها؛ ذلك أننا نجد في كتابات مؤرخي الدولة الفاطمية ومنظريها الأوّلين مثل القاضـي النّعمان، وفي أكثر من مناسبة، تعبيراً عن مدى إعجاب الخلفاء بمنجزات القُدَماء، ولا سيّمـا الإعجاب بالحنايا الرُّومانية، التي كانت تَجلـب الماء من زغوان إلى قرطاجنّة. وقد

عمل خلفاء الدّولة الفاطمية على بناء حنايا «عين أيوب» على منوال الحنايا الرومانية، لجلب الماء من جبال شريشيرة الواقعة على بعد ٣٥ كلم غرب القيروان إلى مدينة المنصورية- صبرة الواقعة على أبواب القيروان. وتحدثنا المصادر أن الخليفة الفاطمي المنصور قد مرَّ بقرطاجنّة عند غزوة على بلاد الروم وتأمَّل في معالمها وعجائبها. فأعجب بفخامة المباني وضخامتها، وتساءل عمّن بنى هذه المدينة الشاسعة والمعالم الفاخرة هل هو ملك أو ملوك؟ وكيف يمكن لملك واحد أن ينجز هذا العدد من المعالم والعمر لا يكفي؟ وهل كان البناؤون ملكاً واحداً أو ملوكاً عدّة وكيف لهم أن يتفقوا على الاستقرار في المكان نفسه؟ إن مجمل هذه الأسئلة تعبر عن إعجاب وحيرة في الوقت نفسه؛ إعجاب بكثير من المعالم القائمة التي لم يكن بإمكان أهل إفريقيا، في القرن العاشر الميلادي، البناء على منوالها قوة وصلابة وضخامة. وحيرة؛ لأن زوال دولة لها مثل هذه القوة المادية والحضارية ممثلة في تلك المنجزات والمخلفات الرائعة كان أمراً شاغلاً ويتطلب التفسير فعلاً. كتب النّعمان: «**رؤيا رآها المنصور بالله... لمّا خرج المنصور بالله إلى ناحية تونس في حين إخراجه الأساطيل إلى غزو الرّوم نزل خربة قرطاجنّة، وهي لمن أحد عجائب الأوّلين في البناء، فأقام بها أيّاماً... فقال لي: أخبرك عن عجائب هذا البناء، لقد اشتغل قلبي به، فقلت في نفسي: ليت شعري من بناه؟ وهل واحد أو تعاقبه جماعة؟ وكيف اقتدر من بناه عليه مع عظمه واتساعه؟ وقلت: إن كان الذي بنى هذا ملكاً واحداً، فكيف اتسع بذلك والعُمُر لا يبلغه؟ وإن تداوله ملك بعد ملك، فكيف اتّفقت آراؤهم على هذا المكان وقلّما تتّفق الأهواء على سكنى البلدان، ولا سيّما الملوك؟**»[٥].

ولذلك، انبرى عدد من الكتاب والمؤلفين يحاولون معرفة أسباب أفول المدينة وخرابها. هذا السؤال المركزي الذي طرحه كثير من المؤلفين شكّل الخيط الرابط الخفي لكثير من الكتابات العربية. فالصعوبة الحقيقية التي وجدها العرب تمثلت خاصّة في معرفة التاريخ القديم السّابق للحقبة الإسلامية وهو ما أقرّ به منذ القرن السّادس عشر الميلادي الحسن الوزان عندما لاحظ «**أن الأفارقة لم يذكروا شيئاً عن هذه المدينة إلا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية**»، وهو ما يفسر في نظره عدم دقتهم وإلحاق بنائها بأهل الشام والأرمن وسكان برقة. وهذه الصعوبة نفسها تتجلى في مطالعة ابن أبي دينار الذي اعتمد في كتابه «المؤنس» على أحد المسيحيين لاعتقاده أن علم التّاريخ له مكانة عندهم ولكون تاريخ قرطاجنّة تاريخهم وأهل مكّة أدرى بشعابها كما يقال.

أساطير جديدة وتاريخ جديد

إن المتصفح لمجمل الروايات التاريخية المتصلة بقرطاجنّة يلاحظ منذ الوهلة الأولى صعوبة حقيقية موضوعية في التعاطي مع التاريخ القديم، السّابق للحقبة الإسلامية، وتتعمق الصّعوبات كلما تعلق الأمر بالتاريخ الغابر؛ كبدايات تأسيس قرطاجنّة وتاريخها في الفترة البونية الأولى (٨١٤ق م). ومنذ الوهلة الأولى، نلاحظ غياباً كلياً للأسطورة التي تناقلتها الكتابات اللاتينية عن الإغريق، والتي مفادها أن الملكة عليسة (ديدون Didon) هي من أسست قرطاجنّة قادمة من مدينة صور بلبنان. هذه القصة المتداولة بكثرة في الفترة الرومانية عند الشاعر فرجيل (فرقليوس) وبعض المؤرخين من أمثال يشتينوس (Justinus) وتيتوس-ليفيوس (Titus-Livius) وغيرهم لم تصل إلى المؤلفين العرب الذين عوضوها بقصص جديدة يمكن أن نرى فيها من الوهلة الأولى قطيعة مع الماضي، ولكن المتمعن المتأمل يجد فيها نظرة مغايرة لتاريخ العالم تستجيب لفكر مختلف عن الفكر السابق.

وقد لاحظ حسن الوزان هذا التقصير في المصادر العربية معلقاً على ذلك بقوله: إذَّ أمر تاريخ قرطاجنّة يزداد تعقيداً بكثرة الآراء المتضاربة والمتناقضة في الحين ذاته، كما أشار في كتابه وصف إفريقيا إلى «**أن لا أحد من المؤلفين الأفارقة يقول ويعرف الحقيقة، فضلاً عن أن المؤرخين والجغرافيين مثل ابن رشد (فيشيد في المطبوع) والشريف الأدريسي لم يذكروا شيئاً عن هذه المدينة إلا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية...**»[٦]. والواقع أن هذه الصعوبة تبدو حقيقة واقعة وتتواصل إلى أواخر العصر الحديث.

وقد يعني هذا انقطاع في سلسلة السند المعرفي التاريخي وتعطل نقل أخبار الأولين للاحقين المتأخرين ولا سيّما أن جل المؤلفين العرب كانوا يجهلون اللغات القديمة مثل الإغريقية واللاتينية، وكانت عنايتهم وغايتهم الأولى حفظ التاريخ الإسلامي والتعرف إليه. ومع ذلك، فلا بد أن نقرَّ عند مطالعة المصادر العربية في العصر الوسيط والمرحلة الحديثة، أننا إزاء أدب تاريخي ثري يمكن أن نميز فيه بين ثلاثة اتجاهات أساسية:

اتجاه أول؛ متأثر بالأدبيات اللاتينية القديمة يمكن أن ننعته بالتاريخي الغربي وهو اتجاه فيه اتصال بالموروث الحضاري اليوناني-الروماني-المسيحي عموماً ويمثله أبو عبيد البكري وصاحب كتاب «ذكر بلاد الأندلس».

اتجاه ثاني، جغرافي وصفي يقف عند العجيب والغريب ويتمثل أساساً في وصف المدينة والمعالم القديمة الموجودة بها ويمثله البكري والإدريسي والاستبصار.

اتجاه ثالث، يمكن أن ننعته بالمجدد تغلب عليه الأساطير المشرقية مع أن له في بعض الأحيان مراوحة مع الواقعية. وهذا الاتجاه الأخير هو الذي يهمنا في هذه الورقة للإضافة النوعية التي يمثلها.

* * *

إن المتمعن في المصادر التاريخية العربية يرى فيها ثلاث قصص جديدة لم تكن متداولة في العصور القديمة، على ما نعلم، تتعلق بالفترات الغابرة. القصة الأولى حول أصول المؤسسين الأول، والقصة الثانية تتعلق بخبر نقيشة قديمة عُثِر عليها بقبر حُفِر بقرطاجنّة، والقصة الثالثة تروي وقائع أسطورية حدثت ببحر رادس وهو الذي نسميه اليوم خليج تونس والذي تقع قرطاحنة قبالته.

آ- قصة التأسيس:

لعل أقدم من حاول أن يجيب عن مسألة التأسيس المحيرة الرقيق القيرواني الذي خصص في تاريخه فصلاً مقتضباً عن قرطاجنّة وقد أورد الرقيق، ناقلاً شيخاً مسناً من شيوخ الأندلس كان لقي الوالي موسى بن نصير، نصاً أساسياً جاء فيه: «**قال كيف كان خبر قرطاجنّة ومن بناها؟ قال قوم من بقية آل عاد**[٧] **الذين هلك قومهم بالريح، وبقيت بعدهم خراباً ألف عام، حتى أتى الزبير بن لاود بن ثمود الجبار**[٨]**، فبناها على البناء الأول ثم احتاج إلى الماء العذب، فبعث إلى أبيه، وكان أميراً على الشام، وعمه على السند والهند، وكان ملكه من قرطاجنّة إلى الأندلس، فأرسل إليه أبوه المهندسين، فهندسوا له الماء حتى وصلوا إلى قرطاجنّة». قال: «وكم كان عمره؟ قال: «سبعمئة سنة». فارتادوا له مجرى القناة أربعين سنة، وكان لما حفر أساسه، وجد حجراً مكتوباً فيه هذه المدينة علامة خرابها إذا ظهر فيها الملح**»[٩]**، فبينما نحن ذات يوم في غدير قرطاجنّة إذ بان الملح على الحجر فعندها رحلت إلى هنا**»[١٠].

هذه الرواية نقلها البكري بدوره وينسبها إلى ابن الجزار أبي جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبب القيرواني مؤلف المغازي (توفي سنة ٣٧٣/٩٧٤) وهو ما يفيد أنها رواية بدأت تتبلور في العصر الفاطمي وبداية العصر الزيري، أي تقريباً في الفترة نفسها التي عاش فيها القاضي النعمان (توفي سنة ٣٧٣/٩٧٤) ومن ثم فليس من المستبعد أن تكون الرواية مرتبطة بالسؤال الذي طرحه الخليفة الفاطمي على مؤرخي دولته.

والرواية التي نقلها كل من الرقيق والبكري لا تختلف عن تلك التي قدمها صاحب كتاب ذكر بلاد الأندلس والتي جاء فيها: «**قال ابن الجزار في كتاب عجائب البلدان أن النمرود فرعون**

إبراهيم عليه السلام ولي ولده بلاد المغرب والأندلس فنزل بمدينة طليطلة واتخذها دار ملكه فسكنها مئة سنة ثم انتقل منها إلى قرطاجنّة»[١١].

فرواية الرقيق وصاحب ذكر بلاد الأندلس وإن كانتا ترتقيان إلى ابن الجزار، فإنهما تختلفان في بعض المواضع (نسبة المدينة إلى قوم عاد) وتتفقان في الدور الذي كان لنمرود.

ب- قصة نقيشة القبر بقرطاجنّة:

إضافة إلى هذه القصة التي تتعلق بتأسيس المدينة على يدي قوم عاد هنالك قصة أخرى تتصل بالتاريخ الغابر أيضاً، وتتكرر باستمرار حتى إنها تخترق الأدبيات التاريخية من القرن العاشر الميلادي إلى القرن السابع عشر الميلادي. وهي رواية يمكن أن نجد فيها صيغتان: صيغة إفريقيا-مغربية (جاءت عند أبي العرب والبكري وغيرهما)، وصيغة مشرقية (الهمداني والمقريزي)، وكلاهما تتناولان الموضوع نفسه ولكنهما تختلفان في بعض النواحي وهما متكاملتان وتصبان في السياق نفسه.

أورد أبو العرب التميمي، وهو من أعيان البيت الأغلبي، وكان مجاهراً بعداوته للفاطميين، قصة مسندة إلى شخصية متميزة في الأدب التونسي وهي شخصية «عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي» وهو من سكان مدينة تونس ومن كبار القضاة والفقهاء، توفي على ما يعتقد سنة ١٥٦/٧٧٢. والقصة ترد لدى أبي العرب في وجهين مختلفين:

جاء في الأول: «**قال: حدثني عبد الله بن الوليد، قال: حدثني داود بن يحيى عن عبد الملك بن أبي كريمة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال: كنت وأنا غلام مع عمي بقرطاجنّة فإذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: «أنا عبد الله بن الأراشي**[١٢] **رسول رسول الله صالح النبي بعثني إلى أهل هذه القرية، أدعوهم إلى الله، أتيتهم ضحى فقتلوني ظلما، حسبهم الله»**

وفي الثاني: «قال وحدثني عبد الله بن الوليد أيضاً، حدثني داود بن يحيى عن جابر بن عثمان، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال: خرجت إلى قرطاجنّة مع عم لي، فأصبت كهيئة الدّرج -يعني مثل القبر- فإذا فيه رجل مسجى عليه ثوب، وإذا مكتوب عند رأسه: «أنا عبد الله بن الأراشي، رسول رسول الله شعيب[١٣]**، بعثت إلى هذه القرية، أتيتهم ضحى، قتلوني ظلماً، حسبهم الله»**[١٤].

هذه الروايات مهمّة، إذ هي مسندة تقريباً كلها إلى أفارقة جميعهم من علماء القيروان عاشوا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أي معاصرون للإمام سحنون.

ج- قصة بحر رادس:

هذه القصة نجدها لدى البكري وقد أخذها عنه كل من التّجاني في القرن الرابع عشر الميلادي وابن أبي دينار صاحب المؤنس في القرن السّابع عشر الميلادي. قال البكري: «وروي

أن ببحر رادس[١٥] خرق الخضر السفينة وأن الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً الجلندي ملك قرطاجنّة، فخرق الخضر السفينة ببحر رادس وقتل الغلام بطنبذة وهي اليوم تسمى المحمدية، وهنالك فارق موسى الخضر عليهما السلام وطنبذة على أميال مسيرة من تونس»[١٦].

وهـذه القصة مستوحاة من القصص القرآنـي وبالتحديد من سورة الكهف[١٧] وهي قصة موسـى مع الخضر، التي لم يرد فـي النص القرآني الكريم تصريح بزمانها ومكانها مما جعل بعض المفسرين يقولون إن أطوارها دارت ببحر رادس (خليج تونس اليوم) وإن الملك المعني بالأمـر في الآية هو ملـك قرطاجنّة ويسمي بالجلندا وقد كان مـن المفسدين المسيطرين في البحـر يتعدى على سفـن المساكين ويغتصبها وأن الخضر لما خرق المركب (عطّله) أنقذهم من بطش الملك وأبقى لهم سفينتهم التي يمكن إصلاحها. وحتى يكون نسق التفسير منطقياً، عدّ بعض المفسرين أن الغلام الذي قتل، وكان كافراً، هو من طنبذة وهي من المواقع القريبة من قرطاجنّة أيضاً. وقد تعرض ابن حبيب في تاريخه (أندلسي توفي سنة ٣٣٨) إلى شخصية الخضـر الغامضة الأسطورية وجعله بأنطاكية ونـزع عنه صفة الرسول ونفى أن يكون من زمن موسى بل رآه قبل ذلك وقال: «**إن اسمه وهب بن عامر وكان لسانه عربياً وإنما سمي الخضر لأنه إذا صلى اخضرّ ما حوله وكان نبياً سأل الله عبادته...**»[١٨].

إرساء سردية تاريخية جديدة

إن المتأمـل فـي مختلف الروايـات والقصص التاريخـي والأساطير المتعلقـة بقرطاجنّة يلاحـظ أنهـا تأتي على تسمية كثير من الأشخاص والشعـوب والقبائل وكأن هنالك فكرة يراد التعبير عنها دون الإفصاح عنها مباشرة، وعلى المؤرخ المعاصر أن يتفطن إلى ما يراد تبليغه بمحاولـة تحديـد القصد المطلوب، ولا يكون ذلك بالتأكيد إلا بالتعـرف إلى الرموز التاريخية التـي ورد ذكرها هنـا وهناك. فلقد ذكرت مصادرنا كلاً من: **قوم عـاد، ونمرود الجبار، وحمير والخـط المسنـد والرسـول صالـح والرسـول شعيـب، وكنعان وأراش.** وإذ نعـرّف تعريفاً موجزاً بمختلف هذه الأسماء فإننا نود أن نجد القواسم المشتركة بينها، والمقاصد التي تفسّر اللجوء إليهـا واستعمالهـا عن وعي أو عن غير وعـي. وكثيراً ما تعرضت مصادرنـا العربية إلى بعض هـذه الشخصيـات عند تفسيرها للقـرآن أو عند الحديث عن الرسـل السابقين وهي قصص تأخـذ للعبرة. ونجـد صداها لدى المسعودي في مروج الذهـب (٩٥٧/٣٤٦) ولدى ابن حبيب الأندلسـي (توفـي سنـة ٩٤٩/٣٣٨)، وكلاهمـا عاصر الخلافـة الأموية بالأندلـس والخلافة

الفاطمية بإفريقيا، وهما يعطيان فكرة واضحة عن مدى رواج هذا النوع من القصص الخارق في الأوساط المتعلمة المثقفة وهما نموذجان لرؤية العرب للتاريخ الغابر ومحاولة لتفسير غايته المنشودة. والمتأمل لجملة الروايات الواردة في هذا الصدد (قرطاجنة) يلاحظ أنها تتصل كلها بالمجال العربي المشرقي وبديانة التوحيد والحضارة العربية السامية وهذا ما يبرز في قول ابن حبيب: «وكان لسان الأنبياء كلهم ثلاثة ألسن: العربية والسريانية والعبرية». وبذلك نرى أن القصص تأتي ضمن نسق ديني يطغى عليه تفسير التاريخ الكوني انطلاقاً من النص القرآني وما أتى به من قصص الأقدمين، ولكن النص يخدم التاريخ في منطقة الجزيرة العربية وخارجها ولم تكن قرطاجنّة كما سنرى خارجة عن هذه الرؤية الشمولية للتاريخ والكون.

فقوم عاد، ذكروا في القرآن الكريم وقد كذبوا النبي هود فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً[١٩]. وقد أورد المسعودي في مروج الذهب تعريفاً بعاد نراه يعبر تعبيراً جلياً عن الفكرة التي ترسخت لدى العرب المسلمين عن هذه الأمة ولا سيّما فيما يتعلق بعظمة الأجسام. فقال: «عاد أول ملك من ملوك الأرض [في] قول هذه الطائفة، بعد أن أهلك الله عزّ وجلّ الكفار من قوم نوح، وذلك لقوله تعالى: واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيئات النخل طولاً، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة... ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم لقوة آثار الطبيعة فيها وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبره الله عزّ وجلّ»[٢٠]. وذكر ابن حبيب أن قوم عاد هم أول قوم بعد نوح وفسر الآية الكريمة: «زادكم في الخلق بسطة» أن لهم أجساماً قوية وقال: «إنه كان فيهم عشرون رجلاً جبارين عظيم خلقهم، كان طول أحدهم ثلاثة أميال في السماء، وكان منهم عاد بن عاد وإرم بن سام بن نوح، عاش ثلاثة آلاف سنة، كان يتغذى كل يوم ببقرة ويتعشى بأخرى، وكان يأكل فيما بين ذلك بكرة من الإبل، وكان إذا رمى لم تربض قائمة ولم يقم رابضة، وكان طول هؤلاء من السبعين ذراعاً إلى المئة وإنما كان يقال لهم العماليق، وكانوا يسكنون مدينة بشرقي المقدس». وقال «إن عاد الأولى هم أول من تكلم بالعربية».

• **النبي صالح**: ذكر في القرآن[٢١]، أرسل إلى قومه ثمود، وروى المسعودي قصة صالح بشيء من التفصيل مشيراً إلى أنه بُعِثَ لقومه وهو حدث وقدم المعجزات لإقناعم ولكنهم رفضوا دعوته بل عقروا الناقة التي بعث الله إليهم وكانت توفر الحليب لثمود كلها[٢٢]. وقال

ابـن حبيب: «إنه كان رجلاً أحمر إلى البياض سبـط وكان في شرف قومه وكذلك كل نبي إنما بعثـه الله من بيت قومه وشرفهـم». ولكنهم لم يؤمنوا به ورفضوا دعوته وعقروا ناقته فعاقبهم الله بـأن دمرهـم بزلزال ليلاً «أخذتهم رجفـة»، فخلع الرعب أفئدتهـم «فأصبحوا في دارهم جاثميـن» أي تضجعـوا موتاً، وهلكوا بالرجفة. وروى ابن حبيب قصـة النبي صالح فقال «بعث بحجـر اليمامة وهو ابن أربعين سنة»، فدعى قومه إلى التوحيد وترك الأصنام، وهو أول رسول بعـد هـود، وأمته أول أمة بعد عاد. وقال نقلاً عن أسد عن الوليـد بن مسلم «لو أن ثمود أيقنوا بالمغفرة كما أيقنوا بالعذاب لغفر الله لهم ولرحمهم».

• **نمـرود:** هو أيضاً مـن الشخصيات القرآنية[٢٣]. وهو شخصيـة تاريخية اتصفت بالقوة والصلابـة والتجبر، ملك ادعـى الربوبية وإليه ينسب بناء مدينة بابـل وبرجها المشهور، بناه ليَنجُوَ من الطّوفان. لم يرد ذكره في القرآن الكريم ولكن المفسرين يعتقدون أنه هو الذي حثّ قومـه على رفض دعوة النّبي إبراهيم وجادله وأمر بحرقه ولكن الإله جعل النار برداً وسلاماً. ويقـدم نمـرود على أنه الجـد الأول لقبيلة أزد العربيـة التي شكلت تجمعاً قبليـاً كبيراً بجنوب الجزيـرة العربية، وازدهـرت فلاحتها بفضل سد مـأرب المشهور، ولكن لمـا سقط السّد في حوالـي ٥٧٠م، تفرقت أزد وانتشرت في مختلف الأصقاع ولا سيّما في شمال الجزيرة العربية. وقـد تكون قرطاجنّة مـن المواقع التي استقبلت بعضاً من أولئـك المهاجرين ولكن ليس لدينا أي دليـل تاريخي على ذلك. وقد تعرض ابن حبيب لشخصية نمرود عند الحديث عن إبراهيم الخليـل فقال: «وكان إبراهيم في زمـان نمرود بن كنعان الجبار، وهو أول من تجبر في الأرض وتكبـر فيها، ومنـه الجبابرة البرابر، وكان ممـن ملكه الله في الدنيا...وهـو الذي أمر ببنيان الصـرح ليصعد إلى السماء ففعل، فصعد حيث شـاء الله، فبعث الله ريحَ الزمهرير من أربعة أركان الأرض فبلبل الله قلوبهم وألسنتهم وهم يومئذ اثنان وسبعون قائداً ولكل واحد منهم أمة ولسـان فكان يتكلم هؤلاء بلسان لا يفهمه هؤلاء، فلذلك سميت بابل؛ لأن ألسنتهم تبلبلت يعني اختفت». ونمرود هذا هو الذي ألقى إبراهيم عليه السلام في النار وذلك أنه عال آلهتهم فقال «حَرِّقـوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» فعملـوا له دارة وملؤوها بالحطب، فلما صارت ناراً قمطوه ثم جعلوه في كفة المنجنيق...قال الله عز وجل: «كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»[٢٤].

• **الرسول شعيب:** ذكر في القرآن الكريم[٢٥] على أنه بُعِثَ إلى قومه بقرية مدين التّجارية الواقعة في منطقة تبوك بالجزيرة العربية وقد عمل على حثهم على التجارة الشريفة فرفضوا ذلك فعاقبهم الله بأن سلط عليهم غمامة قضت عليهم. وقد نقل ابن حبيب عن ابن عباس أن

«مدين رجل وليس ببلدة، وإنما سميت مدين بالقوم الذين سكنوها». وقد دعا شعيب قومه إلى التوحيد ونهاهم عن عبادة غيره وذلك أن عبادة الأصنام قد فشت في ذلك الزمان... وكانوا يطففون في المكيال والميزان... وكانوا يقطعون الدنانير والدراهم (أي ينقصون من وزنها)، فسلط الله عليهم مثل من سبقهم من الفاسدين «شدة الكرب والغم وحرارة الشمس... فماتوا من ذلك أجمعين».

• **حمير**: ذكرت في الكتابة التي عثر عليها بقبر بقرطاجنّة زمن عبد الرحمن الإفريقي، والواضح أن القبر المذكور كان مبنياً حتى وصف أنه على هيئة الدرج وأنه أزاج، وهو ما يوحي أنه من صنف القبور البونية المشهورة بكونها محفورة في الصخر. والكتابة تنسب هنا إلى حمير وهي من قبائل العرب المشهورة وقد أسست مملكة كبيرة بلغت أوجها في القرن الأول الميلادي سميت بالتبابعة، وكانت من أكبر المنازعين لممالك سبأ وحضرموت وقطبان. وقد تمكنت حمير من توحيد جنوب الجزيرة العربية في القرن الرابع الميلادي، ويعد عصرها أوج اليمن قبل الإسلام. وقد ازدهرت الكتابة زمن حمير وكان خطهم هو الخط المسند الذي ذكره المقريزي، على أنه عثر عليه في نقيشة القبر الذي حفر بقرطاجنّة زمن زياد بن أنعم. والغالب على الظن أن النقيشة التي وجدت بقرطاجنّة كانت مكتوبة بالخط البوني الدارج قبل الحقبة الرومانية (يسمه ابن أبي دينار الخط الأول، ص٢٣)، ولكن عدم معرفة الأفارقة الأوليين بالخطوط القديمة جعلتهم ينسبونها إلى بلاد العرب. وفي هذا رغبة واضحة في تعريب قرطاجنّة.

• ذكرت مصادرنا أيضاً ألقاب الأراشي والأوزاعي والكنعاني وهي كلها ألقاب متصلة بجنوب الجزيرة العربية وباليمن خاصة.

إن مجمل الأسماء التي وردت في القصص القديمة، والتي عرفنا بها سريعاً، تقودنا إلى استنتاج مهم يتعلق بتحول السند العلمي والقطيعة مع التاريخانية الغربية الإغريقية – الرومانية ويهمنا أن نبدي بعض الملاحظات.

الملاحظة الأولى: إن كلّ الأشخاص والقبائل والأحداث متصلة اتصالاً وثيقاً بالموروث الحضاري العربي. فجل الشخصيات المذكورة لها اتصال بالجزيرة العربية، وتحديداً ببلاد اليمن مثلما يتراءى لنا من خلال الأمثلة التي قدمنا، وفي هذا رغبة في تعريب تاريخ قرطاجنّة والنظر إليها من زاوية المخيال الأسطوري العربي وهي طريقة ذكية فطنة لدمجها في المنظومة التاريخية العربية مثلها مثل بقية المدن التاريخية الكبرى. فمؤسسو قرطاجنّة يُقَدّمُونَ على أنهم عرباً وكذلك ملوكها وشعبها وكتاباتها كلها عربية قديمة.

الملاحظة الثانية: إن قرطاجنّة تدمج في الرؤية الإسلامية لتاريخ البشرية فكثيرٌ، مما وقع بها لا يمكن فهمه خارج النسق الإسلامي للتاريخ الكوني ودون العودة إلى النصوص القرآنية. فما وقع لعاد وموسى مع الخضر في بحر رادس، وما لاقاه النبيان صالح وشعيب، وما فعله نمرود زمن النبي إبراهيم له امتداد طبيعي في أرض قرطاجنّة التي لم تكن بمعزل عن الأحداث المشرقية بل كانت جزءاً من ذاك المجال الشاسع الممتد. بل إن أحد أبواب قرطاجنّة كان يسمى بباب جهنم (ابن أبي دينار، ص٢٥) مع ما لهذه التسمية من معانٍ في الديانة الإسلامية.

الملاحظة الثالثة: كانت الكتابات بصفة جلية أو خفية تحاول تفسير عظمة المدينة وقوة معالمها ومن ثم انطوت بوعي أو غير وعي عن فكرة مفادها أن من بنى قرطاجنّة كانوا أقواماً متميزين مختلفين من حيث البنية عن المتأخرين، وهذا الرأي نجده لدى المسعودي والمقريزي اللذين يدافعان عن فكرة وجود العمالقة. فقد كتب المقريزي فصلاً مطولاً عن هذا الصنف من الشعوب نقتطف منه قصة ملك مصر الذي: «دخل الإسكندرية، فأعجبه هذا القصر، وأراد أن يبني مثله، فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصراً عظيماً على هيئته، فما منهم إلا من اعترف بعجزه عن مثله، إلا شيخاً منهم، فإنه التزم أن يصنع مثله، فسر الملك ذلك، وأذن له في طلب ما يحتاج إليه من المؤن والآلات والرجال، فقال: ائتوني بثورين مطيقين وعجلة كبيرة، ففي الحال آتي بذلك، فمضى إلى المقابر القديمة، وحفر فيها قبراً أخرج منه جمجمة عظيمة، رفعها رجال عدّة من على العجلة، فما جرها الثوران مع قوتهما إلا بعد جهد وعناء، فلما وقف بها بين يدي الملك، قال:أصلح الله سيدنا، إن أتيتني بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر؟ فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن إقامة مثل ذلك القصر»، ثم أضاف مدافعاً عن اعتقاده هذا: «وكأني بمن قلّ علمه ينكر عليّ إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال، ومما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه، فلا توحشنك حكايتي». وأبلغ من عبر عن فكرة عظمة سكان قرطاجنة القدماء، هو الجغرافي الزهري الذي سجل: «وبمقربة من (مدينة تونس) المدينة المعلقة وهي خربة موسومة بالقدم لها بنيان عجيب يدل على أنها من بنيان قوم ليسوا على قدرنا ولا على مثلنا بل هم أعظم خلقة وأشد قوة...»؛ لذا كثيراً ما ألحقت مدينة قرطاجنّة مثل غيرها من المدن العظيمة إلى قوم عاد أو العمالقة.

وقد فند القاضي النعمان فكرة وجود العمالقة بقرطاجنة عند إيراده تاريخ بناء حنايا شريشيرة، فقال على لسان الخليفة الذي أجاب من شكك على مقدرة البناء على شاكلة

الأوليـن: «اللّهـم إلا أن يصحّ في عقولهم الفاسدة أنّهم كانوا في القوّة وعظم الأجسام في خلاف مـا عليـه اليوم الأنام. وكما زعموا أنّ المرأة كانـت تأتي بأعظم صخرة، يرونها تحملها على رأسها ومغزلها في يدها. فإن كان بمثل هذا من المحال تصوّب هذا عندهم، فنعم». ودحض ابن خلدون أيضـاً بفكـره النقـدي الثاقب هذا المعتقد ونقـده نقداً صريحاً في المقدمـة عندما قال: «وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة، مثل إيوان كسرى وأهرام مصـر وحنايـا المعلقـة وشرشال بالمغـرب، إنما كانت بقدرهـم متفرقيـن أو مجتمعين. فيتخيل لهـم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها... وكثير من المغفلين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل فـي نقـل الأجـرام عند أهل الدولـة المعتنين بذلك من العجم مـا يشهد له بما قلنـاه. وأكثر آثار الأقدميـن لهـذا العهد تسميها العامة عادية نسبة إلـى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم، وليس كذلك»[٢٦]. وبالتأكيد هذه الأقوام التي لها مثل هـذه الضخامة الجسدية كانت تعيش مئات السّنين، على غرار الشيخ الذي عاش سبعمئة سنة وانتقل من إفريقيا إلى الأندلس.

أمـا الملاحظـة الرابعة، فتتعلـق بتفسير سبـب زوال الملك والعمران بقرطاجنّـة، وهي التي كانـت مـن عجائب الدنيا، وهنا يعود المؤرخون العرب إلى النصـ القرآني الذي يقر في أكثر من مناسبـة أن فسـاد الحاكـم هو الذي يـؤدي إلى خراب العمـران. فقد جاء في القـرآن، في سورة الأنعـام «وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها». وجاء في سورة الإسراء: «وإذا أردنـا أن نهلـك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القـول فدمرناها تدميراً». وجاء في سورة هود الآية ١١٧: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. فدمار قرطاجنّة إنما هـو في نظر المؤرخين المسلمين، عقاب إلهي نتيجة سلـوك أهل القرية وهو أشبه بالعقاب الذي سلـط على قـوم عاد الذين وصفهم محرز بن خلـف في شعره بالطغاة الغـواة. وهو مآل يستحقه الجلنـدا، الذي كان سلوكه مشيناً ويعترض السفـن ويقهر أصحاب البحر ويغتصبهم. وهو عقاب عادل مستحق لأهل القرية التي رفضت دعوة رسول النبي صالح أو رسول الرسول شعيب وقتلتهما. فهـؤلاء جميعاً مصيرهم كان مصيـر الأمم الغابرة الذين تحدث عنهم النص القرآني. وقد أورد ابـن حبيب كثيراً من الروايات التي تتعلق بجـور الحاكم وزوال الملك: «... **قال أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران: ما كنت لأعذب الرعية وإن كانت ظالمة مسيئة، إذا كانت الأئمة هادية مهدية ولكني يا موسى أعذب الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الأئمة ظالمة مسيئة ولا يأتي حساب**

الرعية إذا كانت هادية مهدية على سيئات الأئمة. ولذلك قيل صلاح الوالي خير من خصب الزمان، ولذلك كان الملك فيما مضى يرى صحة ملكه أحب إليه من صحة جسده».

والعبرة واضحة وهو أن يعرف الجميع أن الله يرث الأرض ومن عليها، وأن على الإنسان أن لا يغتر بالقوة، وأن الملك لله لن يدوم إلا له، تلك هي الغاية من آثار قرطاجنّة وذاك تفسير سبب خرابها.

الملاحظة الخامسة: هو أن اللجوء إلى القصص التاريخي طريقة معتمدة في تجاوز التحقيب الزمني وكذلك الواقع الجغرافي. فنحن لا نجد نصاً واحداً يذكر لنا تاريخاً محدداً مدققاً إذا ما استثنينا طبعاً الفارق الزمني الذي يفصل بين إنشاء قرطاجنّة وروما وهو «اثنان وسبعون سنة»، وهو تأريخ مأخوذ من الكتب القديمة ومنقول عن هوروسيوس الذي اعتمد بدوره من سبقه من مؤلفي الرومان. وبآليات القصة لم تعد للأخطاء معانٍ ولا يمكن التشدد في ترتيب الأحداث أو التحقق من مدى صحتها. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الجغرافيا التي، بفعل الأساطير، تزول فيها الحدود والتخوم. لقد كان العرب يرون الحضارات السابقة حضارات أقوام من «الكفّار» لاتستحق التفكير والتمحيص وما كتب عن «قرطاجنّة إفريقيا» يبرز أنّ النقل عندهم يغلب على العقل، فاذا هي حكايات عن الأوّلين يرددونها وكأنها حقيقة، وشعارهم في ذلك أن «الإسلام يجب ما قبله».

هكذا إذن، بهذا الكم الوافر من القصص الموضوعة -قصداً أو عفواً- استوعبوا تاريخ قرطاجنّة وأُدخِلَ في بوتقة الحضارة العربية-الإسلامية السامية، بما يجعله تاريخاً متناسقاً مع ما كان سائداً ومعروفاً في المشرق وفي الجزيرة العربية واليمن على وجه الخصوص. ويضاف إلى كل هذا -بالتأكيد-، كل ما قيل عن أصول البربر العربية، وكأن النسق متكاملاً والخطة واضحة. وهذا ما نفهمه من ابن أبي دينار حين قال: «وإنما كانت دار الملك في قديم الزمان [بإفريقيا] قرطاجنّة لما كانت بيد الأفارقة الإغريقيين إلى أن دخل عليهم البربر من بلاد المشرق بعدما قتل ملكهم جالوت وتفرقوا في البلاد فانحاز أكثرهم إلى إفريقيا والمغرب واستوطنوا البلاد سهلها ووعرها إلى أن ظهر فيهم دين النصرانية فتغلبت الروم على سواحل البلاد وصار البربر لهم ذمة»[٢٧]. ونحن نرى أن ابن ابي دينار يعتبر أن السّكان الأول هم الأفارقة وهم من أصل إغريقي وأن البربر جاؤوا إثر مقتل جالوت على يدي داوود في فلسطين، وذلك في الألفية الأولى قبل الميلاد. وهذا الرأي هو في ذاته متناسق مع النص القرآني؛ إذ سجلت قصة جالوت وداوود في سورة البقرة الآيتين ٢٥٠-٢٥١.

ومما يثير الانتباه حقاً هو القطيعة التي كانت مع المؤلفات القديمة، فباستثناء المؤلفات الأندلسية التي بقيت مطلعة نسبياً على الأدبيات اللاتينية والإغريقية المتأخرة والتي تُرجمت في عهد الخليفة الناصر مثل كتاب **تاريخ العالم أورسيوس**[٢٨]، فإن بقية الأدبيات التاريخية الأخرى، بما في ذلك الإفريقية، قطعت السند العلمي الغربي وعوضته بسند جديد هو السند العربي الإسلامي وهو أمر جعل من الإحاطة بتاريخ قرطاجنّة المتعارف عليه في العصور القديمة أمراً عسيراً استحال معه نقل الأساطير اليونانية والرومانية القديمة التي فقد أثرها تماماً وعُوِّضت بسردية جديدة.

الهوامش

(١)- لم تستعمل المصادر العربية كلمة قرطاج التي لم تظهر إلا مع الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية وكل المؤرخين العرب القدامى، دون استثناء، أقروا تسمية «قرطاجنة» التي ورثت عن الفترة البيزنطية. ولتمييزها عن قرطاجنة الأندلس عادة ما عمد الكتاب العرب بنعتها «بقرطاجنة إفريقية» أو «قرطاجنة تونس» أو «قرطاجنة الكبرى».

(٢)- كلمة إفريقية ورثت اللفظ اللاتيني «أفريقا /Africa» تطلق في المصادر العربية على المنطقة التي تمتد غربي برقة إلى حدود بلاد السوس، أي المغرب الأقصى. وهي بذلك تشمل البلاد التونسية والجزء الغربي من البلاد الليبية والجزء الشرقي من البلاد الجزائرية.

(٣)- انظر المقّري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٦٨. وفيها يشير إلى خلط بين قرطاجنّة إفريقية وقرطاجنّة الأندلس (الخلفاء) لدى من سبقه من الكتاب.

(٤)- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج٢، ص ٦٩.

(٥)- القاضي النعنان، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي و إبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، تونس، ١٩٧٨م، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٦)- حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج ٢، ص٦٩.

(٧)- البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فا ليوفن وأندري فيري، تونس، ١٩٩٢ ج. ٢، فقرات عدد ١١٧٥ – ١١٨٢ وتحقيق دي سلان الجزائر، ١٩١١م. ص ٤١-٤٥، ويذكر أنه بناها قوم من بقية العاديين

(٨)- يذكره البكري باسم أردمين بن لاودين بن نمرود الجبار، وقال صاحب الاستبصار إنه أرمين بن أزد بن نمرود.

(٩)- البكري : «أصيب فيه حجر عليه كتابة فإذا فيه أن هذه المدينة ليس تخرب إلا إذا ظهر فيها الملح».

(١٠)- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، ١٩٦٨م، ص٨٥-٨٦، وأعاد تحقيقه زيدان وموسى، بيروت ١٩٩٠م.

(١١)- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، مدريد، ١٩٨٣، ص٨٩-٩١.

(١٢)- البكري، يذكر عبد الله بن الأواش عوضا عن عبد الله بن الأراشي.

(١٣)- البكري، يذكر متعب وهو تصحيف واضح لشعيب.

(١٤)-.أبـو العرب التميمي، كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي، تونس، ١٩٦٨م، ص٥٥-٥٦.

(١٥)- قـال البكـري في معرض حديثه عن مدينـة تونس «واسم مدينة توس فـي الأول ترشيش ويقال لبحرها بحر رادس ومرساها مرسى رادس»، والنص نقله ابن أبي دينار بحذافره.

(١٦)- البكري، ١٩٩٢، ج٢، ص٦٩٤.

(١٧)- سورة الكهف الآية ٦٠-٨٢.

(١٨)- ابن حبيب، كتاب التاريخ، تحقيق: عبد الغني مستو، بيروت، ٢٠٠٨، ص٣٢

(١٩)- سورة هود، الآيات ٤٩-٥٣.

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص٣١.

(٢١)- سـورة الأعـراف، الآيات ٧٣-٧٨ **﴿وَإِلَـى ثَمُودَ أَخَاهُـمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَـوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَـا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

(٢٢)- انظر مروج الذهب، ج ٢، ص٣٣-٣٥.

(٢٣)- سورة الأنبياء، الآيات ٦٦-٧١

(٢٤)- ابن حبيب ص٥٢-٥٣

(٢٥)- سـورة هـود الآيات ٨٤-٩٥: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَـا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾**.

(٢٦)- المقدمة، ص ٢٥٧، طبعة دار صادر، بيروت ٢٠٠٩م.

(٢٧)- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص٢٢.

(٢٨)- أورسيوس، تاريـخ العالم، الدار العربيـة للدراسات والنشر، تحقيق: عبد الرحمـن بدوي، بيروت، ١٩٨٢م. والكتاب ترجم عن اللاطيمية في منتصف القرن الرابع الهجري.

* * *

التوسع الفينيقي وراء البحار

د. عمار عبد الرحمن

الكنعانيون هم سكان مناطق ساحل سوريا الطبيعية وظهرانيه، وقد عُرفوا بهذا الاسم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وهم أنفسهم الذين أطلق عليهم الإغريق تسمية الفينيقيين «فينيكس» Phoinix أو «فوينيكس» Phoinikes، وهي مشتقة من «فوينوس» Phinos اليونانية، وتعني اللون الأحمر القاتم، لعملهم في صناعة الأرجوان. وقد أورد الشاعر هوميروس أول ذكر لمصطلح «فينيقي» في الأوديسة، بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، لمّا تحدث عن اللون الأرجواني الضارب إلى الحمرة الذي يستخلص من تكسير أصداف الموريكس المستخرج من قاع البحر «فينيكس»[1]، وقد وصفهم أنهم أصحاب بشرة بنية اللون[2].

ولم يتخلَ هؤلاء عن هويتهم، حتى بعد قرون من تأسيس مستوطناتهم في شمالي أفريقيا. فقد أجاب بعض فلاحي قرطاج بلغتهم البونية؛ على سانت أوغسطين، أثناء إحدى حملات التبشير في نهاية القرن الرابع الميلادي، لمّا سألهم: «ماذا عنكم؟» فأجابوا ببساطة «نحن كنعانيون».

حقق الكنعانيون ازدهاراً كبيراً في كل ميادين الحياة، بما في ذلك العلوم والزراعة التي كان لديهم فائض فيها من القمح والشعير والتين والزيتون والرمان والنخيل وغير ذلك من المحاصيل والفاكهة، إضافة إلى الغابات وأشجار الأرز والسرو والصنوبر والسنديان والبلوط وغيرها، التي استخدموها في صناعة السفن وأبدعوا فيها. كما امتلكوا ثروة حيوانية كبيرة، وصناعة متنوعة منها الفخار المتميز والصباغ الأرجواني والمعادن المختلفة، ولم يكن يضاهيهم

أحد في هذه الصناعة، وقد أشار هوميروس أيضاً إلى هذا الأمر عندما ذكر أن الصيداويين الحاذقين في الصناعات اليدوية الدقيقة صنعوا صحناً من الفضة هو في جماله الأحسن من نوعه في العالم[٣]. إضافة إلى ذلك برع الكنعانيون في التجارة البحرية فصنعوا السفن التجارية وقادوها بمهارة كبيرة ومخروا بها عباب البحار ورسوا فيها على سواحل الأطلسي وأفريقيا وبريطانيا وربما أمريكا أيضاً.

ويشير الشاعر هيجين Hyggin في القرن الأول الميلادي إلى أن الفينيقيين كانوا على دراية في علم الفلك الذي يعد الدليل الأهم للبحارة، وكانوا يعرفون مجموعة الدب الأصغر والشمال، وكانوا على دراية بتبدل وضعية النجم القطبي أو الدب الأصغر بسبب تغير العرض الجغرافي عندما كانوا يبحرون حتى الجزر البريطانية وسواحل الشمال[٤]. ولهذا فقد أطلق الإغريق على نجم الدب الأصغر النجم الفينيقي.

قادت براعة البحارة الفينيقيين في البحار ومعرفتهم المتوارثة للطرق وأسرارها، ورغبتهم في تسويق منتجاتهم والحصول على الموارد التي تحتاجها مدنهم إلى مغامرات بحرية بالغة الأهمية انتهت بهم إلى تحقيق طموحاتهم وتأسيس كثير من المحطات التجارية والمراكز العمرانية في أماكن قريبة أو بعيدة جداً عن موطنهم الأصلي، ومنها:

١- قبرص:

إن قرب قبرص من الشاطئ الشرقي للمتوسط يجعلها مقصداً أولاً للبحارة الفينيقيين، فهي تبعد نحو ٨٠ كم عن الشاطئ السوري، وهذا جعلها المحطة الأولى لهم باتجاه بلاد اليونان أو إيطاليا وجزر المتوسط. ويشير المؤرخون إلى أن الفينيقيين اشتغلوا بتعدين النحاس الذي كان يصدّر إلى مصر وبلاد الرافدين في الجزء الشرقي من قبرص.

وقد قامت الباحثة الفرنسية مارغريت يون Marguerite Yon بأعمال تنقيب في موقع كيتيون Kition، شرقي قبرص، وكشفت عن بقايا معمارية مشابهة لما في أوغاريت، بما فيها البيوت السكنية ومعبد الإلهة عشترت، إلهة الخصب والحب[٥]، والأسوار وغيرها[٦]. كما كشفت الحفريات في مقبرة بالايبافوس عن فخار فينيقي معروف في القرن الحادي عشر قبل الميلاد[٧]. وعثر على نصين نقشا على كأسين برونزيين يشيران إلى أن حاكم قرت حدشت (القرية الحديثة) القبرصية يقدم نفسه خادماً لحيرام ملك الصيدونيين، كل هذا يدل على أن قبرص كانت من أقدم المحطات التي أسسها الفينيقيون للانطلاق نحو مناطق أخرى أكثر بعداً.

٢- اليونان:

تختلـط الروايات الإغريقية ومنها أشعار هوميروس في الإلياذة مع الأساطير عندما يتعلق الأمـر بالفينيقيين والعلاقـة معهم. ولكن أصبح مـن المؤكد الحضور المبكـر للفينيقيين في اليونان. وقد ذكر هيرودوت أنهم كانوا موجودين بفعالية وأنهم كشفوا عن مناجم ثاسوس:

«تقع مناجم الفينيقيين في ثاسوس بين بلدتي أينوره وقوينورة قبالة سامثراقة»[٨]. وتدعم التحريات الأثرية التي أجريت في الموقع هذا الأمر، إذ عثر في جزيرة كونس على نقش ثنائي اللغـة (فينيقـي – إغريقي)، ويتضمـن نصاً جاء فيه: «أنجـزت بأمر من ملـك صيدا إهداءً وإجلالاً للإلهة عشترت ودعاء لصالح الملاحين».

٣- جزيرة رودس:

جزيرة يونانية في بحر إيجه على الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، من أهم مدنها «لويدوس، وإياليسوس، وكاميروس». وقد كانت نقاطـاً مهمة لتوسع الفينيقيـن نظراً لقربها الجغرافـي من الساحل الشرقي للمتوسط. وقد أسَّس فيهـا الصوريون محطة تجارية تتضمن أسواقـاً ومستودعات، وقد عثر على نقش يعرف باسم أحد تجار المدينة وهو فلاس Phalas، فيما تذكر الروايات الأسطورية أن قدموس كان قد أشاد هذه الأسواق أثناء رحلاته[٩].

٤- صقلية:

تشكل صقلية حلقة وصل مهمة بين إيطاليا وتونس والساحل الأفريقي وصولاً إلى سواحل الأطلسي، ولهذا أسسوا مراكز تجارية لهم في بانورموPanormos وسوليس Soleis وسولونت Solonte وموتيا Motya. وتثبت الشواهد الأثرية، ولا سيما اللقى الفخارية، وجوداً للفينيقيين في هذه الأماكن منذ القرن الثامن قبل الميلاد[١٠].

وكانـت موتيـا منطقة بالغة الأهمية مـن الناحية العسكرية، التـي دارت فيها مواجهات مع بعض القوى يعتقد أنها إغريقية[١١].

ويرى بعض الباحثين أن القسم الشرقي من صقلية تعود آثاره إلى فترة إغريقية ترتبط مع إسبرطة وأثينا. أما القسم الغربي فهناك آثار محطة تجارية فينيقية تدل على استقرار لدعم النشـاط التجـاري. كما استمروا في تأسيس مراكز جديدة لهـم في الجزيرة لتطوير أعمالهم نحو القرن السادس قبل الميلاد[١٢].

وقد أشار الخطيب الروماني شيشرون إلى هذه الأعمال التجارية بقوله: إنَّ الجزيرة عرفت حركـة تجارية وملاحية كبيرة تمر بها السفن التجاريـة القوية التي تعجُّ بها شواطئ الجزيرة من آسيا ومن سوريا ومن صور والإسكندرية محملة بالأرجوان الصوري[١٣].

٥- جزيرة مالطا:

تقع هذه الجزيرة جنوبي صقلية، مما يعطيها أهمية في التواصل مع الساحل الإفريقي وتعود أقدم الآثار الفينيقية فيها إلى نحو القرن الثامن قبل الميلاد[١٤]، وكانت قديما تسمى ميليتي Melite، ونجد صدى لأخبارها في نصوص المؤرخين ومنهم ديودور الصقلي الذي يذكر: «استعمر الفينيقيون جزيرة ميليتي، الواقعة في قلب البحر، لتوسيع أفق تجارتهم حتى المحيط الغربي».

وقد كشفت التحريات الأثرية في الجزيرة عن عدد من الأبنية الدينية التي كُرّسَ معظمها للإلهة تانيت. وثمة نقوش تشير إلى نذور قدمها بعض التجار من صور لملقارت سيد (إله) صور[١٥]. ومن الجدير ذكره أن مرفأ مالطا كان من المرافئ المتميزة، وتذكر النصوص التاريخية أن أول من استثمر الجزيرة هو قدموس Cadmus الصوري، شقيق أوربا الذي أرسله والده للبحث عن شقيقته. وقد اشتغل عمال فينيقيون في هذه المنطقة بحثاً عن الذهب[١٦].

٦- سردينيا:

تعد جزيرة سردينيا محطة مهمة للطرق البحرية في المتوسط، فهي تشكل همزة وصل بين العديد من مناطق البحر المتوسط وطرقه، ولا سيما المتجهة من الشرق نحو الغرب. كما أن ساحل الجزيرة الغربي يشكل نقطة انطلاق نحو جزر البليار وسواحل إيبيريا الشرقية[١٧].

استوطن الفينيقيون الجزيرة وفقاً للمعطيات الأثرية في القرن التاسع قبل الميلاد[١٨]، وتعد مدينة نورا أهم المدن التي أسسوها، وقد عثر فيها على بقايا معبد مزخرف بشكل جميل.

وشهدت عدة مراكز أخرى في الجزيرة استيطاناً فينيقياً مثل «سارااليس Caralis، وأيضاً مدينة» كاقلياري Cagliari التي كانت غنية بالحديد والفضة[١٩]. وقد أحصي نحو ستة وثلاثين موقعاً أثرياً فينيقياً على الساحل، وسبعة وعشرين موقعاً في الداخل، وهذا يدل على حضور كثيف للفينيقيين في الجزيرة، ويرجعه بعض الباحثين إلى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد[٢٠].

٧- جزر البليار:

هي مجموعة جزر تتبع إسبانيا غربي البحر المتوسط وبالقرب من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية. وقد سكنت هذه الجزر في أوقات مبكرة مثل مثيلاتها في البحر المتوسط. وهذا ما تثبته التنقيبات الأثرية في موقع ساقليتا Sa Caleta جنوب غربي الجزيرة، حيث كشف عن قلعة ومساكن مستطيلة الشكل تفصل بينها ساحات ودروب. وقد أسس الفينيقيون فيها محطة إيبيزا من أجل تطوير وتمتين الطرق البحرية ولا سيما مع سردينيا، ولتسهيل

إنشـاء محطات أخرى علـى الطرق البحرية، وتعايشـوا مع السكان المحليـين الإيبيريين[٢١]. وهذا يظهر براعة الفينيقيين وحكمتهم في تحقيق طموحاتهم ذات الأفق العالمي، فلم يقتصر اهتمامهم فقط على الملاحة والسيطرة على المواقع الجديدة، بل اهتموا بالتعايش الاجتماعي والتواصل الحضاري مع السكان المحليين أينما كانوا ودمجهم في مشروعهم الحضاري.

٨- شبه جزيرة إيبيرية:

وصل الفينيقيون مبكراً إلى أقصى الغرب إلى ما يدعى اليوم إسبانيا أو إيبيريا، وقد أسس الصوريـون نحو ١١١٠ قبل الميلاد مدينة جديـرا Gadeira التي دعيت عند الرومان جاديس (قادش) وأصبحت اليوم قادس.

ومـن هذه المدينة انتشر الفينيقيون في جنوب إسبانيـا وأدركوا ما وراء عمودي هيرقليس وأسسـوا المدن في أرجاء البـلاد. وقد عثر في مدينة قرمونه Carmona شمال شرق إشبيليا على مدافن شبيهة جداً بالمدافن الفينيقية، وفيها مجموعة من التحف العاجية تحمل زخارف مميـزة منهـا مشهد محارب يهاجم أسداً. ووفقـاً للمؤرخ والجغرافي الإغريقـي استرابون فإنّ الفينيقييـن القادميـن مـن صور كانوا قـد أخضعوا كـل المناطق لسيطرتهـم وعرفوا منطقة جديدة قريبة من قادس تسمى ترشيش وكانت غنية بالمعادن الثمينة.

٩- إيطاليا:

مـن الطبيعـي أن تكون ايطاليا مكاناً يقصـده الملاحون الفينيقيون بعـد مرورهم بمعظم الجـزر القريبة من ايطاليا وتأسيس مراكز لهم فيها. ومـن أقدم مراكزهم في إيطاليا مدينة بوزلـي Pouzzoli التي كانت قريبة من مناجم الكبريت، وقد أصبحت مركزاً تجارياً مهماً في المنطقة كلها، وهذا الحضور التجاري ساعدهم على التواصل مع السكان الآخرين، وهو يفسر العلاقة المتينة مع الاتروسكيين، التي جاءت لاحقاً في القرن السابع قبل الميلاد[٢٢].

١٠- فرنسا:

بنيت العلاقات الفينيقية مع بلاد الغال ومساليا (مدنية مرسيليا الآن) على أساس تجاري وتبادل المنتجات التي كانت الخمور من أهمها والتي اشتهرت فيها مساليا[٢٣].

١١- قرطاج:

يعـد الانتقـال الفينيقي إلى الساحـل الإفريقي نقلة نوعيـة بالغة الأهمية مهـدت لتأسيس واحـدة من أهم المستوطنات ألا وهي قرطاج. ويفسر بعض الباحثين أن الانتقال من فينيقيا كـان بسبب الضغط الحاصل من الآشورييـن، ثم الإخمينيين من بعدهم[٢٤]. وتشير النصوص

إلى أنهم أسسوا قرطاج بعد رحلة استكشافات مكثفة لاختيار المكان المناسب. فقد استكشف الصوريون قبل ذلك أوتيكا (العتيقة) نحو ١١٠١ قبل الميلاد وفتحوا فيها أسواقاً دائمة[٢٥]، ولكن قرطاج كانت أهم مركز أسسه الفينيقيون واستمر يمارس دوره حتى بعد ضعف وتدهور الوضع السياسي في سوريا نتيجة الصراع مع الآشوريين والإخمينيين والإغريق، وظلت المدينة مركزاً متقدماً ونشيطاً ورث كل تراث الحضارة الأم على الساحل السوري ومزاياها.

كما أسس الفينيقيون مراكز مدنية أخرى في تونس قريبة من قرطاج منها هيبوزريت وهي بنزرت الآن، وحدروميت وهي سوسة الآن، وقابس، والديماس، ونابلس وهي نابل الآن، وكركوان[٢٦]، وغيرها. وحقيقة، فإن كثافة الاستيطان مذهلة وهي تدل على دولة مركزية قادرة على التخطيط والتنفيذ وذات أفق وطموح كبير.

١٢- مصر:

علاقة مصر مع سوريا قديمة تدل عليها المكتشفات الأثرية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد مروراً بالعصور اللاحقة. ويذكر هيرودوت أن ثمة حيّاً للفينيقيين في مدينة منفيس المصرية يقع جنوب حرمهيفايستوس، يقيم فيه ناس من صور، وكان الحي يسمى معسكر الصوريين[٢٧]. وتذكر النصوص القديمة أخبار تنسيق مع ملاحين فينيقيين لاستكشاف السواحل الأفريقية (لوبة) وذلك لخبرتهم في الملاحة البحرية، وكان ذلك بطلب من الملك المصري نخو (٦٠٩حتى ٥٩٤ ق.م). وقد كشف في إحدى الرحلات مكاناً شهيراً يسمى أوفير Ophir عرف بوفرة الذهب فيه.

١٣- ليبيا:

كانت ليبيا هي المقصد الأقرب بعد مصر ولسهولة الإبحار في الجزء الغربي من ليبيا كان هذا الطريق أكثر استخداماً، وقد أسس الفينيقيون، على الأرجح بداية الألف قبل الميلاد، مراكز ومرافئ تجارية لهم على طول الساحل الليبي، وكان من أهمها لبدة أو لبقى الكبرى Lepcis magna، وأويا Oea طرابلس الآن، وصبراتن (صبراته) Sabratha. ويبدو أن من أسس لبدة كانوا من أهل صيدا بالتحديد[٢٨].

ويعتقد أن القدوم المبكر إلى ليبيا كان في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، مع ملاحظة أن العلاقة مع السكان المحليين كانت تقوم على السلام والطمأنينة وتحقيق المصالح المشتركة[٢٩]. ويبدو أنهم كانوا يدفعون أجوراً جيدة للعمال الذي أسهموا في إشادة المرافئ، مما كان يساعد في إنجاز الأعمال بزمن قليل وجودة عالية.

١٤- الجزائر:

وكانت هذه المنطقة تعرف باسم نوميديا، ورغم أن الاستيطان فيها لم يكن بالكثافة نفسها في ليبيا، فإنّ ثمة محطات ومراكز أسسها الفينيقيون على سواحلها، منها: روسقاد (سكيكدة الآن)، وهيب رقيوس (عنابة الآن)، وسرتا (قسنطينة الآن)، وكانت تقيم فيها جاليات فينيقية لتنظيم التجارة[٣٠]. ويدل نقش عثر عليه في قرطاج أن نوميديا كانت غنية بالقمح والتين والأخشاب.

١٥- موريتانية والمغرب:

أقدم مركز فينيقي على ساحل المغرب هو ليكسوس الذي أسس في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد. أما مدينة مالميلدا فكانت تتمتع بأهمية تجارية وعثر فيها على أحواض استخراج الملح من مياه المحيط. وكانت ليكسوس على علاقة وطيدة مع قادس (في إسبانية)[٣١]، كما أسست مراكز مدنية أخرى مثل روسادير وهي ميليلا وإيمسا وتامودا، وقد عثر في هذه المراكز على فخار فينيقي من القرن السابع قبل الميلاد.

أما جنوبي موريتانيا فلا يعرف الكثير عنها سوى رحلة حنو التي كانت تسعى إلى التجارة مع قرطاج، وقد أسسوا عدداً من المراكز من نهر ليكسوس إلى جزيرة هرنة وكذلك على نهر النيجر ونهر السنغال الذي أسست عليه مستوطنة قرنة[٣٢].

١٦- أمريكا:

عثر على عدد من النقوش المكتوبة باللغة الفينيقية على الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية وجزره، وساحل أمريكا الشمالية وجزره في منطقة البحر الكاريبي وخليج المكسيك[٣٣]. وأشهرها نقش صخرة باريبا، ويتضمن رواية البحارة الفينيقيين ووصولهم إلى شاطئ البرازيل. وهذا ما دفع هانكة زودهوف إلى إصدار كتابها «معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا»، معتمدة على دراسات وأدلة عملية واطلاع مسبق على الروايات التراثية للسكان الأصليين[٣٤]، ومنها على سبيل المثال أن أشهر أساطير المايا «أسطورة الثعبان الرائش» (كيتزالكواتل) تتشابه إلى حَدٍّ كبير مع فكرة وصول زائر غريب، وهذا الزائر قد يكون فعلاً الفينيقيّين[٣٥].

ومن المنطقي القول إنّ من يمتلك القدرة على إنشاء كثير من المراكز والمحطات التجارية على شواطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، يمكنه استكشاف مناطق أكثر بعداً، وربما وصل أمريكا، والآثار والنقوش المكتشفة واضحة، لكن هذه الفكرة لا تروق للغرب وغير مقبولة لأنها تنال من شخصياتهم الكبيرة وتقلل من قيمة رواياتهم التاريخية.

جـاب الفينيقيون البحر الأبيض المتوسط وغيره من البحـار وأنشؤوا كثيراً من المحطات التجارية والمراكز المدنية على السواحل التي رست سفنهم عليها، وأسهموا في تنمية المناطق التي نزلوا فيها وتطويرها وتحقيق نهضة وازدهار كبير فيها في كل المجالات. وهذا ما انعكس إيجابـاً على السكـان المحليين الذيـن بنوا أفضل العلاقـات مع الوافدين الجـدد التي قامت علـى الاحترام والسـلام وتحقيق المنفعة المشتركة، ثم ما لبـث أن انصهر الجميع وصار لهم ثقافـة مادية وروحية واحدة بقيت ماثلة قروناً عديـدة. وقد قدمت التحريات الأثرية كثيراً من الاكتشافـات والمعطيات التـي تثبت ارتباط بناة هذه المدن والمراكـز الحضارية وسكانها مع وطنهم الأم على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

الهوامـش

(١)- مارتينـز، فرناندو بـرادو. (٢٠٢٣)، الفينيقيون من جبال لبنان إلى أعمدة هرقـل، ترجمة: بشار مصطفى، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص١٨.

(٢)- هوميروس، الإلياذة، النشيد، ص٢٣.

(٣)- اليادة هوميروس، الكتاب ٢٣، ص٧٤٠- ٧٤٥.

(٤)- ماتييـف ك. أ.سازونـوف، فينيقيـا بلـد الأرجوان، ترجمـة: يوسف الجهمانـي، دار حـوران للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ص ٢.

(5)- Andre Dupont-Sommer. Academie des Inscriptions et Belles Lettres. 1972.

(6)- Marguerite Yon. StudiaPhoenicia. v. Leuven. 1987. p.369.

(7)- GertaMaab - Lindemann . «Phoenicians between East and west». BAAL. Hors - serie. no. 6 - Beyrouth . 2009. p 480.

(8)- Herodot. vol V. p.42.

(٩)- معن عرب، صور حضارة فينيقية، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠، ص ١.

(١٠)- الشاذلي بورونية محمد الطاهر، قرطاج البونية تاريخ حضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص ٧.

(١١)- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية، تاريخ لبنان القديم، ص ٢٧.

(١٢)- غانـم محمد الصغيـر، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.

(١٣)- عـادل مصبـاح نصـرات، المرافـئ والموانـئ الفينيقية في ليبيـا، أطروحة لنيـل الدكتوراه فـي المغرب، ٢٠١٩، ص١٤٨.

(١٤)- المرجع السابق، ص١٥١.

(١٥)- معن عرب، صور حضارة فينيقية، مرجع سبق ذكره، بيروت، ص ١٢١ – ١٢٢.

(١٦)- فيليـب حتـى، تاريخ سوريا ولبنـان وفلسطين،، ج١، ج٢، ترجمة: جورج حداد، عبـد الكريم رافق، مراجعة: جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص١.

(١٧)- مفتـاح محمـد سعد البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي من القـرن السادس حتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد وأثره على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في قرطاجة، مجلس التفافة العام، سرت، ليبيا، ٢٠٠٨، ص٩.

(١٨)- غانم محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، مرجع سبق ذكره، ط٢، ص ٨.

(١٩)- عادل مفتاح نصرات، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٤.

(٢٠)- غانم، محمد الصغير، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥.

(٢١)- فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١، ص ١.

(٢٢)- الشاذلي بورويـنة محمد الطاهر، قرطاج البونية تاريخ حضارة، مرجع سبق ذكره، ص٢١٩.

(٢٣)- مفتاح محمد سعد البركي، مرجع سبق ذكره، ص١١٣.

(٢٤)- زهـرة الشريـف، تأسيس قرطاج وموجـات استيطان الفينيقيين بتونس، الحياة الثقافـي، العدد ٣٨، أكتوبر ١٩٨٥، ص١٤٢.

(٢٥)- زهرة الشريف، مرجع سبق ذكره، ص١٢٢.

(26)- Plinius . Natural History . Trans . by . H. Rackham .M.A .L. C.L. 1969 .V. XVII . P237

(٢٧)- ناريخهيرودت الجزء الثاني، ص١١١.

(٢٨)- عبـد الحفيظ فضيل الميار، الحضـارة الفينيقية في ليبيا، ص ٨٦؛ رجب الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، (٨٠٤)، ط ٢، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٤، ص١١.

(٢٩)- محمد بن مسعود، تاريخ ليبيا العام من القرون الأولى إلى العصر الحاضر، ج١، ط٤، مطابع الوفاء، بيروت، (٦٥٤)، ١٩٦٢، ص ٤٧ – ٤٨.

(٣٠)- مصطفـى الألفي، «المجتمع الحرفي للشرق الجزائري قبل العهد (٦٩٥) الروماني من خلال نقوش منطقة الحفرة»، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد ١، ١٩٩٦، ص ٢٧.

(٣١)- موحمد الصغير غانم، مرجع سبق ذكره، ص٩١.

(٣٢)- عادل نصرات، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧.

(٣٣)- ب. رادين، «الحضـارات الهنديـة في أمريكـا»، ترجمة: يوسف شلـب الشام، ط١، دار المنـارة للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ٧-٩.

(٣٤)- هاينكهزودهـوف، «معـذرةً كولومبوس: لسـت أول من اكتشف أمريكا، ترجمة: حسيـن عمران، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١.

(٣٥)- ب رادين، الحضارات الهندية في أمريكا، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣- ٤٤.

* * *

نقوش بونيّة من قرطاجة

د. باسم ميخائيل جبّور

يؤلّف الكنعانيون القسم الشمالي الغربي من مجموعة ما يسمى اصطلاحاً بالأقوام السامية، وتعدّ اللغات الكنعانية بفروعها (الأوغاريتية، الفينيقية، العبرية) من أهمّ اللغات السامية الشمالية الغربية وأغناها؛ لكثرة نقوشها المكتشفة وغزارة موضوعاتها وتنوعها.

وقد أطلق اليونانيون على سكان الساحل السوري اللبناني الفلسطيني اسم (الفينيقيين) نسبةً إلى المُنتج الرئيس الذي اشتهر به هؤلاء السكان وهو القماش المصبوغ باللون الأرجواني، وكان من أبرز ممالكهم: جزيرة أرواد وجُبَيل وصيدا وصور.

ونتج عن رغبة الفينيقيين في الإبحار والتجارة مع المدن الأخرى إقامة مستوطنات عدَّة في شرق البحر المتوسط وغربه، وكان من أهم المدن التي أقامها الفينيقيون في الشمالي الإفريقي (قَرَت حَدْشَتْ) أي: المدينة الحديثة، واشتُهرت باسمها اللاتيني قرطاجة Carthago، وأسَّستها عام ٨١٤ ق.م إيليسا التي خرجت من صور بعد اغتيال شقيقها بجماليون -ملك صور- لزوجها كاهن عشترت، وجُعلَ من قرطاجة أهم مركز حضاري للفينيقيين في غرب المتوسط[١].

لا تقلّ أهمية قرطاجة عن ممالك الشرق الفينيقي، وقد دلّت على ذلك الدراسات والأبحاث الإغريقية واللاتينية التي أفردتها للحديث عن قرطاجة وجانبها العسكري والسياسي وكذلك الحضاري، في ظلّ غياب الأدب البوني عنها[٢].

وقد أُطلق على الفينيقيين في قرطاجة اسم (البونيين) تمييزاً لهم من فينيقي الشرق، وكما اشتُهر الفينيقيون بالملاحة وحُبّهم الاستكشاف والتوسّع، تبعهم في ذلك البونيون في قرطاجة الذين سيّروا رحلات عدة في البحر، منها رحلة هيميلكون (نحو ٤٥٠ ق. م) بحثاً عن العنبر في شمالي الأطلسي، ورحلة هانون (نحو ٤٢٥ ق. م) رغبة منه في اكتشاف إفريقيا الغربية، وبحثاً عن مصادر الذهب[٣].

وقد برع القرطاجيون في مجالات الحياة كلّها، فاشتهروا بزراعة الحبوب والكرمة والزيتون والتين والرمان، وفي صناعة النسيج والتجارة والخزف والتعدين، وكذلك برعوا في صناعة السفن[٤].

ويقول ولفنسون «وكانت قَرَتْ حَدَشَتْ قد بلغت من الارتقاء مبلغاً عظيماً في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ولكن روما قضت عليها بعد حروب حامية، التحمت مدَّةً من السنين على أرض إيطاليا تحت لواء الكنعاني الشهير حنى بعل (هنيبال)، الذي يعدٌّ من أعظم قادة التاريخ العام»[٥]. وقد عُرفت تلك الحروب: بالحروب البونية الثلاثة (٢٦٤- ١٤٦ ق. م).

وعن آلهتهم فقد كان بعل حمون «هو الإله الأعلى في العالم الفينيقي الغربي... وأما معنى اللقب (حمون) لبعل القرطاجي فهو (الناري) ويُعبِّر عنه بشكل الشمس»[٦]، وظهرت عند البونيين في القرن الخامس قبل الميلاد الربّة تانيت، وكانت أبرز آلهة القرطاجيين، وعُدّت الإلهة الأمّ والساهرة على تواصل النسل «فهي إلهة الإنتاج والخصوبة عند القرطاجيين وقد رُمز لها بامرأة تُرضع طفلها، كما مُثّلت على هيئة مثلث يمثّل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس»[٧]، وكانت القرابين من الأطفال والحيوانات تُقدَّم للإلهين بعل حمون وتانيت للمباركة والدعاء لهم.

وانتقلت عبادة ملقرت من صور إلى قرطاجة، وعُدّ معبوداً شمسياً واكتسب خصائص بحرية بعد انتقاله إلى غرب البحر المتوسط، كما اكتسب لدى القرطاجيين صفة الإله الحامي والراعي والمحسن[٨]، هذا بالإضافة إلى وجود آلهةٍ أخرى: عشترت وأشمون وغيرهما.

وبالانتقال إلى مجال اللغة والكتابة، فكان أن أُطلق على اللغة في غربي البحر المتوسط اسم (اللغة البونية)، وما هي إلا شكل متطور عن اللغة الفينيقية، التي ابتكرها فينيقيو الشرق، وهو أعظم ابتكار قدموه للعالم كله؛ إذ كانت الأبجدية البسيطة الصامتة المكونة من اثنين وعشرين حرفاً خلاصة مئات المقاطع الصوتية، والتعقيد الذي كانت عليه الكتابة المسمارية التي استخدمها الأكاديون البابليون والآشوريون بعد أن أخذوها عن السومريين.

وقد مرت الكتابة الفينيقية بمراحل ثلاث:

- **مرحلة الكتابة الفينيقية:** استخدمها شعب الشرق الفينيقي في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، وكُتبت بخط مستقيم وحاد، وتدرّج الخط فيها إلى الكتابة بشكل مائل ومنحنٍ تقريباً.

• **مرحلة الكتابة البونية**: استخدمها الغرب الفينيقي ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، وكتبت فيها قرطاجة نقوشها، وكُتبت بخط مرتّب ودقيق، وتردُ فيها الخطوط المائلة المنحنية.

• **مرحلة الكتابة البونية الحديثة**، استُخدمت كذلك في غرب المتوسط ما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد، وفي القرن الأول الميلادي، بعد قضاء الرومان على قرطاجة عام ١٤٦ق.م، ولُوحظ فيها عدم وضوح الخط وتداخل الأحرف فيما بينها؛ وذلك بسبب السرعة في كتابتها.

وكانت تميل الكتابتان الفينيقية والبونية الحديثة إلى وضع فواصل بين الكلمات، ذلك الذي لم نلحظه في الكتابة البونية[٩].

ولم يُكتب للغة الفينيقية البقاء بفعل التأثير اليوناني بعد خضوع المدن الفينيقية للإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق.م، في حين حافظت اللغة البونية على استعمالها بعد استيلاء الرومان على قرطاجة عام ١٤٦ق. م، وأُطلق عليها كما ذكرنا اسم اللغة البونية الحديثة[١٠].

وتجدر الإشارة إلى وجود نقوش مدونة باللغتين البونية واللاتينية، منها تلك التي وُجدت في ليبيا في مناطق لبدة وصبراتة وطرابلس، وقد أقدم على دراستها عبد الحفيظ المبار في كتابه (**دراسة تحليلية للنقائش الفينيقية البونية في إقليم المدن الثلاث في ليبيا**).

(الشكل من كتاب تاريخ الكتابة، ص ٢٢٧)[١١].

ويُشار إلى أن التنقيب الأثري أظهر لنا آلاف النقوش التي لها أثر كبير في التعرف إلى الحضارة البونية، فاكتُشف ما يقارب من سبعة آلاف نقش في الغرب الفينيقي[١٢]. ويمكننا تقسيم مناطق اكتشاف النقوش البونية إلى أربعة أماكن جغرافية، وهي:

- **نقوش قرطاجة:** في تونس، وكان لها النصيب الأكبر من تلك المكتشفات الأثرية، وذلك لأنها كانت تشكل المركز الأساسي للبونيين في غرب المتوسط.
- **نقوش سواحل المغرب العربي:** في ليبيا والجزائر وتونس (عدا قرطاجة).
- **نقوش جزر البحر المتوسط:** منها جزيرة مالطا وصقليا وسردينيا.
- **نقوش متفرقة من الدول الأوروبية:** في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وبريطانيا[١٣].

وتُشكل النقوش والكتابات الفخرية والأنصاب المادة التي استقى منها العلماء حضارة قرطاجة؛ وذلك في ظل غياب الأدب البوني؛ نتيجة الحريق الذي قضى على مكتبتها في الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦ ق.م.

وتعددت مواضيع تلك الاكتشافات، منها:

- **نذرية إهدائية:** ابتدأ أغلبها بذكر الآلهة، وهدفها التقرب منهم ونيل الرضا، وتقديم القرابين لإنزال البركة والخير واستجابة الدعاء، وشملت في بعضها إهداءات إلى الآلهة وفي بعضها الآخر إهداءات إلى الملوك.
- **تذكارية جنائزية:** تناولت اسم الميت ومكانته الاجتماعية، وصفاته والأخلاق التي كان عليها، وتضمن إنزال اللعنات على مَنْ يمسُّ حرمة المدفن، وكذلك إنزال البركات لمَنْ يحفظها.
- **ذات صبغة معمارية:** تتضمن بناء المعابد وإقامة المذابح، وقد أُثبت في بعضها تاريخ إنجازها، واسم صانعها[١٤].
- **حصص الكهنة:** يُحدّد فيها حصص الكهنة من النذور والقرابين المقدمة إلى المعبد.
- **نقوش على ميداليات وخواتم مُهداة إلى أشخاص:** تضمَّنت كتابات شخصية تتعلق بالحياة العامة، وكانت بعيدة كل البعد عن المعاملات التجارية والمعلومات التاريخية[١٥].

نقوش بونية من قرطاجة

سأعرض فيما يأتي خمسة نماذج لنقوش بونية مكتشفة في قرطاجة، تعود تواريخها إلى ما بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد، وقد اعتمدتُ الحرف العربي في النقحرة عن الفينيقية ثم أثبتُ الاستنساخ الأصلي للنقش في بعضها.

نقش قرطاجة (١)[١٦]:

من أقدم النقوش المكتشفة في قرطاجة، يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وُجد ضمن مدفن، ومُدوّن على ميدالية ذهبية، ومحفوظٌ الآن في متحف قرطاجة في تونس.

القراءة:

١) ل ع ش ت ر ت

٢) ت ل ف ج م ل ي ن

٣) ي د ع م ل ك ب ن

٤) ف د ي ح ل ص

٥) أش ح ل ص

٦) ف ج م ل ي ن

الترجمة:

١) لـ(الإلهة) عشرت

٢) لفجماليون

٣) (مِن) يدعملكبن

٤) فادي حالص

٥) الذي أنقذ (هـ)

٦) فجماليون

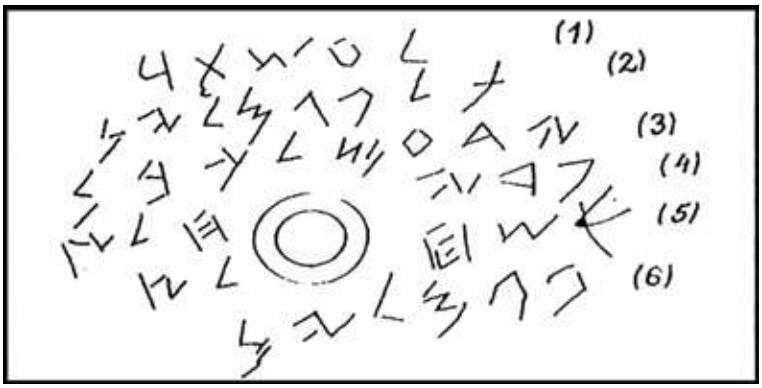

(الشكل من كتاب: كتابات أبجدية قديمة، ص ٨٧)

نقش قرطاجة (٢)[١٧]:

يعـود إلى القـرن الثالث قبـل الميلاد منقوش على حجر رملـي، أبعـاده ٥ , ١٤ و٢٥ سم، ويتحدث عن شاهدة قبر أُقيمت لتخليد الآلهة وتبجيلها.

القراءة:

١) ي ب ر ك ي و ي ش م ع ق ل ع د ع ل م

٢) ل أ د ن ل ب ع ل ش م م و ل ر ب ت ل ت ن ت ب ع ل

٣) و ل أ د ن ل ب ع ل ح م ن و ل أ د ن ل ب ع ل م

٤) ج ن م م ن ص ب ت ف س ل ت ش ق ل ت [...] أ

٥) أ ب ن أ ر ك ت ب ك د ش ب ع ل ح م ن ف ن ي م ب أ

٦) هـ ش م ش و ص د أ م ص أ هـ ش م ش أ ش ج د ر ب

٧) ع ل ي ب ن ب ع ل ي ت ن ب ن ع ب د ش م ن ب ن ب ع ل ي

٨) هـ ر ب ب ن ف ن ف أ هـ ش م ط ب ن ع ب د أ ش م ن ب ن

٩) ر أ ش ب ن ع م أ ب ن أ د ي ب ن ش م ع م ل ك ب ن

١٠) ب د أ ش م ن ب ن ش ل ن ب ن ع ب د ر ب ب ن أ ت ن
ب ن ب

١١) د أ ش م ن ب ن أ ب ق م ب ن م ص ر أ

الترجمة:

١) يباركني ويسمع قولي إلى الأبد.

٢) للسيد لبعل شميم، وللربة تانيت وجه بعل.

٣) وللسيد لبعل حمن، وللسيد لبعل مجنم.

٤) شاهدة (قبر) نحتتُ.

٥) حجرة طويلة لتقدّس بعل حمن اتجاهها مغرب.

٦) الشمس، ومعاكسة لمشرق الشمس التي نذر بعلي.

٧) ابن بعل يتن بن عبد أشمن بن بعلي.

٨) العظيم بن فنفا الحاكم بن عبد أشمن بن.

٩) رشأ بن عما بن أدي بن شمع ملك بن.

١٠) بد أشمون بن شلن بن عبد رب بن أتن بن.

١١) بد أشمون بن مصرأ.

نقش قرطاجة (٣)[١٨]:

اكتُشِفَ هذا النقش عام ١٨٩٨م، وتبلغ أبعاده ١٨ و٢٠ سم، ويتحدث عن إقامة التمثال للإلهتين عشتروت وتانيت.

القراءة:

١) لربت لعشترت ولتنت بلبننم قدشم
حدشم كم كل أش بن[....].

٢) وهحرطيت أش بمقدشم أل ودل ملكت هحرص ودل كل
منم أش[....].

٣) ودل كل منم بمأزنم همقدشم أل ودل هعلم أش عل ف
ن همقدشم أل[....].

٤) أش يبأ علت هحرز شمقدشم أل كم شحجر هشمرت ل
هر هأ[....].

٥) أدرنم وعد صعرنم لمبيرح حير شفطم.
عبدملقرت و[....].

٦) ي شفطم شفط وحنأ بن أدنبعل ورب
عبدملقرت بن مجن بن [...]بعلي.
٧) تن بن عبدلأي بن بعليتنبن
أشمنفلسوعبدأل ش بن عبد [...]ب.
٨) ن عبدملقرت هرب ورب كهنم عزربعل
بن شفط رب كهنم[....]بن بع.
٩) لشلك رب كهنموبعل حرش عكبرم
هفلس بن حنبعل.

الترجمة:

١) للربة لعشتروت ولتانيت المقدسين الجدد في لبنان كما كل الذي بنوا.

٢) والتمثال الذي لأولاء المقدسين ومع ملكة الذهب ومع كل شيء ثمين.

٣) ومع كل شيء من الأواني المقدسة ومع الدرج الذي أمام أولاء المقدسين.

٤) الذي يُحضَر لأجل حماية أولئك المقدسين، كما حجر الحراسة لذلك الجبل.

٥) كبيرهم وحتى صغيرهم لآخر شهر أيار حكام عبد ملقرت.

٦) حكام شفط وحنا بن أدون بعل، وسيد عبد ملقرت بن محن بن بعل يتن.

٧) بن عبد لاي بن بعل يتن بن أشمن فلس وعبد لأروش.

٨) بن عبد ملقرت العظيم، وعظيم الكهنة عزر بعل بن شفط عظيم الكهنة بن بعل.

٩) شلك عظيم كهنة، وسيد البناء الكبير المشرف بن حنبعل.

نقش قرطاجة (٤)[١٩]:

نقش من الرخام اكتشف في قرطاجة عام ١٩٦٤م، ويعود إلى القرن الرابع الميلادي، هو موجود حالياً في متحف قرطاجة، ويتحدث عن أعمال البناء التي أنجزها القرطاجيون.

القراءة:

١) ف ت ح و ف ع ل أ ي ت هـ ح ص ز ل م ق م ش ع ر
هـ ح د ش أ ش ك ن ب ح م ت د ر م ع م ق ر ت ح د ش ت ب ش ت

٢) ش ف ط م ش ف ط و أ د ن ب ع ل ع ت ر أ د ن ب ع ل ب ن
أ ش م ن ح ل ص ب ن ب ن [....] ب ن ب د م ل

٣) ق ر ت ب ن ح ن أ و ج ب ر ن م ط ن أ م ع ل م م ل ك ت ز
ع ب د م ل ق ر ت ب ن [....] ب ع ل ح ر ش

٤) ب د م ل ق ر ت ب ن ب ع ل ح ن أ ب ن ب د م ل ق ر ت ف ل س ي هـ و أ ل ن أ ح
ب د م ل ق ر ت ح ص ب و ع م ل ب ي ك ل

٥) س ح ر ت ن س ت هـ م ك س أ م أ ش ب ع م ق ق ر ت ش ق ل م ح ت ت و أ ش أ ي
ك س ف و أ ي ح ر ص ل م و أ ف

٦) أ ش ل م ح ر ص و م أ ن ن م و ب ت ت ن ر م و ف ع ل س د ل م أ ح د ي و أ م ي
م ح أ ش هـ س ف ر

٧) و ع ن ش هـ م ح ش ب م أ ش ل ن أ ي ت هـ أ د م هـ أ
ك س ف أ ل ف ل ف ع ل م ن م ب م ح ر هـ س ف ر

الترجمة:

١) فتح الشارع المواجه لمكان الباب الجديد الذي كان مقابلاً لتحصين بيوت أهل مدينة قرطاجة بسنة.

٢) حكم سلالة شفط وأدن بعل زمن أدن بعل بن أشمن حلص بن بن .... بن بدملقرت.

٣) بن حنأ، والرفاق المكلفون على المملكة عبد ملقرت بن .... بعل حرش.

٤) بد ملقرت بن بعل حنأ بن بدملقرت. يتساوى يهوالن أخو بدملقرت العامل النحات مع كل.

٥) التجار والحمالون والبناؤون الذين بعمق المدينة، وشقل واحد لمن ليس لديه فضة وليس لديه ذهب وكذلك.

٦) للذيـن لديهم الذهب والفضة، ولصانعي الأواني والخبازين وصانعي الأحذية معاً، ومَنْ يمح هذا النقش.

٧) فـإنَّ المحاسبيـن لدينـا سيعاقبـون الرجـل هـذا بألـف (شقل) مـن الفضة علـى فعله ثمناً للنقش.

نقش قرطاجة (٥)[٢٠]:

نقشٌ على الحجر الأحمر، أبعاده ١٨ و١٦ سم، اكتُشف عام ١٨٥٨م، يعود إلى القرن الرابع قبـل الميلاد، وهـو محفوظ في المتحـف البريطاني حالياً، ويتحدث عـن حصص الكهنة من الضرائب والأضحيات المُقدّمة لهم.

القراءة:

١) بعت هـمشأتت أش طنأ شلشم هـأش أش
عل هـم ش أتت

٢) بألف كللم أم صوعت وكن هـعرت لكهـنم
وتبرت لبعل هـزبح أم لتت لكهـن أيت [.....]

٣) بأيل كللم أم صوعت وكن هـعرت لكهـنم
وتبرت لبعل هـزبح أم لتتلكهـن أيت[.....]

٤) بيبل أم بعز كللم أم صوعت وكن عرت
هـعزم لكهـنم وكن هـأشلبم وهـفعمم[.....]

٥) بأمر أم بجدأأم بصرب أيل كللم أم
صوعت وكن هعرت لكهنم [.....]
٦) بكل زبح أش يزبح دل مقنأ بل يكن
لكهن منم
٧) بصفر أجنن أم بصص كسف زر ٢ عل أحر
٨) بكل صوعت أش يعمس بنت ألم كن لكهن قصرت
ويصلت [.....]
٩) عل كل قدمت قدشت وعل زبح صر وعل
زبح شمن[.....]
١٠) عل بللوعل حلب وعل زبح بمنحت وعل كل زبح أش أ
دم لزبح
١١) كل مشأت أش أيبل شم بفس ز وجتن [.....]

الترجمة:

١) حصة الضرائب التي وضعها الرجال الثلاثون (المشرفون) على تاريخ استحقاق الضرائب.

٢) ثور كامل كأضحية ويكون الجلد للكهنة مُقدّماً من صاحب الذبيحة، ويُعطى للكاهن.

٣) كبش كامل كأضحية ويكون الجلد للكهنة مُقدّماً من صاحب الذبيحة، ويُعطى للكاهن.

٤) عنزٌ كامل كأضحية ويكون جلد العنز مُقدّماً للكهنة، وكذلك الأضلاع والأقدام.

٥) حملٌ أو جدي أو خروف مشوي كله كأضحية، ويكون الجلد مُقدّماً للكهنة.

الشكل من كتاب
A Text Book of North Semitic inscription [٢١]

٦) كلُّ ذبيحة يذبحها فقير لا يقتني (مالاً) لا يكون للكاهن شيءٌ منها.

٧) الطائر الحبيس أو الصوص قطعتان نقديتان من الفضة على كل واحد منهما.

٨) كلُّ أضحية تُقدّم أمام الآلهة يكون للكهنة منها الأفخاذ والأكواع.

٩) على كل تقدمة مقدسة، وعلى ذبيحة الصيد، وعلى قربان الزيت.

١٠) وعلى معجنات الدقيق، وعلى الحليب، وعلى الذبيحة المهداة، وعلى كل ذبيحة يذبحها إنسان.

١١) كل ضريبة لا توضع بهذا الجدول سوفَ تُعطى.

لا شكَّ أن الحضارة البونية الغربية كانت حلقة في سلسلة متصلة بدأت مع فينيقي الشرق ووصلت إلى الغرب، وازدهرت في مجالات متعددة، وهذا ما تدلُّ عليه نقوشهم وآثارهم المادية والكتابيـة، وحسبهـم أنهم كانوا صلة الوصـل الحضارية بين الشرق والغـرب، ومن أبجديتهم المأخـوذة أصلاً عـن أسلافهم الفينيقيين استعار الإغريق والرومـان أبجديتهم التي ما زالت بعض لغات العالم (الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية...) تستخدمها إلى يوم الناس هذا.

الهوامش

(١)- جـان مازيل، مـع الفينيقيين في متابعة الشمـس على دروب الذهب والقصدير، ترجمـة: نجيب غزاوي، دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٤٠-١٤١.

(٢)- محمـد الطاهـر، قرطاج البونية، تاريخ حضـارة، الشاذلي بورونية، مركز النشـر الجامعي، تونس، ١٩٩٩م، ص ٢٥-٣٦.

(٣)- مع الفينيقيين في متابعة الشمس على دروب الذهب والقصدير، ص ١٨١- ١٨٢.

(٤)-محمـد الصغيـر غانم، المرجع السابق نفسه، صـ ١٥٣- ١٥٥، والتوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ١١٥- ١١٦.

(٥)- تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ط١، ١٩٢٩م، ص ٥٩.

(٦)- محمـد بيومي مهـران، المدن الفينيقية- تاريخ لبنان القديم، دار النهضـة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٣٣٨.

(٧)- المصدر نفسه، ص ٣٤١.

(٨)- المصدر نفسه، ص ٣٤٢- ٣٤٣.

(9)- Phonizisch- Punische Grammatik. Friedrich. J. W. Rollig. 1970. p. 5.

نقلاً عن كتابات أبجدية قديمة، فاروق إسماعيل، تمام الأيوبي، منشورات جامعة حلب، ٢٠١٣م، ص ٣٦.

(١٠)- ج. كونتـو، الحضارة الفينيقية، ترجمة: محمد عبد الهـادي شعيرة، راجعه: طه حسين، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، ٢٠٠١م، ص ٨٧- ٨٩.

(١١)- يوهانس فريدريش، تاريخ الكتابة، ترجمة: سليمان أحمد الضاهر، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٣م، ص ٣٢٧.

(١٢)- كتابات أبجدية قديمة، ص ٧٦.

(١٣)- المرجع السابق نفسه، ص ٧٦

(١٤)- مذكـرة دروس. مادة كتابات أثرية، زهير بخوش، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ٢٠٢١م، ص ٤١-٤٤، وينظر: كتابات أبجدية قديمة، ص٧٧

(١٥)- ينظر: كتابات أبجدية قديمة، ص ٧٧.

(16)- Kanaanaische und Aramaisch inschriften/1. Heberet Donner. Wolfgang Rollig. Harrassowitz Verlag. Wiesbaden. 2002. p:19. no: 73.

(17)- Kanaanaische und Aramaisch inschriften.1. p: 20. no: 78.

(18)- Kanaanaische und Aramaisch inschriften.1. p: 21. no: 81.

(19)- Kanaanaische und Aramaisch inschriften.1. p: 73. no: 303.

(20)- Kanaanaische und Aramaisch inschriften.1. p: 19. no: 74

(21)- A Text Book of North Semitic inscription. Moabite. Hebrew. Phoenician. Aramaic. Nabataean. Palmyre. Jwish. George Alpert Cooke. At the Clarendon Press. 1903.

المراجع

١- تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ط١، ١٩٢٩م.

٢- يوهانس فريدريش، تاريخ الكتابة، ترجمة: سليمان أحمد الضاهر، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٣م.

٣- محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط٢، ١٩٨٢م.

٤- ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، راجعه: طه حسين، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، ٢٠٠١م.

٥- محمد الطاهر، قرطاج البونية، تاريخ حضارة، الشاذلي بورونية، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩م.

٦- فاروق إسماعيل، تمام الأيوبي، كتابات أبجدية قديمة، منشورات جامعة حلب، ٢٠١٣م.

٧- محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية. تاريخ لبنان القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤م.

٨- زهير بخوش، مذكرة دروس. مادة كتابات أثرية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ٢٠٢١م.

٩- جان مازيل، مع الفينيقيين في متابعة الشمس على دروب الذهب والقصدير، تعريب: نجيب غزاوي، دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، اللاذقية، ط١، ١٩٩٨م.

المصادر والمراجع الأجنبية

1- A Text Book of North Semitic inscription. Moabite. Hebrew. Phoenician. Aramaic. Nabataean. Palmyre. Jwish. George Alpert Cooke. At the Clarendon Press. 1903.

2- Kanaanaische und Aramaisch inschriften.1. Heberet Donner. Wolfgang Rollig. Harrassowitz Verlag. Wiesbaden. 2002.

* * *

هانيبال ودوره في الحروب البونية

د. محمود حمود

تمثال نصفي لهانيبال -متحف نابولي -إيطاليا

هانيبال، قائد فينيقي قرطاجي، ولد عام ٢٤٧ ق.م، وتوفي بين ١٨٣ أو١٨٢ ق.م. ورد اسمه في المصادر القرطاجية بصيغة حنبعلḤNB'L بمعنى نعمة بعل، أو الرب/ بعل كريم. وبرقا BRQ من البرق والصاعقة. وهو ابن حملقار برقا أحد زعماء قرطاجة وقادتها العسكريين من عائلة تعرف بالبارسيديين، وأطلق عليه لقب برقا بسبب مواجهته الشجاعة للرومان في الحرب البونية الأولى. ولهانيبال شقيقان هما ما جو وهسدرو بعل، وله صهران هما: هسدر وبعل أحد قادة جيوش قرطاجة، والملك نوميدي الشرقية نارافاس اللذين شاركا حملقار في السيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال الآن)، بدعم من فينيقي قادس في إسبانيا (٢٤١ – ٢٣٨ ق.م)، وذلك سعياً لتعزيز وضع قرطاجة وتحسين اقتصادها وتحقيق مصالحها العليا.

ويبدو أن حملقار وافق على أن يصطحب ابنه هانيبال معه بعد توسله لصغر سنه، وكان عمره تسع سنوات، لكنه اشترط عليه أن يقسم أن لا يكون صديقاً للرومان ما دام حياً. وعندما قضى والده في معركة بإقليم هسبانيا (جنوب نهر إيبرو) كان عمر هانيبال ١٨عاماً وكان ضابطاً بإمرة صهره هسدروبعل الذي تولى قيادة الجيش القرطاجي، ثم أصبح هانيبال قائداً للجيش في عام ٢٢١ق.م، وكان عمره ٢٦سنة.

تزوج هانيبال من امرأة إسبانية اسمها إميلسي من مدينة كاستولو المتحالفة مع القرطاجيين، وله منها ولد أسماه هاسبار على ما تذكر بعض المصادر.

الحروب البونية

كلمة بوني Poni، أو بونيقي Punici هي التسمية الرومانية في اللغة اللاتينية لفينيقي قرطاجة. وقد أُطلقَ على الحروب التي وقعت بين روما وقرطاجة، من أجل السيطرة على مناطق غربي البحر الأبيض المتوسط، اسم الحروب البونية واستمرت عشرات السنين. كانت روما تشعر أنها مهددة من المراكز القرطاجية القوية التي في سردينيا وصقلية ومالطة وعلى طول الساحل الإفريقي الشمالي[١]؛ ولذلك وعندما تنامت قوة روما أرادات إبعاد هذا الخطر المحدق، والسعي لانتزاع النفوذ الفينيقي القرطاجي على سواحل البحر الأبيض المتوسط، والاستحواز على موارده. وهي ثلاثة حروب:

١- الحرب البونية الأولى (٢٦٤- ٢٤١ ق.م):

نشبت بسبب اعتداء الرومان على المصالح القرطاجية، ولا سيما في صقلية. وانتهت بتلاشي الحلم القرطاجي بتأسيس إمبراطورية بونية كبيرة، وإخراج القرطاجيين، بشكل نهائي من سردينيا وصقلية والجزر الأيونية وتوقيع حملقار معاهدة سلام مع الرومان،قبلت فيها قرطاجة ما حدد لها من مناطق نفوذ في إيبريا، وتعهدت بدفع جزية لروما موزعة على عشر سنوات مقدارها ألفان ومئتا تالنت من الفضة[٢]. وكان ذلك سبباً في ضعف مركز قرطاجة على الساحل الأفريقي فتمرد عليها حلفاؤها الليبيون كما تمرد الجنود المرتزقة فحاربتهم بقيادة حملقار مدة ثلاث سنوات حتى أخضعتهم[٣].

أرادت قرطاجة أن تعوض ما فقدته من نفوذ، فاتجهت إلى بسط نفوذها في شبه الجزيرة الإيبيرية، واختارت حملقار لتحقيق طموحها، فذهب ومعه ابنه هانيبال إلى

إسبانيا وفي نيته مهاجمة إيطاليا براً من جهة إسبانيا إلى جنوب فرنسا ثم إيطاليا. أما إيبيريا فكانت على علاقة جيدة مع الفينيقيين الذين أسسوا على سواحلها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كثيراً من المراكز التجارية، أطلقوا عليها أسماء فينيقية أبرزها قادس التي تأسست نحو عام ١١٠٠قبل الميلاد، وكانت بالأصل على جزيرة صغيرة تحولت فيما بعد إلى شبه جزيرة. وكانت الفضة المتوفرة في إيبيريا بكثرة، من أهم ما كان يجلبه الفينيقيون من هذه البلاد[٤]. وقد حقق حملقار نجاحاً لافتاً خلال ثماني سنوات اعتمد فيها على الدبلوماسية أكثر من الأساليب الحربية؛ إذ عمل على تعليم القبائل الإيبيرية حياة الاستقرار، والنظام واستطاع أن يحقق تنمية اقتصادية كبيرة لهم ولقرطاجة، وأن يؤسس مراكز يمكن أن تمدهم بالمؤن والعتاد والرجال اللازمين لجيشه[٥].

في سنة ٢٢٩ قتل حملقار وخلفه زوج ابنته هسدروبعل الذي سار على نهج حملقار في التقرب من السكان، وبنى مدينة قرطاجنة (قرطاجة الجديدة). ونتيجة لقلق روما من توسع القرطاجيين، جاء وفد من روما وضغط على القرطاجيين فوقع هسدرو بعل اتفاقية تعهد بعدم تجاوز نهر إبرو، والحفاظ على مدينة ساغنتوم حليفة روما على الساحل الشرقي لإسبانيا جنوب النهر، على الرغم من أنها كانت تقع في منطقة النفوذ القرطاجي[٦]. غير أن هسدرو بعل قُتلَ وخلفه هانيبال الذي كان يتحين الفرص لشن حرب على روما ولهزيمة أعداء قرطاجة في عقر دارهم.

٢- الحرب البونية الثانية (٢١٨ – ٢٠١ ق.م)

يعدُّ كثير من الباحثين هذه الحرب، الحرب العالمية الأولى في التاريخ، فقد دارت رحاها في غَربي البحر الأبيض المتوسط وشرقه، وشملت شبه الجزيرة الإيبيرية وبلاد الغال وإيطاليا وصقلية ومحيطها وكثير من جزر البحر الأبيض المتوسط.

قبل أن يبدأ حربه، خاض هانيبال عدة معارك لإخضاع بعض المدن والقبائل الإسبانية، وأظهر مهارة كبيرة في القيادة ولا سيما في معركة على نهر تارجوس[٧]، ثم حاصر مدينة ساغونتوم حليفة روما في عام ٢١٩ ق.م، وسيطر عليها ودمرها بعد حصار دام ثمانية أشهر. واعتقد هانيبال أن احتمال تدخل روما ضئيل للغاية لأنها ستكون حرباً مكلفة لها من أجل مدينة لا تهمها، وكان تقديره صحيحاً[٨]. فعدّت روما ذلك خرقاً لمعاهدة إبرو الموقعة مع هسدروبعل، فأرسلت وفداً إلى قرطاج برئاسة فابيوس فيروكوسوس للاحتجاج،

وطلب الاختيار بين السلام أو الحرب. وكان رد مجلس الشيوخ القرطاجي أن الخيار لروما، فاختار فابيوس الحرب.

عمل هانيبال على كسب تأييد مجلس الشيوخ والحكومة القرطاجية لحربه، بإرسال بعض الغنائم، ولم يلق معارضة تذكر. وفي الوقت نفسه، أخذ يعد العدة لمهاجمة روما، فجنَّدَ كثيراً من الرجال والمرتزقة، وزوَّدَ جيشه بسرية من الفيلة المقاتلة، وهيأ المؤن والإمدادات اللازمة لذلك[٩]. كما عمل على تجنيد آلاف المرتزقة من رجال القبائل في إيبيريا وبلاد الغال وشمال إيطاليا.

أ- طريق هانيبال:

ترك هانيبال أخيه هسدروبعل في إيبيريا، للإشراف عليها وإرسال المؤن والإمدادات، وسار بجيشه قاصداً إيطاليا، أواخر ربيع سنة ٢١٨ قبل الميلاد. وكان تعداد الجيش نحو ٣٨ ألف جندي و٨ آلاف فارس، و٣٨ فيلاً كان قد أحضرها على متن السفن من قرطاجة. وقد وضع

رسم يمثل هانيبال يعبر بالفيلة نهر الرون

إستراتيجية تركز على فتح جبهة في شمال إيطاليا وإخضاع المدن المتحالفة مع روما، قبل أن يهاجم العاصمة. عَبَرَ الجيش جبال البرانس، واتجه مسرعاً شرقاً إلى جبال الألب، ووصل

إلى نهر الرون في بداية شهر أيلول. وقد واجه كثيراً من الصعوبات من أهمها محاولة الرومان التصدي له قبل وصوله إلى بلادهم، وذلك بنصب الكمائن في عدد من الأماكن، وكذلك صعوبة إقناع القبائل بالولاء له بدلاً من ولائهم القديم لروما، وقد نجح في كثير من الأحيان على الرغم من أنه لم يثق بهم بشكل كبير. كما واجه تضاريس وطبيعة جبلية قاسية. ولعل أقسى ما تعرض له الجيش إضافة إلى الجوع ونقص المؤن، البرد القارس الذي أودى بأعداد كبيرة من جنوده ومعظم الفيلة. وقد تغلب هانيبال على كثير من الصعوبات بذكائه ومناوراته وتحركه السريع وابتكار الحلول العاجلة لكل مشكلة واجهها، ومنها على سبيل المثال، استخدامه الخل والنار لتحطيم الصخور المنهارة على أحد الممرات في طريقه ضمن جبال الألب.

وقد فقد هانيبال كثيراً من جنده في أثناء مسيره، فيذكر المؤرخ اليوناني بوليبيوس Polybius (٢٠٨-١٢٦ق.م) أنه فقد نصف جيشه بعد عبوره نهر الرون ووصوله إلى إيطاليا، ولم يبقَ معه سوى ٢٠ ألف جندي، وأربعة آلاف فارس، وبعض الفيلة، ولكن انتصاره على الرومان في معركة تسيتوس شجع القبائل الغالية والليغوريين على تأييده وانضمام رجالهم لجيشه الذي أصبح تعداده نحو ٤٠ ألف مقاتل[١٠]. وهي القبائل نفسها، التي ألحقت بقواته كثيراً من الأذى، عندما كان رجالها يلقون الحجارة على جنوده، وهم في مخابئ يصعب على الجنود كشفها[١١].

ب - معركة تريبيا ٢١٨ ق.م:

انتظر الجيش الروماني عند رافد لنهر بو استعداداً للقاء هانيبال، الذي انسحب إلى رافد آخر اسمه تريبيا، فوجد هناك جيشاً رومانياً آخر مما اضطره للتوقف. وفي يوم قارس البرودة من شهر كانون الأول أيقظ جنوده لتناول الإفطار، وجعلهم يدهنون أجسادهم بالزيت وقاية من البرد. وأمر فرقة من الفرسان بعبور النهر. وعندما رآهم الجيش الروماني تعقبهم وحاول عبور النهر لملاحقتهم، ولكن المياه القارسة شلت أجسادهم عن الحركة، ولا سيما أنهم كانوا جوعى، فيما أرسل هانيبال أخاه ماجو لمهاجمتهم من الخلف، وجعل الفرسان يهاجمون جناحي الجيش الروماني. وبعد قتال عنيف انتهت المعركة بهزيمة مدوية للجيش الروماني، لم ينجُ فيها إلا القليل من أفراده، وقُتِل قائداه كورنيليو سسكيبيونوسمبر ونيوسلونغوس[١٢].

ج - معركة بحيرة تراسيميني ٢١٧ ق.م:

اتجه هانيبال في فصل الربيع جنوباً نحو روما، وكان الرومان يتوقعون هذه الخطوة، فاستعدوا له وأغلقوا الطرق التي يتوقع أنه سيسلكها، لكنه اختار طريقاً أكثر أماناً على الرغم

مـن صعوبته، يمر عند مصب نهر أرنو، وتمكن مـن عبور مستنقعه الكبير بعد أربعة أيام، فقد فيهـا كثيراً مـن جنده المنهكين، ولكنه استطاع الوصول إلـى إتروريا القريبة من روما، وواجه الجيش الرومانـي الذي كـان يقوده فلامينيوس فـي المرتفعات الجبلية فـي ممر على شاطئ بحيـرة تراسيميني، وتمكن مـن سحقه. تقدم بعدها إلى وسط إيطاليـا حيث عمل على تأليب الناس على سلطة روما وتشجيعهم على الثورة ضدها بسبب عدم قدرتها على حمايتهم.

عاش الرومان حالة من الهلع والخوف الكبير مع توارد أخبار اقتراب الجيش القرطاجي مـن عاصمتهم، فعمد مجلـس الشيوخ إلى تعييـن فابيوسفيروكوسوس دبكتاتـوراً. وتعيين دبكتاتـور لقيادة البلاد هي حالة كانت تلجأ إليها رومـا عندما تمر بفترات صعبة وطارئة. لكـن فابيوس تبنى إستراتيجية عرفت باسمه تعتمد على عـدم خوض مواجهة مباشرة مع الجيش القرطاجي، والاكتفاء بمراقبته. ولم تلقَ هذه الإستراتيجية شعبية في روما، وعدَّها الناس دليلاً على جبن فابيوس، وتهربه من المواجهة، ولُقِّبَ بالمماطل.

استطـاع فابيوس محاصرة الجيش القرطاجـي في منطقة كامبانيـا وقطع كل الطرق المؤديـة إليهـا والتي يمكـن أن تمده بالمؤن التـي يحتاجها.وعندمـا أراد هانيبال الخروج منهـا دارت هنـاك معركـة ليلية تعـرف بمعركـة فاليرنوس. وقـد خدع هانيبـال الرومان باستخـدام تكتيـك عسكري فريـد، تمثل بإيقاد مشاعـل ربطت بقرون قطيـع من الأغنام سيقـت نحو المرتفعات، فظـن الرومان أن الجيش القرطاجي فـي طريق الهرب، فتوجهوا بسرعة لمطاردته. وفي هذه الأثناء حرك هانيبال جيشه بصمت عبر الأراضي المنخفضة واستطاع التخلص من الحصار، موجهاً صفعة قوية لفابيوس[١٣].

د - معركة كاناي ٢١٦ ق.م:

توجه هانيبال إلى سهل بوليا وسيطر في عام ٢١٦ ق.م على كاناي التي تعد أهم المناطق التـي كانت تزود الرومان بالمؤن. فأعد الرومان لمواجهـة كبيرة حشدوا لها جيشاً عظيماً ضم نحو مئة ألـف جندي، قاده القنصلان لوسيوس أميليوسباولوس، وجايوستيرينتيوس فـارو، اللذان اندفعـا نحو كاناي لملاقاة الجيش القرطاجي، ولكن هانيبـال ابتكر تكتيكاً جديداً في هذه المعركة، تمثل باستخدام خطة التطويق على شكل حرف C، وذلك لتقليص مساحـة القتـال، والتغلب علـى مزية التفـوق العددي للجيش الروماني. ووضـع الفرسان النوميديين والإيبيرين علـى الجناحين، بقيادة ماهر بعل وهانـو، ووضع جنود المشاة في الوسـط[١٤]. كما وضع قـوة صغيرة من الغاليين والإسبان كطعم أمـام قوات فارو، وأمرها بالتراجـع تدريجياً عند مهاجمتها. وحيـن أخذت جيوش الرومان تتبع هذه القوة، تراجعت نحـو وسط جيش هانيبال، ولما وصلت القـوات الرومانية إلى مكان ملائم فاجأها هانيبال

بهجوم عاصف من الفرسان وجميع الأسلحة، فأسقط في يد الرومان الذين حوصروا من كل جانب، وفقدوا السيطرة على حركتهم واستعمال الأسلحة التي بأيديهم[١٥]، وتمكن من تدمير معظم جيش عدوه، وكان عددهم حسب المصادر بين ٥٠ و٧٠ ألف مقاتل، قضوا أو أسروا، ولم ينجُ إلا نحو عشرة آلاف منهم، ومعهم فارو. وكان من بين القتلى القنصل باولوس، وقنصلان سابقان، وكثير من القادة العسكريين، ونحو ثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ في روما (السناتو)، الذي كان يتألف من ٣٠٠ عضو، فكانت من أكثر الهزائم التي تعرض لها الجيش الروماني دموية في تاريخه.

ونتيجة لهذه المعركة تزعزعت ثقة حلفاء روما في القوة الرومانية، وازداد السخط الشعبي، فغيرت كثير من المناطق الرومانية ولاءها، بما في ذلك مدينة كابوا ثاني أكبر مدينة إيطالية، وانضمت إلى جانب هانيبال. كما ثارت المدن اليونانية في صقلية ضد الرومان، ودعم ملك مقدونيا فيليب الخامس هانيبال، وبدأت الحرب المقدونية الأولى ضد الرومان[١٦].

بعد المعركة نصح أحد القادة هانيبال بالتقدم نحو روما، ولكنه أراد أن يستمر في خطته التي تقتضي السيطرة على كل إيطاليا أولاً، وأن يشجع حلفاء روما على التمرد عليها حتى تضطر إلى التسليم في النهاية، وربما كان عدم وجود أسلحة حصار مناسبة معه، هو الذي دفعه للتمسك بهذه الخطة[١٧].

كانت المعركة كارثة كبيرة لروما، التي اكتفت بعد ذلك باتباع إستراتيجية فابيوس القائمة على عدم المواجهة المباشرة مع جيش قرطاجة والعمل على إرهاقه واستنزافه. فيما لم يتابع هانيبال السير نحو روما لتقاعس قرطاجة في دعمه وتزويده بما يحتاج إليه من أسلحة ورجال وإمدادات تمكنه من فرض الحصار المطلوب على المدينة والسيطرة عليها. كما أنه أصيب بخيبة أمل أيضاً من الملك المقدوني الذي لم يتلقَّ منه المساعدة التي كان يأملها، فلم يخض بعد ذلك معارك كبرى في إيطاليا، واقتصرت أعماله العسكرية على السيطرة على بعض الحصون والمدن الضرورية حول كامبانيا، وخوض بعض المعارك ضد الجيوش الرومانية. كما صرف النظر عن خطته في الزحف نحو روما. لا، بل أخذ يفقد مزيداً من الأراضي التي استولى عليها. أما موقف السلطة الحاكمة في قرطاجة المتمثلة بمجلس الشيوخ ومجلس النبلاء الثلاثين ومجلس القضاة المعروفة (بالمئة وأربعة)، فكان همُّهم الحصول على الموارد من إيبيريا. لا، بل هناك من عارض الحرب منذ بدايتها مع روما مثل هانو الثاني الكبير، الذي عارض أيضاً إرسال الإمدادات لهانيبال بعد معركة كاناي. أما الملك المقدوني فيليب فقد هزمه الرومان في صقلية وسيطروا على سيركوزة بمساعدة حلفائهم اليونانيين[١٨].

في ظل هذه الظروف بدأ موقف هانيبال يضعف أكثر، ووجد نفسه في موقف صعب، إذ عجز عن فتح المدن الإيطالية المحصنة، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يدافع عن المدن التي ثارت على روما وانحازت إليه، مما اضطره إلى تشتيت جهوده وقواته العسكرية. وانقلب الوضع وأصبح مدافعاً عن هذه المدن بدلاً من أن يستمر مهاجماً، ففقد أمجاد النصر التي كان ينعم بها، وأخذ يفقد السيطرة على الجنوب الإيطالي. وقد استغل الرومان الفرصة وبدؤوا يسترجعون المدن التي ثارت عليهم، ومنها مدينة كابوا في عام ٢١١ ق.م، ثم سامنيومولوكانيا عام ٢٠٩ ق.م، إضافة إلى مدن في جزر المتوسط ومنها سيراكوزة أهم مدن صقلية والواقعة جنوب شرقي الجزيرة، التي سقطت بعد حصار طويل، ويقال إن عالم الرياضيات الشهير أرخميدس، اخترع آلات استخدمها المدافعون عن المدينة من دون جدوى، وظل يدافع معهم حتى خرَّ صريعاً عندما دخل الرومان المدينة عام ٢١٢ق.م[١٩].

أدى مقتل هسدروبعل في معركة ميتاورس، في طريقه من إسبانيا لنجدة أخيه، ومتابعة الهجوم على روما، إلى تراجع هانيبال نحو كالابريا التي عسكر فيها عامين. وضاع آخر أمل له في السيطرة على إيطاليا بعد إخفاق أخيه ماجو في ليغوريا (٢٢٠٥- ٢٠٣ ق.م) [٢٠].

هـ- معركة زاما ٢٠٢ق.م:

كانت معركة زاما هي المناسبة التي انتظرها الرومان للثأر من قرطاج بعد هزيمتهم التاريخية في كاناي. وكانت أول وآخر هزيمة يتعرض لها هانيبال في حياته.

تطوع سكيبيو قائد القوات الرومانية في إسبانيا الذي تمكن من طرد القرطاجيين من شبه الجزيرة الإيبيرية، بالذهاب إلى مجلس الشيوخ في روما لمناقشة كيفية التعامل مع قرطاج، فاقترح غزو إفريقيا، فعهد إليه مجلس الشيوخ باتخاذ قرار الغزو وتنفيذه. قضى سكيبيو عامين (٢٠٥ – ٢٠٤ق.م)، وهو يعمل على تعزيز قدرات جيشه وتدريبه وتأمين السفن اللازمة له. واستعان بحليفه الأمير النوميدي ماسينيسا بن غايا الذي كان حليفاً لهانيبال وساعده في إيبيريا، قبل أن يغير موقفه عام ٢٠٦ ق.م بسبب مشكلات شخصية مع أحد حلفاء قرطاجة. ومن المعروف أنه كان للمملكتين النوميديتين (الشرقية والغربية) اللتين تشكلتا على حدود قرطاجة الغربية، وامتدت حدودهما من ليبيا إلى موريتانيا، دورٌ عسكريٌّ فعالٌ ومؤثرٌ في طرفي الحرب البونية، سواء في الوقوف مع قرطاجة أم مع روما. وكان لموقف مملكة نوميديا الشرقية (قبائل الماسول/ ماسيليا) الدور الحاسم في ترجيح كفة الرومان في الحرب البونية الثالثة، التي قُضي فيها على قرطاجة سنة ١٤٦ق.م، وأصبحت زاما عاصمة لها[٢١].

أبحر سكيبيو في صيف ٢٠٤ ق.م، إلى شمال إفريقيا وبدأ بشن الغارات على الجيش القرطاجي الذي كان يقوده صدر بعل جيسكو ولم يستطع الصمود، فلحقت به هزيمة مدوية في معركة السهول الكبرى في عام ٢٠٣ ق.م، وكانت كارثة كبرى لقرطاجة. اُستدعي هانيبال على جناح السرعة من إيطاليا، بعد أن كان قد قضى خمسة عشر عاماً من الحرب، وتدهورت حال جيشه الذي لم يبق منه إلا نحو ٢٠ ألف مقاتل من قدامى المحاربين، ولكنه كان آخر الأمل في الانتصار على سكيبيو.

عمل هانيبال بعد عودته على تقويم الوضع، ومحاولة إعادة تأهيل الجيش لحشده في مواجهة الرومان. كما التقى الجنرال سكيبيو في عام ٢٠٢ ق.م لمفاوضته ومحاولة ثنيه عن الحرب وتحقيق صلح.

كان القائدان على معرفة بسمعة كل منهما، ويبدو أنهما كانا يكنّان قدراً من الاحترام المتبادل. وعلى الرغم من أنهما يتقنان اللغة اليونانية، فإن هانيبال تحدث باللغة البونية، وسكيبيو باللغة اللاتينية واعتمدا على المترجمين للترجمة طوال اجتماعهما.

لكن المفاوضات لم تصل إلى حل، فالتقى الجيشان في بلدة زاما، التي تقع غربي قرطاج (قرب الحدود الجزائرية التونسية الآن)، وكان عدد جيش هانيبال نحو ٤٠ ألف مقاتل، من ضمنهم أربعة آلاف فارس إضافة إلى ثمانين فيلاً، وضم جيش سكيبيو ٣٠ ألف مقاتل من المشاة وستة آلاف فارس.

بدأ هانيبال المعركة بهجوم كبير للفيلة، مدرعات العصر القديم، لكن الرومان كانوا قد استعدوا للأمر باتباع تكتيك اعتمد على إثارة ذعر الفيلة، بالقرع على الطبول، والنفخ في الأبواق، وضرب السيوف على التروس، محدثين ضجةً كبيرةً جفلت منها الفيلة وهربت للخلف، فاستغل الفرسان الرومان هذا الخلل والفوضى، وانقضوا، بمؤازرة فرسان حليفهم النوميدي ماسينيسا، على جيش هانيبال وأبعدوا سلاح الفرسان القرطاجي عن المعركة مستفردين بالمشاة، وهذا ما أدى إلى تفكك الجيش القرطاجي وهزيمته. ولكن ثمة من يشكك في هذه الرواية، إذ لا بد للفيلة أن تكون قد دُرِّبت على مواجهة هذا النوع من الضجيج والتغلب عليه.

ويبدو التأثير والرعب الكبير الذي كانت تلحقه الفيلة التي استخدمها هانيبال في جيشه ضد الرومان، واضحاً في بنود المعاهدة التي أعقبت معركة زاما وفرضت الاستسلام على قرطاجة. فقد حظرت بنود المعاهدة على قرطاجة استخدام الفيلة في قواتها، وفرضت تسليم كل فيلتها للجيش الروماني، وإلزامها ترويضَ أعداد أخرى من الفيلة لمصلحة روما[٢٢].

انتهت المعركة بانهيار الجيش القرطاجي وقتل معظم أفراده وأسرهم، وهروب الجنود المرتزقة، فلم يكن أمام هانيبال إلا الفرار مع عدد قليل من رجاله إلى الريف، على الرغم من أنه، كما يذكر «بوليبيوس»: «فعل كل ما يمكنه فعله، واستخدم كل خبرته في المعركة».

أثارت المعركة، كثيراً من الجدل والنقاش في قرطاجة بين هانيبال ورجال الحكم، وهو ما دفع صديقه وشريكه في قيادة الجيش هسدرو بعل جيسكو، إلى الانتحار، وقد كان مؤيداً له في موقفه بعدم خوض المعركة.

ومن نتائج معركة زاما، التي تعد نهاية الحرب البونية الثانية سنة ٢٠١ ق.م، أنها وضعت حداً لنفوذ قرطاجة الذي دام مئات من السنين، وانتهت بفرض معاهدة سلام تضمنت شروطاً قاسية جردتها من ممتلكاتها خارج إفريقيا، بما فيها إسبانيا، وبعض أملاكها الإفريقية، وأسطولها البحري (سُمح لها الاحتفاظ بعشر سفن فقط)، ودفع تعويضات مالية باهظة، وعدم استخدام الفيلة في جيشها، ومنع شن أي حرب من دون موافقة روما.

أما سكيبيو، جلاد قرطاجة، فقد جاء إلى روما التي استقبلته بأقواس النصر، ومنح لقب «سكيبيو الإفريقي» تخليداً لانتصاره الكبير[٢٣]. وقيل إن الرومان نحتوا تماثيل لهانيبال ونصبوها في شوارع روما للتفاخر بهزيمة هذا الخصم العظيم.

٣- الحرب البونية الثالثة (١٤٩ -١٤٦):

وهي آخر الحروب الرومانية – القرطاجية، وكان سببها الغطرسة الرومانية. فقد زار كاتو قرطاجة، وهو أحد القادة الرومان المتزمتين البالغ من العمر ثمانين عاماً، فلاحظ أنها استعادت كثيراً من عافيتها، وحققت قدراً من الازدهار، فخشي أن تصبح قوة عسكرية وسياسية تهدد روما من جديد. وعندما عاد إلى روما بالغ في تصوير التهديد الذي تشكله قرطاجة، وأخذ يردد في مجلس الشيوخ وفي كل خطبة مقولته: «لا بد من تدمير قرطاجة»، متذرعاً في معاقبتها لخلافاتها مع نوميديا[٢٨]. ولإقناع مجلس الشيوخ بشن الحرب جاء يوماً إلى المجلس ومعه حبة تين طازجة، فأظهرها، وأشار إلى أنها قُطفت قبل ثلاثة أيام في قرطاجة (وقال): «هكذا يوجد العدو قريباً من أسوارنا».

حاولت قرطاجة التوصل إلى حل مرض للخلافات بين الطرفين، ولكن ساسة روما عرقلوا الجهود المبذولة للوصول إلى ذلك[٢٩].

فوجئ القرطاجيون بالهجوم الروماني، فاستبسلوا في الدفاع عن وطنهم بكبرياء وعناد، وتمكنوا من الصمود ثلاث سنوات (١٤٩ -١٤٦ ق.م)، متحملين الجوع والعوز

والحصار التام، والدمار والقتل، حتى لم يعد بإمكانهم تعويض الخسائر. فسقطت المدينة وأحرقها الرومان بما فيها، وبيع ما بقي من سكانها في أسواق النخاسة، وحُرثَ الموقع المُدمَّر ونُثر بالملح[٣٠]، وحولت إلى ولاية رومانية باسم أفريكا. وقد سرعت هذه الحرب من وتيرة صعود القوة الرومانية وتحولها إلى إمبراطورية عالمية عظمى سيطرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط كلّها وظهرانيه، ودامت مئات السنين.

هانيبال السياسي:

انصرف هانيبال، الذي كان قد بلغ عمره ٤٦ عاماً، إلى ممارسة الحياة السياسية، فانتخب قاضياً حاكماً (سوفيت suffet). وقد مكنه الدعم الشعبي الذي كان يحظى به من إجراء بعض الإصلاحات السياسية والاقتصادية، فقضى على الفساد واستعاد كثيراً من الأموال المختلسة، وأصدر قانوناً يحد من سلطة مجلس المئة وأربعة، الذي كان أعضاؤه رعاة للفساد وينتخبون مدى الحياة، فجعل اختيارهم ملكاً للشعب عن طريق الانتخاب لمرة واحدة مدتها سنة واحدة فقط[٢٤].

وعلى الرغم من كل العداوة والخصومات التي كانت تحيط بهانيبال في بلده ومحاولات إفشال الإصلاحات التي قادها، فإنه حقق نجاحاً لافتاً وتمكن من إعادة تأهيل بلاده، والنهوض بها إلى مستويات متقدمة من الازدهار والتطور. وقد أثار ذلك رعب روما، التي كان لديها بعض الشكوك بوجود تنسيق وعلاقات بين هانيبال والملك السوري السلوقي أنطيوخوس الثالث الكبير (٢٢٢-١٨٧ ق.م). فعملت على إرسال وفد إلى قرطاج للاحتجاج على دعمه المزعوم للملك السلوقي؛ لذلك، وخوفاً من تسليمه للرومان، قرر الفرار إلى بلاط أنطيوخوس في سورية[٢٥]، بعد سبع سنوات من معركة زاما.

النفي:

زار هانيبال «صور»، موطن الأجداد أولاً، ثم أنطاكيا قبل أن يصل إلى إفسوس حيث استقبله أنطيوخوس بحفاوة تليق به، ثم عمل عنده مستشاراً وقائداً عسكرياً. ويروي المؤرخ الروماني إبيان (٩٥- ١٦٥م)، قصة لقاء هانيبال مع خصمه القائد الروماني سكيبيو الذي جاء في مهمة دبلوماسية من روما. فقد التقيا، بوجود عدد من الأشخاص، في صالة ألعاب رياضية وبطريقة تليق بالقادة العظماء، الذين نبذوا عداوتهم في نهاية حروبهم. ودارت بينهما أحاديث تتعلق بالقيادة والحياة العسكرية، فسأله سكيبيو: من هو أعظم القادة؟ فأجابه هانيبال: الإسكندر المقدوني، فوافقه سكيبيو، لأنه تنازل عن

المركز الأول للإسكندر، فسأله عن المركز الثاني فقال: بير هوس الإيبيري، وتابع: لأنه من الصعب العثور على قائدين أكثر شجاعة من هذين. فبدا انزعاج سكيبيو من هذا التصنيف، فسأله: لمن تعطي المركز الثالث؟ متوقعاً أن يسميه، فأجاب: لنفسي، لأنني وأنا شاب، غزوت هيسبانيا وعبرت جبال الألب بجيشي.... فقال له سكيبيو ضاحكاً: «أين كنت تضع نفسك يا هانيبال لو لم أهزمك؟»، فأجابه: في هذه الحالة كنت سأضع نفسي قبل الإسكندر، ولكن هانيبال، مدح سكيبيو بطريقة غير مباشرة عندما أشار إلى أنه انتصر على شخص كان أهم من الإسكندر. وفي نهاية اللقاء، دعا هانيبال سكيبيو ليكون ضيفه، فأجاب سكيبيو أنه سيكون سعيداً جداً لو لم يكن يعيش مع أنطيوخوس، الذي كان موضع شك لدى الرومان.

بذل هانيبال كثيراً من الجهد لتعزيز قدرات الجيش السلوقي، وبناء أسطول بحري جديد، قاده في شهر أيلول عام ١٩٠ ق.م من سلوقية بيريا، قرب أنطاكيا، إلى إفسوس على ساحل آسيا الصغرى لتعزيز البحرية السلوقية فيها، وخاض فيه بعد ذلك معركة ضد أسطول رودس، حليفة الرومان، ولكنه تراجع بعد تدمير عدد من سفنه.

لم يستمر طيب المقام في كنف أنطيوخوس طويلاً، فقد تعززت السيطرة الرومانية بعد انتصارهم في معركة ميونيسوس على السلوقيين، وشنوا حرباً في الأناضول، واستطاعوا بمساعدة حلفائهم في بيرغامون[٢٦]، إلحاق الهزيمة بالسلوقيين في معركة ماغنيسيا، انتهت بتوقيع اتفاقية ساردس عام ١٨٩ ق.م كان من ضمن شروطها تسليم هانيبال وحلفائه من أعداء روما.

راود هانيبال الشك بإمكانية أن يسلمه أنطيوخوس مرغماً للرومان فقرر الهرب إلى جزيرة كريت، ثم قصد بيثينيا في ليديا (الأناضول) ليساعد ملكها بروسياس الأول في حربه ضد بيرغامون[٢٧]. وتذكر المصادر تحقيقه عدة انتصارات برية وبحرية، استخدم في أحدها الأفاعي السامة التي وضعها في أواني كبيرة أمر بإلقائها على سفن العدو.

الموت

هدَّد الرومان بيثينيا ونصحوا ملكها بروسياس بالتخلي عن هانيبال، ويبدو أنه وافق على تسليمه. وثمة أكثر من رواية عن نهاية هانيبال، تقول إحداها: إنه مات بالحمى بعد ثلاثة أيام من جرح تعرض له بسيفه حين كان يهم بامتطاء جواده. وفي رواية أخرى: إن وفداً رومانياً معززاً بالقوة قدِمَ لاستلامه، فتجرع السم ومات. أما الرواية الثالثة فتقول:

إن بروسياس هو الذي سممه. وثمة اختلاف بين المؤرخين في سنة وفاة هانيبال هل هي ١٨٣ أم ١٨٢ أم ١٨١ق.م؟.

ويذكر المؤرخان اليونانيان بلينيPliney (٢٥-٧٩م)، وبلوتارخ Plutarch (٤٦-١٢٠م) أن قبره كان في ليبيا على ساحل بحر مرمرة (بين بورصة وأوسكودار الآن).

مات هانيبال في ليبيا وهو الذي كان قد تنبأ أن يموت في ليبيا: «تراب ليبيا سيغطي رفات حنبعل».

هانيبال في المصادر التاريخية

دخل هانيبال التاريخ بوصفه أهم شخصية عرفتها قرطاجة، وذلك للإرث النضالي الكبير الذي تركه في مقارعة جيش روما وأطماعها، وقد أصبحت سيرته وعبقريته العسكرية مثار إعجاب من أعدائه قبل أصدقائه. وهناك رغبة في معرفة الكثير، ولا سيما ما هو موثوق عن هانيبال السياسي والإنسان، ولكن تدمير الرومان لقرطاجة أدى إلى محو أي سجل تاريخي قرطاجي لحياة هذا القائد. أمَّا ما يتوفر من معلومات فمصدره المؤرخون الرومان، وهي غير خالية من التحزب[٣١]، فقد عدّوه أعظم عدو واجهته روما على الإطلاق. ومثال ذلك ليفيوس (٥٩ ق.م، ١٧م) الذي وصف هانيبال بالقسوة، والتوحش والاحتيال والكذب، وليس عنده شيء مقدس، ولا يعرف من العطف شيئاً. وحتى الخطيب شيشرون، عندما تحدث عن روما وعدويها العظيمين، تحدث عن: «بيرهوس (الإيبيري) الشريف»، و«هانيبال القاسي»[٣٢].

لقد حاول هؤلاء أن يقللوا من نجاح هانيبال، ويبالغوا في إخفاقاته، واتهامه بالهمجية والجشع وارتكاب الفظائع، ولكن هناك اتفاقاً حول عبقريته العسكرية، وخططه الإستراتيجية بعيدة المدى، وصرامة القرار، وطاقته، وتكتيكه العسكري[٣٣].

فقد كتب أحد المؤرخين الرومان عنه: «لم يطلب من الآخرين (ضباطه وجنوده) قط أن يفعلوا ما لا يستطيع هو نفسه أن يفعله وما لا يريده». كانت حياته صراعاً مستمراً ضد القدر، لم يضاهيه أحد في ثباته على هدفه والمبادئ التي آمن بها.

ويصف ليفيوس نفسه، هانيبال ببعض الصفات الإيجابية، مثل القدرة على جمع عساكره المنتمين إلى بلدان مختلفة، بحيث لا يتمردون عند تأخر المرتبات أو الإمدادات، وجسارته المقرونة بالذكاء، ومقدرته على المقاومة، وانعدام الحاجة عنده التي لا تتطلب

أيــة امتيازات[٣٤]. كما كــان رجلاً صالحاً يحمل سيفاً، ولا يعــرف الخوف في القتال، وكان قاسيــاً لا يبالــي بالتعب الجسدي، ينــام على الأرض وسط رجالــه، ويشاركهم مصاعبهم، ويأكل من أجل القوت، وليس المتعة. ولم يكن الجنس من اهتماماته الواضحة. وكان شخصاً ودوداً، معظــم أصدقائه من الجنود. وكان يتقبل النقــد والرأي الآخر، ومن ذلك أن فارساً اسمــه ماهربعــل قال له بعد معركة كاناي: «أنت تعرف كيــف تفوز بالنصر، لكنك لا تعرف كيــف تستخدمــه». ويروى عنه أنه كــان محباً للدعابة ومن ذلــك أن ضابطاً يُدعى جيسجو أبــدى تخوفه مــن الحشد الكبير للجيش الروماني قبل معركة كاناي، فــرد عليه هانيبال، ولكن هذا الحشد ليس فيه شخص اسمه «جيسجو». وعندما سقطت مدينة تارينتوم فجأة، قال مداعباً جنوده: لا بد أن الرومان قد حصلوا على هانيبال خاص بهم[٣٥].

لا شك أن الجشع والقسوة التي وصف بهما ليفيوس وبوليبيوس وغيرهما هانيبال، ليست من الصفات السيئة، وليست غريبة في وصف عدو خاضوا معه حروباً مريرة، ولكن هانيبال حارب بجيش بعيداً عن وطنه يحتاج إلى الطعام والمؤن. وكان قاسياً عند اللزوم فقد صلب أكثر من شخص أضلوه في طريقه في أكثر اللحظات حرجاً. لكن هل كان خصومه الرومان أكثــر إنسانية منه؟ فعند قتل أخيه هدسدروبعل قطعوا رأسه وأرسلوه له. فيما ثمة كثير من الأدلــة على أنه كان يعامل أعــداءهُ القتلى، ولا سيما قادتهم، بشيء مــن النُّبل والفروسية، ويدفنهــم دفناً لائقاً[٣٦]. فعند مقتل اثنين من القناصل الرومانيين في معركة تراسيميني، بحــث عن جثة جايوسفلامينيوس على ضفاف بحيــرة تراسيميني، وأقام طقوساً احتفالية تكريماً للوسيوس إيميليوس باولوس، وأعاد رماد مارسيلوس إلى أسرته في روما[٣٧].

أصبح هانيبال شخصية مرعبة للرومان إلى درجة أنه كلما تعرضوا إلى حالة طارئة أو تهديد، كانوا يرددون «هانيبعل على الأبواب!» لتأكيد خطورة الحالة.

أخيــراً، ومهما اختلف الرواة في تقويم هذه الشخصيــة الفينيقية القرطاجية، فهو من أروع نمــاذج القيادة فــي التاريخ القديم. قائد نذر نفسه لخدمة وطنه وشعبه، وأفنى حياته فــي سبيل الحفاظ على مصالح بــلاده واستقلالها، وتمتع بقدرات كبيــرة، وتمتع الحنكة، والدهــاء والتصميم، والشجاعة، والمهــارة، والبراعة في الفكــر الإستراتيجي والتكتيكي، إضافــة إلى خصالــه الإنسانية الفريدة التــي اعترف بها خصومه قبــل أصدقائه، وكذلك تواضعه الشديد ومحبته لجنوده وقربه منهم.

الهوامش

(١)- جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة: ربا الخش، دار الجوار، ط١، ١٩٨٨، ص ١٨٩.

(٢)- انظر: فينفريد إلليغر، قرطاجة – مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة: عيد مرعي، دار روافد، دمشق، ٢٠٠٨، ص ١٢٦.

(٣)- محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١، ص٨٧.

(٤)- جان مازيل، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.

(٥)- المرجع السابق نفسه، ص٨٧.

(٦)- المرجع السابق نفسه، ص٨٨.

(7)- Hoyos. D. Hannibal's Dynasty: Power and Politics in the Western Mediterranean. 247–183 BC.2003. pp. 89–91.

(٨)- فينفريد إلليغر، المرجع نفسه، ص ١٢٦- ١٢٨.

(9)- De Beer Gvin.. Hannibal: Challenging Rome's Supremacy. 1969. p. 113.

(10)- Lancel. Serge.. Hannibal. Published by Wiley-Blackwell. Hoboke (New Jersey).1999. p. 60.

(١١)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص٩٠.

(١٢)- المرجع السابق نفسه، ص٩٠.

(13)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts og Cannae. Hannibal and the darkest hour of the Roman republic. Random house . new York. 2010. p. 5162-.

(14)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts og Cannae. p. 4158-.

(١٥)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص٩٢.

(16)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts og Cannae. p. 155.

(١٧)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص٩٢.

(18)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts og Cannae. p. 151.

(١٩)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص٩٣.

(20)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts of Cannae. p. 151.

(٢١)- انظر: كيحل البشير، قرطاجة والممالك النوميدية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ١٩، ٢٣.

(٢٢)- محمود حمود، الفيل السوري- ظهوره انقراضه، هيئة الآثار، الشارقة، ٢٠٢٤، ص٧٣، ٧٤.

(٢٣)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

(24)- De Beer Gvin.. Hannibal: Challenging Rome's Supremacy. 1969. p. 291.

(25)- De Beer Gvin.. Hannibal. p. 296.

(٢٦)- بيرغامون عاصمة ومملكة قديمة تقع في تركيا، تبعد نحو ٢٦ كم عن بحر إيجة.

(٢٧)- بيثينيا مملكة قديمة شمال غربي تركيا حاربت السلوقيين وغيرهم، من أهم ملوكها بروسيساس الأول.

(٢٨)- محمد أبو المحاسن عصفور، مرجع سبق ذكره، ص ٩٧.

(٢٩)- فينفريد إليغر، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥.

(٣٠)- فينفريد إليغر، مرجع سبق ذكره، ص١٣٧، ١٣٨.

(٣١)- فينفريد إليغر، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٢.

(32)- Ronald Mellor.. The Historians of Ancient Rome: An Anthology of the Major Writings (Routledge Sourcebooks for the Ancient World) 3rd Edition. London. 2012.

(٣٣)- فينفريد إليغر، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٣٤)- فينفريدإليغر، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(35)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts of Cannae. 2010.

(36)- ROBERT L. O'CONNELL.. The ghosts of Cannae. 2010.

(37)- Ronald Mellor.. The Historians of Ancient Rome: An Anthology of the Major Writings (Routledge Sourcebooks for the Ancient World) 3rd Edition. London. 2012.

* * *

الحرب البونية الرابعة
صفحات جديدة لتأريخ قرطاجة

د. فايز الداية

اخترقت جيوشُ روما أسوارَ قرطاجة في الحرب البونية الثالثة التي استمرَّ حصارُ المدينة فيها من البحر والبرِّ ثلاث سنوات (١٤٩-١٤٦ قبل الميلاد)، وكانت المواجهة ضارية، ولم يكن قرار روما الاستيلاء والسيطرة وإنما التدمير وإفناء كلِّ نفس في كلِّ ركن، وهكذا تمَّ الأمر، فمَنْ لم يمت في القتال أجهز عليه الرومان؛ لم يميِّزوا بين الرجال والنساء والأطفال، وهدِّمت العمائر سواء المعابد أو القصور أو المكتبات أو البيوت بعد سلب ما فيها من ذهب وتحف ثمينة، وظلَّت النيران مشتعلة أياماً، وقُبض على من عثروا عليهم في أركان بعيدة فسيقوا للبيع عبيداً، وبقي بعض ممَّا كان في المكتبات من كتب، فحُمل إلى روما ومُنح بعضه لحلفاء روما من النوميديين الذين انقلبوا على قرطاجة، وكما ذكر المؤرِّخون لم يبقَ حجر على حجر في هذه الأرجاء، وحرث هؤلاء الغزاة الحقول ورشوا الملح فيها كي لا تعود الحياة في أية صورة.

امرأة من قرطاجة

كان الرومان يخشون دائماً من عودة الحيوية والازدهار إلى قرطاجة، فهذا كان يعني أنها لن تكون خاضعة أو غنيمة سهلة، وهنا نذكر أن المؤرخين الذين تتبعوا تاريخ هذا العالم الحضاري الكنعاني في قرطاجة أكّدوا أن القرطاجيين كانوا يتوجّهون إلى البناء وإثراء الاقتصاد في كل الأماكن التي يرتادونها في البحر المتوسط وشواطئه وجزره، ولم يسعوا إلى السيطرة العسكرية واستغلال الناس وجمع الثروات غصباً، كانوا بناة حضارة، وقد رسموا خططهم للحفاظ على الطرق البحرية لأساطيلهم، وأقاموا علاقات متماسكة في شبكة المدن الساحلية والجزر وامتدادها في السهول والمرتفعات حتى السواحل المطلة على الأطلسي وصولاً إلى الجزر البريطانية، وفي كل المواجهات كان القرطاجيون يدافعون عن هذا الكيان، ويسارعون إلى عقد اتفاقيات السلام والتعايش في صقلية وسردينيا ومالطة وسواحل إسبانيا، ومع مَنْ تطلّع إلى النفوذ من الإغريق، وكذلك مع روما في سنواتها المبكّرة قبل أن تتعاظم وتتشكّل فيها النزعة العدوانية التوسعية، وقد سارع القرطاجيون بعد اتفاقية السلام إثر الحربين البونيتين الأولى ٢٦٤-٢٤١ قبل الميلاد، والثانية ٢١٨-٢٠١ ق.م، إلى الإنتاج والتجارة وسددوا غرامات الحرب، لكن هذا لم يطمئن روما، فظلت تطارد وتتعقّب القائد هانيبال (حنبعل) بعد انتهاء الحرب ٢٠١ ق.م، وعودته إلى قرطاج ثم في تنقّله في سوريا عند أنطيوخوس السلوقي ومن ثم لدى ملك بيثينيا ١٨٣ ق.م، الذي حاول تسليمه، فشرب السمّ[١]، وجاءت كلمات الباحث الألماني الليغر معبِّرة عن الموقف في كتابه (قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين):

«تعودنا على تسمية الصراعات المريرة بين روما وقرطاجة من أجل السيطرة على حوض البحر المتوسِّط، والتي دامت عشرات السنين (بالحروب البونية)، ونرى هذه الصدامات بعيون الرومان أيضاً في عرض لتاريخ قرطاجة والأفضل أن نتحدَّث عن (حروب رومانية) لأنَّ هذا يطابق الحقيقة، ويطابق دور روما المعتدية، بينما كان الأمر بالنسبة إلى قرطاجة يتعلَّق غالباً بالمحافظة على ممتلكاتها القديمة»[٢]، وينقل كلمة عن الذرائع الواهية لتحركات الرومان «... وتقدَّمت فكرة تحرير صقلية إلى مجال الممكن، بالطبع ودائماً تحت شعار الدفاع عن النفس الذي أتى بسهولة دائماً على شفاه الإمبرياليين، وقد صدرت عن المؤرِّخ الإنكليزي غيبون الملاحظة اللاذعة: إذا صدَّق المرء (ليفيوس) فقد احتل الرومان العالم دفاعاً عن النفس!»[٣].

كتب التاريخ حرب مستمرَّة

لقد كان الرومان يخوضون الحرب ضد قرطاجة في المواقع الحربية في البحر وعلى اليابسة، ولكن معركة كانت تتسلل طيلة سنوات النزاع وأوقات الهدنة التي امتدت

عشرات السنوات، تلك هي تزييف التأريخ الذي كان يقوم على كتابته عدد من الإغريق ممن يرتادون روما، ومنهم من كان مع قادتها في حملاتهم وحروبهم ضد قرطاج، وكذلك الكتَّاب الرومان، وقد تتابعوا في أكثر من جيل قبل الميلاد وبعد الميلاد بقرون وكلَّما تباعد الزمن أمكنت الزيادة والتصرُّف في النصوص التي لم توثَّق، وهم لن ينكروا الحقائق جملة، وإنما يبثون ما يوهن جوانب، ويشيعون سمات غير صحيحة عن سلوك القرطاجيين وقيمهم، وقد تنبَّه عدد من الدارسين الأوروبيين في عصور متعددة إلى هذا الجانب، ورغم ذلك بقي شطر متداول من تلك الاتهامات كأنَّه من الأمور اليقينية الثابتة، ونشير هنا إلى ما رُوِّج من تقديم الأضاحي البشرية في قرطاج، وقد بدأ بعض الباحثين العرب مناقشة القضية علمياً ونقض هذا الادعاء[٤].

نستعرض نماذج مما أورده الدارسون الأوروبيون والمختصون العرب عن مغالطات المؤرخين القدماء، وثمة تفاصيل لا يتسع لها حيِّز المقالة، وسنرى بعض انعكاساتها على الحالة الكبرى التي استدعت عنوان (الحرب البونية الرابعة)، يقول مونتسيكيو ١٦٨٩-١٧٥٥م، في كتابه: (تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط): «أشكُّ كثيراً أن يكون هانيبال قد نثر كلَّ النكت التي ينسبها إليه [المؤرِّخ] تيت ليف ولا سيما وهي تحطُّ من قدره وتعلي من شأن خصميه فابيوس ومارسلُّوس. يؤسفني أن أرى المؤرِّخ الروماني يكدِّس هذه الأكوام من الزهور على عمالقة الماضي حتى لم نعد نميِّزهم. وددت لو فعل مثل هوميروس أهمل الزينة ونفخ في الأبطال الحياة»[٥]، ويشير إبراهيم نصحي إلى مسألة الحياد والموضوعية فيقول: «المؤرِّخ الإغريقي بوليبيوس كان أبرز مؤرخي عصره... اكتسب صداقة عدد من أعظم الرومان شأناً، ولا سيما سقيبيو أيميليانوس وكان أبرز قائد روماني... واعتمد على أعماله: ليفيوس، وديودوروس الصقلي، وبلوتارخوس، وأبيانوس الإسكندري»[٦].

في موسوعة تاريخ الحضارات نقرأ: «لم يرعَ التاريخ القديم لقرطاجة في هذا المجال حرمة، فاسترسل الكتبة والمؤرِّخون، ومعظمهم إغريق ورومان في النهش والثلب، فرموا القرطاجيين بكل فرية، وقذفوهم بأبشع النعوت والأوصاف. فهم كما صوروهم قراصنة يخفرون بالعهد المقطوع تيَّاهون... صُلُف في سيطرتهم وأخسَّاء في دناءتهم قساة القلوب... من السهل كما هو مضيعة للوقت وقتله في السفائف أن نتلهّى بكشف ما فيها من تجسيم وتضخيم أرادته موجدة بغيضة وحقد دفين»[٧]. ويشير باحث آخر إلى عدم الصدق في تصوير المواقف، وادعاء نقيضها، فنقرأ في كتاب (قرطاج البونية):

«الذهنية الرومانية القائمة على عدم الثقة بالبونيين القرطاجيين وادعاء أنهم ينكثون بعهودهم... يتضح التأثير العميق لهذه الصورة السلبية في المصادر اللاتينية، وكذلك في

المصادر الإغريقية التي تبنَّت وجهة النظر الرومانية إلى درجة تغييب المعاهدات التي ميَّزت فتـرة التعايش بين قرطاج وروما، أو تناولتها بصفة عرضية»[٨]. وفي رؤيـة عامة نقرأ: «يبدأ تاريخ المغرب بقرطاجة، فمجرد ذكر اسمها يلقي على القضية نوراً ساطعاً، ويقودنا الفكر إلى الحروب البونيقية حيث يروي لنا مؤرخو روما قصة الكفاح المرير، ورواياتهم لا شكَّ منحازة تحمل صيحة البغضاء والنصر»[٩].

تقول مادلين هورس ميادان وهي تعدد مصادر تاريخ قرطاجة:

«إنّ مؤلفـات هيرودتس، وديودوروس الصقلـي، وبوليبوس، وتيت ليـف، وأبيانوس، وتروغ بومبي،ويوستينوس، وكورنيليوس نيبوس، وسيليوس إيتالكس تقدِّم معطيـات مهمّة، ولكن يشوبها التحامل في غالب الأحيان. بالإضافة إلى ذلك لم تستق هذه المعارف من منابعها»[١٠].

إنَّ جانبيـن يظهـران ما وقـف دون إظهار الحقائـق التاريخية عن قرطاجـة التي أضاءت حضارتها سبعة قرون:

١- أول هذيـن الجانبيـن يبـرزه الحديث عن مكتبـات قرطاجة التي عرفنـا كيف حلَّ بها الدمـار بالإحراق والاستيـلاء والتشتيت في الأرجاء، وبهذا لم نجد من ينقل بوضوح عن وثائق قرطاجية، وإنما هي روايات في علم الغيب لا يمكن تأكيدها، ونقرأ في تاريخ الحضارة:

«ومـع هـذا وإلى هذا كلِّه يحدِّثنا التاريخ عن قيام مكتبات فـي قرطاجة أمرت روما بعد أن تمـت لها الغلبة وظفـرت بها، بتوزيعها بدءاً علـى ملوك البربر وأمرائهـم [النوميديين]، فقد حـوت هذه المكتبـات مؤلفات إغريقية، ولكن إلـى أي حدٍّ وعلى أي قدر؟ ومـاذا كانت نسبتها فيها؟ فالإغريق شغلوا أنفسهم بقرطاجة»[١١].

وفـي إشـارة أخـرى نقرأ: «ومـن المسلَّم بـه يقيناً أنَّ مكتبـات قرطاجة كانـت تعجُّ بكثير مـن الكتـب التي تتضمن فيما بينهـا نوعاً مـن الأدب الخاص بها يمكـن أن يستخدم كمصدر موثـوق»[١٢]. ولا يغيب عنَّا أن كلَّ ما يتصـل بتاريخ قرطاجة وتأصيل حضارتها وإنجازاتها كان مصيره -إنْ لم يحترق- الإتلاف؛ فلا يريد الغزاة تمجيد خصومهم.

٢- الجانـب الآخـر في هذه القضية هـو أن الإرهاب الروماني الـذي صاحب التدمير والقتل ومطـاردة الوجـود القرطاجي كانا عنيفيـن، وانتقل الخوف إلى كل مكان فـي المدن الكنعانية/ الفينيقية التي ارتبطت بقرطاجة، وهذا يعني تدميراً لكل ما يتصل بها سواء من جيوش الرومان أو مـن النوميديين، وكذلك كان ذاتياً يستبق أي مداهمة كما نرى في كل العصور عندما تعصف الخصومات الفكرية، وتمارس السلطات الغازية البطش، وهنا أشير إلى خسارة مزدوجة للتاريخ،

فقد كانت المكتبات القرطاجية تضمُّ ما يضيء جوانب من تاريخ المدن والدول الكنعانية في المشرق بدءاً من أوجاريت إلى صور وصيدا وبيروت وأرواد إضافة إلى تاريخ قرطاجة.

حصان طروادة في الحرب الرابعة

كان الإمبراطور الروماني أكتافيوس أغسطس (٦٣ - ١٤ق.م) يدور حول التاريخ والأسطورة، وذلك ليجعل منهما أداتين في سبيل بناء أمجاده بالانتصارات المادية والفكرية، ولهذا عاد إلى ما رُوي عن طروادة وسقوطها والأسرة الحاكمة فيها، وأراد أن يُحكم الاستثمار، فاستوحى من حكاية ذلك الحصان الذي خدع الطرواديين ومن خلاله اجتاح الإغريق طروادة ودمروها، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة، ولكن أغسطس رسم خطة لحصان دائم الحضور لا يغيب ولا تنتهي مهمات المكر والخديعة ضد خصم عنيد عانت روما منه، قرطاجة والقرطاجيين الذين قد يظهرون من بين طيَّات الزمان الماضي أو المستقبل، لقد أراد أن يقف بالمرصاد سواء في الماضي أو المستقبل، وسيكون سابقاً في استخدام ما صرنا نطلق عليه (القوة الناعمة) التي لا تحتاج إلى الأسلحة المادية، ولا تتطلب الأعباء المالية. لقد شكَّل قوة ضاربة حملت اسم (الإنيادة) كما نألف تداولها؛ أو كما يدقِّق المختصون: (الإنيادة)، وسيكون الشاعر فيرجيل شريكه الذي يشرع بقدراته وثقافته الأدبية لإنجاز المشروع، وسيكون لها جنود عبر الأجيال يعلمون أو لا يعلمون أنهم يؤدون دوراً في حرب تتغلغل إلى الأعماق بصمت ماكر.

أغسطس... المجد والكلمات

عاد القائد أكتافيوس منتصراً إلى روما، وقد قضى على خصميه مارك أنطونيوس وكليوبترا ملكة مصر البطلمية بعد معركة أكتيوم، وبدأ مساراً ينهض بالدولة، وقد عصفت بها لعقود نزاعات وحروب أهلية، وكان له من الحنكة ما جعله يخوض في مسار شاق مع الخصوم والشركاء، فتقاسم مكاسب وتمكن من السيطرة واكتساب السلطات والألقاب حتى كان له لقب الإمبراطور وأغسطس وتعاظم إلى مصاف المقدَّس، ولم تكن القوات العسكرية وأسلحتها هي الوحيدة في خططه، وإنما اعتمد على الجانب الديني والفكري، وكان يباشر إنجازات الفنون، وقد دوَّن بنفسه وثيقة نُقشَت لتكون على ضريحه، وقد نسخت ونقشت على المباني العامة في عدد من المدن، وقد عثر على واحدة مكتملة منها في موقع (أنقرة)، وتروي «الوثيقة التاريخية المهمّة: (سجلُّ منجزات المؤلَّه أغسطس) التي وصفها شيخ مؤرخي التاريخ الروماني مومسن بأنها ملكة النقوش اللاتينية. وهي تسرد انتصارات المؤلَّه أغسطس التي أخضع بها العالم، وتُبيِّن إصلاحاته الإدارية والأموال التي أنفقها على الشعب الروماني»[١٢].

ويلحظ الدارسون عمق اهتمام أكتافيوس بإبراز ذاته والعظمة التي يراها في نفسه، ويسعى ليكسب الأجيال الجديدة «فقد حاول أغسطس أن يربط بين إيمان الشباب بالعقيدة الدينية وولاء هذا الشباب لشخصه.تلك هي فلسفة الحركة الأغسطية الجديدة، ففرجيل يتحدث [في أشعاره] بأسلوب عاطفي ورومانتيكي بالغ عن إحياء الألعاب الأولمبية لأول مرَّة منذ أن هدمها الإغريق منذ أكثر من اثني عشر قرناً»[١٤].

باشر أغسطس الأعمال الأدبية والكتابات التي يريد لها الانتشار أولاً عن طريق مستشاره (مايكيناس) الذي يرعى أحوال الأدباء، واقتراح ما ينتجونه، وكذلك روى المؤرخون المتابعة المباشرة التي كان يقوم بها الإمبراطور بنفسه، وهكذا سيكون كلامنا على الحرب البونية الرابعة مؤكَّداً، لأن ما سنتابع تفاصيله في الإنيادة لم يكن مجرد إبداع شعري فذٍّ قدَّمه إلهام شاعر، وإنما هو مشروع سياسي بعيد المدى.

نورد عدداً مما جاء به الباحثون العرب في التاريخ، وهم يستمدون معلوماتهم من المراجع الأجنبية، ومن ملحوظاتهم التي تناولت النصوص الشعرية الرومانية/ اللاتينية:

«يهتم الدارس لعصر أغسطس بنوع آخر من المصادر، وهي أعمال الشعراء الذين عاشوا تحت حكمه نظراً لحرص أغسطس على استخدام الشعر والشعراء لأغراض الدعاية لعهده الجديد، بحيث أصبح هناك ما اصطلح على تسميته «الأغسطية» وهي فلسفة الحكم الجديد التي حاول بعض الشعراء أن يمتدحوها طمعاً في الفوز برضا الإمبراطور عنهم أو تجنباً لسخطه عليهم، ويأتي على قمة هؤلاء الشعراء فرجيليوس صاحب أشهر ملحمة رومانية وهي (الإنيادة) التي كتبها بتكليف من أغسطس نفسه»[١٥].

«ويعاصر فيرجيليوس شاعر آخر هو هوراتيوس الذي كان شاعراً ملتزماً على أية حال، ويظهر ولاءه للعهد الجديد في عدد من قصائده، ولا سيما ما يُعرف بالأناشيد (odes) التي اشتهرت باسم القصائد الرومانية التي يمجِّد فيها الفضائل الرومانية القديمة التي كان يدعو ويبشِّر بها الإمبراطور أغسطس... الاعتدال والشجاعة والوطنية وبساطة المعيشة والعدل والتقوى...». ويروي المؤرِّخون مآل من لا يستجيب إلى كل ما يريد الإمبراطور، ومن هؤلاء من جمع بين الأدب والعسكرة: «وقد قام كورنيليوس جاللوس أول وال عيَّنه أكتافيوس أغسطس على مصر، وهو من ألمع رجال الفرسان وكان شاعراً وصديقاً لفرجيل أمير الشعراء الرومان بحملة تأديبية ضدَّ النوبيين... فعُزِلَ من منصبه، وصودرت ممتلكاته، ثم نُفي من البلاد، ولم يحتمل هذه الصدمة، فأخذ حياته بيده سنة ٢٧ ق.م، فرثاه صديقه الحميم فرجيل»[١٦].

إنَّنا نتقدَّم خطوة أخرى لنتبيَّن مدى علاقة الإمبراطور بهذا العمل الأدبي السياسي (الإنيادة)، وبالشاعر الذي نفّذه، وكان له تميُّزه الأسلوبي (فيرجيل).

فيرجيل وإنيادة أغسطس

ترجم د. عبد المعطي شعراوي ثلاثة من كتب (الإنيادة) الاثني عشر عن الأصل اللاتيني، وراجع ما قام بترجمته زملاؤه، وقدّم سيرة للشاعر فيرجيل ودراسة تمهيدية، وقد ذكر ولادة الشاعر سنة ٧٠ ق.م، في (مانتوا) من أصول أتروسكية، وأشار إلى صداقة جمعته في طفولته بفتى يصغره بسبع سنوات كان تبنَّاه يوليوس قيصر، وهو الذي سيغدو في المستقبل أكتافيوس أغسطس، ويلتقي الصديقان بعد سنوات كذلك في دروس الفلسفة في روما[١٧].

وتتوضَّح علاقة مميزة بين الشاعر فيرجيل والمجموعة الأدبية والثقافية العاملة في إطار السلطة، فيقول د. شعراوي: «نشر فيرجيل في عام ٣٧ ق.م، مجموعة أشعاره المسماة بالأشعار المختارة Eclogae أو الرعويات Bucolica، وسرعان ما نال شاعرنا شهرة كبيرة، وانتشرت أشعاره، وأصبحت تُقرأ في المسارح والأماكن العامة، هكذا توقَّع الجميع لفيرجيل العظمة والمجد ورأوا فيه أعظم شعراء الحكومة الجديدة مستقبلاً. كان بوللیو في ذلك الوقت قد أتاح لفيرجيل فرصة المثول بين يدي مايكيناس الذي كان مستشاراً لأغسطس؛ وصديقاً حميماً له، وفي الكتاب الأوَّل من الهجائيات يروي هوراتيوس (٦٥ –٨ ق.م) كيف ذهب هو وفيرجيل وفاريوس وتوكا من روما إلى براندیزي في صحبة مايكيناس في أثناء قيامه بمهمة سياسية خطيرة»[١٨]. واستردَّ فيرجيل مزرعته في (مانتوا) التي وزِّعت مع أراضٍ أخرى على الجنود العائدين من الحرب سنة ٤٢ ق.م، بوساطة مايكيناس، وقد أشار إلى الحادثة في أشعاره[١٩].

حدّد الدارسون العلاقة بين شخصية الإمبراطور أغسطس والإنيادة التي اتخذت شخصية آينياس الطروادي محوراً لها، فمن ذلك ما كتبه د. أحمد عبد اللطيف:«عكف فيرجيل في السنوات العشر الأخيرة من حياته (٢٩–١٩ ق.م) على تأليف الإينادة التي مات قبل الانتهاء منها، وقد أوصى بحرقها لعدم رضائه عنها، لكن أغسطس أمر بنشرها، ولا مراء في أنها قد نُظمت بإيعاز من الإمبراطور نفسه، وهي أعظم ملحمة عند الرومان، والقصد منها تمجيد روما منذ نشأتها، واستعراض سير أبطال تاريخها، والإشادة بأكتافيوس– أغسطس وعهده الذي يبشر بالأمل والسلام والرخاء»[٢٠]. وأما ارتباط آينياس بتأسيس روما فقد مطَّه فيرجيل وتوسَّع فيه خالقاً منه الموضوع القومي العظيم في الملحمة»[٢١]، ويضيف د. عبادي: «ورغم أنَّ موضوع ملحمة (الإنيادة) هو تأسيس روما القائم على أسطورة قديمة فإنّ التصوُّر الفني لها هو أنه إذا كان رومولوس قد أسس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد، فإنَّ أغسطس هو الذي ردَّ إليها الحياة بعد أن أوشكت الحروب الأهلية أن تقضي عليها. ونجد شخصية روما وشخصية أغسطس ماثلتين في الملحمة بوضوح كامل، وتُعدُّ (الإنيادة) مثلاً من أمثلة الالتزام السياسي في ذلك العصر»[٢٢]. لم يكن فيرجيل صاحب فكرة رحلة آينياس من طروادة إلى

الساحل الإيطالي مروراً بمواقع وعقبات، وقد بيَّن الباحثون مرجعيات هذا الجانب، فيقول د. عبد المعطي شعراوي: «ربَّما كان نايفوس أول من جعل آينياس يزور قرطاج في ملحمته التاريخية التي تناولت تاريخ الحرب البونية الأولى، وذلك استناداً إلى ما جاء عن بعض المؤرخين الإغريق الذين كانوا قد رأوا أن كلاً من مدينتي روما وقرطاج أُسستا في عصر واحد.

وأعظم الكتاب الرومان الذين عاشوا في القرن الأول قبل الميلاد، فارو varro قد تناول ذلك الموضوع قبل فرجيل»[٢٣].

حفظ التاريخ -رغم ما يعتري من اضطراب وفوضى وضياع للوثائق- بعض الدلائل على مرافقة الإمبراطور أغسطس خطوات إنجاز (الإنيادة)، وحرصه على إتمامها ونشرها فيقول د. شعراوي: «لقد شجع فيرجيل على إنجاز الإنيادة إلحاح البلاط الإمبراطوري، ورغبات الجماهير، فاعتكف، وكرَّس كل جهده ووقته لتحقيق أمله العريض... كتب الإمبراطور أغسطس في العام ٢٥ ق.م، من إسبانيا يسأل فيرجيل عمَّا تمَّ في مشروعه الضخم... وبعد ذلك بثلاثة أعوام على الأقل قرأ فيرجيل ثلاثة كتب [أجزاء] كاملة من الإنيادة على الإمبراطور وشقيقته أكتافيا»[٢٤].

وكما يبدو من متابعة أغسطس كانت جزئيات هذا العمل الشعري الملحمي ضمن الحوار والتوجيه بين الإمبراطور والشاعر، وتعطينا كلمات قليلة دلالة مهمّة في هذا الجانب ونحن نقرأ ما ورد تاريخياً: «لدينا شذرة باقية من إحدى الرسائل المتبادلة بين فيرجيل والإمبراطور أغسطس يقول فيها الشاعر عن الإنيادة: يُضاف إلى ذلك أنني -كما تعلم- ما زلت أضيف إليها حصيلة أخرى من الدراسات العميقة»[٢٥].

الإنيادة حرب على قرطاجة

كانت قرطاجة هي الهدف الرئيس من تأليف (الإنيادة)، ورغم ما يبدو من أنَّ الأساس فيها هو تمجيد أغسطس، فقد عرف العصر شعراء كُثُر مدحوا هذا الإمبراطور؛ وانتشرت قصائدهم ومنهم فيرجيل في دواوين سبقت الإنيادة، فهو نال الكثير من المديح وليس هذا هو العمل الأوَّل الذي سيمجده، ولهذا نرجِّح توظيفه للصراع مع قرطاجة التي لا تزال تؤرق الرومان بعد تدميرها المادي، ولن نتجاوز الممكن عندما نردُّ كل ما أثير حول قرطاجة في هذا العمل إلى قرار الإمبراطور أغسطس؛ سواء بطرح التفاصيل أو بالطلب من فيرجيل أن يبحث عن الحالة التي يريد عرضها، وأشار الباحثون إلى أن فيرجيل هو الذي أضاف إلى رحلة آينياس ومروره بقرطاج مع أصحابه حكاية الحب التي جمعت بينه وبين ملكة قرطاجة، وقد أطلق عليها الشاعر اسم (ديدو) ثم أورد لها اسماً آخر هو(أليسا) وعادة يكتب المؤرخون

بحسب اللفظ الكنعاني/ الفينيقي الاسم (عليسة)، ويقول د. شعراوي: «أمَّا قصة حب الملكة (ديدو) ونهايتها المفجعة فإنَّ معظم الدلائل الأدبية تؤكِّد أنَّها من ابتكار فيرجيل»[٢٦].

اعتمد فيرجيل على ملحمتي هوميروس: الإلياذة والأوديسة، ولكنه عكس ترتيب الأحداث في عمله (الإنيادة) الذي تكوّن من اثني عشر جزءاً، فجعل ما في الأوديسة التي حكت عن رحلة العودة للبطل الإغريقي أوديسيوس إلى بلاد اليونان بعد حرب طروادة وتحقيق الانتصار ماثلاً في الأجزاء الأولى جعلها لرحلة آينياس سليل الأسرة المالكة الطروادية من بلاده متجهاً لإنشاء روما وتأسيس كيان جديد سيتحوَّل إلى إمبراطورية، وفي الأجزاء التالية من الإنيادة تناول فيرجيل الحروب التي خاضها آينياس لتحقيق الهدف، وكما تابعنا في إشارات المؤرخين والدارسين استفاد فيرجيل مما كتب قبله عن رحلة آينياس في أعمال الشعراء والمؤرخين، ونستنتج أن إبداع هذا الشاعر كان في الأسلوب وليس في ابتكار جديد، وكانت الوظيفة السياسية للإمبراطور أغسطس بمطاردة قرطاجة عبر الأزمنة وراء ذلك كلِّه.

يلفت انتباهنا ترجيح بعض الباحثين ابتكار فيرجيل لزاوية واحدة هي علاقة الحب التي جمعت بين ملكة قرطاج الكنعانية/ الفينيقية أليسا وهذا الطروادي الذي لجأ من عواصف البحر إلى شاطئ قرطاجة، وسنحدّد الوظيفة التي أراد فيرجيل أن ينجزها من خلال عمله، وفي الحقيقية ما أراد أكتافيوس أغسطس تثبيته ليبقى عبر العصور، ويكون سدّاً أمام أي بزوغ لأبناء قرطاجة أو أحفادهم.

سنتناول (الإنيادة) على أنها مُرَكَّب أدبي شُكِّل مع تجاوز الحقائق التاريخية ليؤدي أهدافاً محددة، وأوَّل القضايا هي الجمع بين أليسا/عليسة وآينياس والفارق الزمني يتجاوز ثلاثمئة سنة بين سقوط طروادة وهجرة سكانها وتأسيس قرطاجة ٨١٤ ق.م، فهذا لقاء خيالي يراد تحميله غايات سياسية، وفي الجانب الأسطوري والعقائدي نجد فيرجيل يجعل لقرطاجة راعية ومعبودة هي الربّةُ جونو زوجة جوبيتر كبير الآلهة الرومانية، وأهل قرطاجة كنعانيون حملوا من صور وصيدا آلهتهم إرث أوجاريت وفي الصدارة: إيل وبعل، وعشترت وملقارت ثم جاءت تسميات: إشمون وتانيت.

صراع محتوم وفناء قدري

تبدو (الإنيادة) سردية لرحلة آينياس الطروادي إلى أرض إيطاليا ليؤسس روما التي ستغدو الإمبراطورية المتحكِّمة بالعالم القديم؛ وهي قصص وأناشيد للحرب هكذا يصرح فيرجيل في أول جملة وهي تفتتح الكتاب الأوَّل، ورغم تعدد الحروب والوقائع الصغيرة والكبيرة والمجموعات والشعوب التي واجهت رحلة آينياس فإننا نجد خطَّاً أساسياً في الصفحة الأولى

يحدِّدُ الصراع بين روما الآتية بمشيئة الآلهة وقرطاجة وأهلها الآتين من صور، وسيكون القرطاجيون حاضرين في أجزاء (الإنيادة) الاثني عشر مباشرة؛ أو من خلال الربة جونو التي ترعاهم وتفضِّلهم، وتطارد آينياس وقومه وحلفاءه، وهذا الاستمرار في الحضور يؤكِّد مركزية القضية القرطاجية في (الإنيادة).

سنورد نص كلمات فيرجيل الصريحة في البدء، ونجتزئ الشواهد فيما بعد لضرورة الصياغة المتكاملة، فهو يتحدَّث عن الطرف الأوَّل في الصراع أي الرومان انطلاقاً من المؤسس (آينياس):

«للسلاح أغنِّي، وللرجل الذي كان أوَّل من جاء به القدر شريداً من سواحل طروادة إلى إيطاليا وشاطئ لافينيوم: يضرب على غير هدى -بقوة من السماء- في آفاق البرِّ والبحر، بسبب غضب جونو الذي لا يعرف الصفح، وقاسى الكثير في الحرب أيضاً، كي يستطيع أن يؤسس مدينة ويأتي بألهته إلى لاتيوم، حيث أتى الجنس اللاتيني، وسادة ألبا، وأسوار روما الشاهقة إلى الوجود»[٢٧].

ينتقل فيرجيل ليحدِّد الطرف الآخر في الصراع... قرطاجة التي آثرتها جونو زوجة جوبيتر، وما سيحل بها، والعلاقة المصيرية بروما: «كان هناك مدينة عتيقة، احتلها المستعمرون من أهل صور، إنها مدينة قرطاجة الواقعة في مواجهة إيطاليا ومصابَّ نهر التيبر البعيدة، مدينة وافرة الثراء، شديدة المراس في فنون الحرب، يقال إنَّ جونو قد وهبتها من حبِّها أكثر مما وهبته لباقي الممالك، وعَدّت ساموس في مرتبة أدنى، فهنا في قرطاجة تكدَّست أسلحتها، واستقرَّت عربتها الحربيَّة، وكانت الربَّة حتى ذلك الوقت تسعى وتطمع في أن تكون هذه المدينة كعبة للشعوب، لو أنَّ الأقدار كانت تسمح بذلك»[٢٨].

ونرى فيرجيل ينبئ بالقرار وهو قرار ربَّات القدر؛ والهدف الذي ستعمل روما على تحقيقه، وفي المقابل ستعرض الإنيادة أفعال الربة جونو:

«وعلى كل فقد علمت الربَّة أنَّ ذريَّة انحدرت من أصل طروادي عليها أن تدمِّر يوماً القلاع الصورية، وأنَّ من هذه الذريَة سوف يظهر شعب يحكم ممالك مترامية الأطراف، صعب المراس في الحرب، وسوف يأتي ليصبَّ على ليبيا الدمار. هكذا قضت ربَّات القدر»[٢٩].

يستخدم فيرجيل ألفاظ: قرطاجة وصور وصيدون وفينيقيا للدلالة على قرطاجة، ويتداول لفظ ليبيا وكانت تشمل الساحل الإفريقي الشمالي المطل على البحر المتوسط؛ وأحياناً للدلالة على قرطاجة، واستخدم لفظ ديدو وأليسا دلالة على ملكة قرطاج، ويكتب الباحثون

اسمها: علِّيسة بحسب الأصل الكنعاني، وكانت الإنيادة تتناول الأحداث التاريخية والأسطورية وتتخذ شخصية آينياس رمزاً للرومان وقوَّادهم عبر الأزمنة، ولا سيّما الإمبراطور أكتافيوس أغسطس ويوليوس قيصر.

يوجز مطلع الإنيادة سبب حروب روما ضدَّ قرطاجة، فهم يرون أن قيادة العالم والهيمنة عليه لا تكون إلا لطرف واحد، وهم ينكرون أن يقيم أهل صور مدينة قرطاجة، وأن تشعَّ على العالم قيماً وعلاقات حضارية، وهم يستلهمون الآلهة للقضاء على هذا الكيان الحضاري، ولا يرون ضيراً في مجيئهم طروادييين من مكان بعيد إلى سواحل إيطاليا ليقيموا دولة تسيطر على شعوب الدنيا وديارهم، وسوف يبحث فيرجيل عن أسباب فرعية في طيات الإنيادة.

خطة الحرب الرابعة

رتَّب كلٌّ من الإمبراطور أغسطس والشاعر فيرجيل خطة القضاء على قرطاجة تاريخاً وحضارة، وذلك بعد تدميرها عمارة وكياناً مادياً وبشرياً في الحرب البونية الثالثة (١٤٩-١٤٦ ق.م)، وهذا ما أسمِّيه: الحرب البونية الرابعة من خلال الإنيادة وأجزائها الاثني عشر (٢٩-١٩ ق.م). وتقوم الخطة على ثلاثة من المسارات، وهي تتداخل فيما بينها في بعض الجوانب:

١- إيجاد تسويغ لحروب روما ضدَّ قرطاجة، ونقض المعاهدات معها، وصولاً إلى تدميرها وإزالتها من الوجود.

٢- تشويه صورة ملكة قرطاجة ومؤسستها التي رُفعت إلى مصاف القداسة بين قومها.

٣- تشويه تاريخ قرطاجة الكنعانية/ الفينيقية، وتعمية نشأتها ودورها الحضاري على امتداد شواطئ البحر المتوسط وجزره طيلة ستة قرون.

١- حرب الإنيادة ضدَّ قرطاجة:

سجَّل فيرجيل مشروعية القضاء على قرطاجة بأنه إرادة إلهية، وقد أوحت بها ربَّات القدر، ولم تُذكر في الإنيادة حروبٌ بين آينياس وجيشه وحلفائه -وهو رمز لروما في كل عصورها- وجيوش من قرطاجة والملكة التي يسميها: ديدو، ولكننا قرأنا في مفتتح كلام فيرجيل ربطاً بين الربَّة جونو زوجة جوبيتر وقرطاجة المدينة الأثيرة لديها، والمكان الذي تودع فيه أسلحتها وتتخذه منطلقاً للتحريض على آينياس ومحاربته، وهي الخصم العنيد لطروادة والطرواديين، وهكذا يتحمَّل القرطاجيون ضمناً المسؤولية عن الحروب وآثارها، وقد ذكر فيرجيل أنَّ ملكة

قرطاجة كانت «تشيد معبداً مهيباً لجونو غنياً بالعطايا وبتشريف الآلهة، له أعتاب برونزية ترتفع بشكل متدرِّج قد سوِّيت أعتابه العليا من البرونز»[٣٠]. وقد كانت جونو حاضرة في كل أجزاء الإنيادة، وكانت الربَّة فينوس راعية طروادة وحاميتها وأم آينياس تشكوها في مرات إلى جوبيتر.

نقرأ في الكتاب السابع كيف كانت جونو غاضبة وحزينة لأن مجموعة على رأسها آينياس استطاعت الخروج من دمار طروادة، وهي في طرف جزيرة صقلية:

«لكن بينما كانت زوجة جوبيتر القاسية عائدة من أرجوس الإناخية وممسكة بالهواء الذي يحملها شاهدتْ من السماء العالية؛ من فوق باخينوس الصقلية الأسطول الداردراني وآينياس وهو ينعم بالسعادة، شاهدته ورفاقه يشيدون المساكن ويثقون في الأرض بعد أن غادروا سفنهم، وقفتْ بلا حراك وهي تشعر بأسى عظيم، وأخذت تهزُّ رأسها وهي تبعث بهذه الكلمات من أعماقها: أيتها الذرية الكريهة، ويا أقذار الفروجيين التي تتحدَّى أقدارنا! قد وجدوا لأنفسهم مخرجاً من وسط الجيوش والنيران لا، بل جرؤتُ أن أعاديهم وأطاردهم وسط الأمواج بعد أن طُردوا من وطنهم، وأن أعترض طريقهم في جميع أنحاء المحيط أثناء فرارهم»[٣١]. وتحكي صفحات تالية كيف حالت جونو دون أن يتم اتفاق آينياس والملك لاتيوس، ومنعت بدهائها دون المصاهرة بينهما، وأجَّجت الحرب، وأبعدت الطرواديين عن تحقيق هدفهم في هذا المكان.

وينقل فيرجيل مشهداً بحضرة جوبيتر تطلب جونو فيه التدخل في المعارك، وإنقاذ فارس أمير من خصوم أينياس وجيشه، فهي حاضرة في كل مراحل الحرب إعداداً واشتباكاً ونهايات فيها ما يخلفه القتال، وهي تريد النيل من الطرواديين:

«وفي تلك الأثناء خاطب جوبيتر جونو دون أن تسأله قائلاً: أختاه، يا من أنت في الوقت نفسه زوجي العزيزة إنَّ فينوس كما تردِّدين -ولن يقودك رأيك إلى الضلال- هي التي تعضد قوات الطرواديين، وإنَّ رجالَ هؤلاء ليست لهم سواعد فتية في الحرب، ولا أرواح متوثِّبة تتحمَّل الأخطار. ردَّت عليه جونو وقد أذعنت له تماماً: إن يك لي -كما كان لي قبلاً، وكما هو خليق بي أن أكون- سلطان على عواطفك فلن ترفض لي أيها القدير طلبي هذا أن يصبح في مقدوري أن أخلِّص تورنوس من حومة الوغى...»[٣٢].

وفي واحد من المواقف نسمع فينوس تشكو إلى جوبيتر: «أبتاه أيتها القوة الأزلية المهيمنة على الكائنات والبشر. لمن سواك يمكن أن نضرع الآن؟ فها هي جونو تثير عليهم الآن حتى آلهة العالم السفلي ذلك الجزء من الكون الذي ظلَّ دون أن يتكالب عليه أحد...»[٣٣].

٢- الهجوم على ملكة قرطاجة:

نتذكّر في وقفتنا أمام شخصية ديدو/أليسا في الإنيادة ما أشار إليه الباحثون في التاريخ الروماني والأدب اللاتيني من عدم رغبة فيرجيل في نشر الإنيادة لأنها تحتاج إلى ثلاث سنوات من التنقيح، وكان قد بذل جهوداً كبيرة، فهو رسم المخطط العام -ودائماً نلمح ظل أغسطس معه- وكان يكتب بشكل منفصل في جوانب من هذه الخطة وأقسامها، ثم يجمع بينها، وكان يعمل على أن تكون متناسقة وغير متضاربة في بعض من أركانها بسبب الكتابة المنفصلة غير المتسلسلة، وفي أوقات متباعدة، ونحن لاحظنا بوضوح أنَّه لم يستقر على تسمية واحدة لملكة قرطاجة، وكذلك تردد بين تسميات: قرطاجة وصور وصيدون وفينيقيا وليبيا... ذكرها جميعاً من غير تمييز في زوايا لكل تسمية، وعرفنا أن رغبة الإمبراطور أغسطس هي التي حتَّمت نشر هذا العمل بعد موت فيرجيل. إننا نعمل على توضيح الاضطراب في النظر إلى ديدو/أليسا في عمل فيرجيل، فهو لم يستطع التنسيق بين جزأين مختلفين في علاقة آينياس وديدو، لقد كان لديه هدف لم يتحقق بشكل مقنع، ونحن نعرف من خلال الدراسات التاريخية أن مرور آينياس بقرطاجة لم يكن في أصل حكاية رحلته، وحدث أن أضافه بعض المؤلفين القدامى، وبعد ذلك أضاف فيرجيل قصة الحبِّ بين الأمير الطروادي وملكة قرطاجة، ونعاود السؤال لماذا أضاف الشاعر وجاء بهذا الجزء إلى الرحلة، ولو لم يكن لتمَّتْ رحلة الكفاح والعناء عبر المصاعب والمعارك والوصول في النهاية إلى الهدف؟

في مراجعتنا للسياق التاريخي يتكشَّف الصراع بين روما وقرطاجة الذي شهد سنوات طوالاً من الحروب العاتية التي كان في بعضها حصار هانيبال لروما ثلاثة عشر عاماً، وبهذا نبحث عن آثار هذه الخصومة في الإنيادة وتحديداً في العلاقة بين الشخصيتين الرئيستين آينياس وأليسا/ ديدو، وهذه مفتاح الهدف الكبير من هذا العمل الأدبي السياسي.

كان التقابل بين الحديث عن آينياس الطروادي والممثل المعبِّر عن روما والرومان، والكلام على ديدو/أليسا التي تمثِّل قرطاجة والقرطاجيين، يظهر فروقاً ترجِّح كفَّة هذا الآتي من بعيد:

إنَّ آينياس في الإنيادة سليل الآلهة من طرف أمِّه فينوس، ابنة جوبيتر، وكان تقيَّاً ورعاً، ومقاتلاً فارساً خاض الحروب، واستطاع الخروج من قلب الدمار مع مجموعة من قومه ليحقق ولادة أمة جديدة، وهو وفيٌّ ومخلص حمل معه أباه أنخسيس العاجز على كتفيه، وغامر بين النيران لينقذ زوجته كريوسا وابنه أيولوس في طروادة، وقد تعالى على هيمنة عواطفه، فترك الحبَّ الغامر في قرطاجة وواصل رحلته نحو الهدف في إيطاليا.

أمَّـا ديدو/أليسا فهي ملكـة لكنها ابنة البشر جاءت من مدينة صـور، وتقرن بأخيها الذي ارتكـب جريمـة القتـل والغدر، ويسيطـر عليه الطمـع، ورغم مـا يذكره فيرجيل عـن جمالها وأعمالهـا في قرطاجة بنـاءً وعدالةً لشعبها فهي تسقط وتتخلَّى عن قيـم الوفاء لزوجها الذي اغتيـل، وتهمل كـلَّ شيء فتتوقف كل الأنشطة، وهي تهيم حبًّاً بهـذا القادم، ثم تتهاوى وتنتحر عند مغادرة آينياس، وتكثر في الإنيادة الصفات السلبية مع ذكر ديدو:

* «كانت الفينيقية المسكينة المسوقة إلى مصير مهلك».
* «غير مدركة- مسكينة ديدو أيَّ إله يستقرُّ بداخلها ليكون سبب شقائها».
* «أمَّا ديدو التعسة فقد كانت بدورها تطيل الليل بأحاديث متنوّعة».
* «إنَّ ديدو التعسة تحترق، وتهيم على وجهها مخبولة في جميع أنحاء المدينة».
* «إنَّ آينياس وديدو بالغة التعاسة».
* «فلم تعد ديدو الآن تأبه بمظهرها ولا بسمعتها».
* «فانتابها الغضب وسيطر عليها الجنون، وأخذت تهيم على وجهها».
* «كانـت تتفحَّصه منذ البداية بنظرات متبلِّدة، تـدور عيناها هنا وهناك، وتجوس خلال شخصه كله بنظرات صامتة...»[٣٤].

لماذا يريد فيرجيل لملكة قرطاجة أن تنهار على هذه الحالة؟ ينكشف الجواب في أنه يريد أن يسقـط مشروع قرطاجة في الازدهـار برمزية هذه النهاية البائسـة، وهي النهاية الطبيعة التـي يراهـا لقرطاجة عندما تعلو، ولا تلبث أن تنهار ولنتابع الأحـداث: إننا نجد الربَّة فينوس راعيـة طـروادة وأم آينياس تسلِّط ابنها كيوبيد إلـه الحب لإشعال النار في قلـب ديدو لتتعلَّق بحـب هذا القادم الطـروادي الفريد فلا تفلت منـه، وهذا ما ينجزه فعـلاً وتظهر الملكة وقد غابـت الدنيا فلا تـرى إلا هذا الرجل الوسيـم والقوي، ولكن ترفض هذه الربَّـة أن تربط بين المحبَّيْـن صيغةُ الزواج الـذي تسعى إليه الربّة جونو، لأنَّ هذا الارتبـاط يخفي رغبة جونو في أن تضـم الكيـان الذي سيقوم في إيطاليا مـع ابنها آينياس إلى قرطاجـة حيث تتصدر ديدو، وتستولـي على السلطة، ونجد فينوس تطلـق فاما الربة ناقلة الشائعات، ليعلم الجميع بالعلاقة الخاطئة بين آينياس وديدو، فلم يكن ما بينهما زواجاً كما تتوهم هذه الغارقة في الحبِّ!! وإن جـولات الصراع بين هاتين الربَّتين إنما تمثل صراع الرومان ضدَّ القرطاجيين الذين يريدون السيطرة وإخضاع الآخريـن لسلطتهم واستغلالهم[٣٥]. وسجَّل فيرجيل من خلال غضب ديدو مـن آينياس السبب الذي جعل أجيال القرطاجيين يكرهـون الرومان، وبهذا تكون روما راغبة في السلام وقرطاجة هي الرافضة له!

لقد كان تصوير العلاقة بين آينياس وديدو ملكة قرطاج انعكاساً لأحداث معاصرة لزمن فيرجيل، فقد استحضر إلى الإنيادة بحيلة فنية الأجواء التاريخية القديمة في القرن التاسع قبل الميلاد، من خلال الأحداث التي وقعت إبان حكم أغسطس في القرن الأول قبل الميلاد، فمن خلال درع حربي أهدته الربة فينوس إلى آينياس ظهرت مشاهد نقشت عليه، وفيها نبوءات بما سيكون في بلاد الرومان مع أحفاده.

صوَّر واحد من المشاهد على هذا الدرع الصراع بين جيش أكتافيوس أغسطس وجيش كليوبترا وأنطونيوس، وما كان من انتصار وقضاء على الخصمين في معركة أكتيوم البحرية قرب الإسكندرية؛ ثم عودة مظفرة إلى روما، وفي هذا العرض تبدو عناصر وآثار سياسية رومانية، ونظرة رومانية متعالية، فقد كانوا يأنفون من أن تكون امرأة أجنبية –ولو كانت الملكة كليوبترا– زوجة لقائد روماني، وهلَّلوا لموتها منتحرة، وهذا ما نراه في تصوير ديدو وهي تطعن نفسها بأن تتكئ على السيف القاتل، وبهذا نجد إحكاماً واضحاً ليتشكَّل تصوُّر موازٍ تكون القرطاجية هي التي تتبع الرجل الطروادي/ رمز الرومان، وتترك كل شيء، ويريد فيرجيل أن يمحو صورة مارك أنطونيوس الروماني خاضعاً لهوى كليوبترا مهملاً القيم الرومانية، وفي نهاية هذه الحكاية كان أغسطس هو المنتصر يقيم دعائم الإمبراطورية مثلما كان لآينياس.

ويظهر الاستعلاء في عبارات فيرجيل: «وهناك ترى أنطونيوس تسانده مساعدات أجنبية، وقوات متباينة، جلبها بعد انتصاراته من شعوب أوروبا والشاطئ الأحمر، وحمل في ركابه مصر والقوات الشرقية وأقاصي باكترا، وتتبعه –يا للعار– زوجة مصرية»[٢٦]. ونجد النظرة العدائية لكل الشرقيين الذين تواجههم روما كتلة واحدة، وهنا لا تبتعد صورة القرطاجيين الذين ينتسبون إلى أرض كنعان: «... ولمَّا رأى أبوللون أكتيوس من عليائه تلك الأحداث التقط قوسه... عندئذٍ ولَّى الأدبار خوفاً منه جميعُ المصريين وكلُّ العرب وجميع أهل سبأ، وشوهدت الملكة وهي تنادي الرياح وتفرد الأشرعة بنفسها، وتترك العنان في التوِّ واللحظة لحبال السفن السائبة. لقد صوَّرها إله النار وسط المذبحة شاحبة الوجه خوفاً من شبح الموت...»[٢٧].

تضمنت الإنيادة شخصية امرأة قادت جيشها واقتحمت ساحات المعارك في إيطاليا ضدَّ جيش آينياس... إنها الملكة الفارسة العذراء كاميلا، ورغم قدراتها البارعة في القتال فإنّ فيرجيل أراد أن يكسر صورة المرأة الأجنبية مهما تكن قدراتها في مقابل القائد الروماني، وهكذا كان الموت في المعركة موعداً لنهاية هذه الملكة المعاندة[٢٨]، وهذه الحالة تؤكِّد قصدية تقول: لم يكن لملكة قرطاجة أن تبقى، وقد خسرت العنفوان والأنفة والكبرياء قبل أن تنتهي إلى فنائها المادي، ولن تذكر الأجيال إلا هذا المصير الخاسر الذي لا يصمد ليرتقي إلى مصاف القدوة والمثال.

٣- الهجوم على تاريخ قرطاجة ونشأتها:

إننا قبل أن نناقش ما جاء لدى فيرجيل عن نشأة قرطاجة نتأمل السياق التاريخي. لقد كُتبت الإنيادة (٢٩- ١٩ق.م) بعد أكثر من قرن من القضاء على قرطاجة (١٤٦ق.م)، وقد عرفنا البطش الروماني وإرهابه اللذين دمَّرا كل شيء، ومن أكثر الأشياء خطورة في نظر الرومان تاريخ قرطاجة وتراثها الأدبي والفكري والفني، ورغم بقاء بعض الكتب فإنها بلا شك ليست مما يمتُّ إلى هذا بِصِلةٍ، ولعل الكتاب الوحيد الذي بقي هو كتاب الزراعة وتربية الحيوان، وقد أخذ محتواه إلى مصنفات رومانية، وكان ضمن الخطة المدمرة إتلاف كل المدونات في أي موقع في المدن الفينيقية أو الإغريقية أو النوميدية، وهكذا لم ينقل إلينا أي كتاب لمؤلف قرطاجي أو فينيقي عن نشأة قرطاجة، وكذلك اختفت النقوش الكتابية أو الصور الدالة على ذلك؛ وقد ذكر باحثون أن أليسا/ عليسة رُفعت إلى مصاف القداسة في قرطاجة، ولا شك كان بعض تماثيلها مع النقوش في المعابد، وفي بعض قصور الأسر الشهيرة التي توارثت أجيالها الغنى والحضارة (آل ماغون، وآل برقة...)، أو في بيوت المواطنين المحبين للمعرفة، وإنَّ الكنعانيين كانوا يدوِّنون الكتب والأساطير، ولدينا في أوجاريت (١٥٠٠ ق.م) قبل المرحلة القرطاجية ملاحم وأناشيد تصوِّر العقائد والثقافة وتلقي أضواء على التاريخ، ويظهر في نصوصها المكانة الكبيرة للمرأة من خلال رمزية الآلهة: عنة وعشتروت، وشفش-نرة وإيل إشَّة وأثرة يم التي كانت ربَّة صور[٣٩].

ماذا كان لدى فيرجيل بديلاً من تلك الأصول الموثوقة عن قرطاجة؟ لقد كان البديل كتباً دوَّنها رومان أو إغريق، إمَّا إبَّان حروب روما وقرطاجة، ومعظمهم كان يميل إلى روما، بل يرافق الحملات العسكرية، وإمَّا كُتب كثيرة من تلك المدونات بعد دمار قرطاج، وقد ذكر بعض الباحثين أن أقدم مَنْ أورد قصة نشأة قرطاجة هو المؤرخ الإغريقي (تيمايوس) في القرن الثالث قبل الميلاد[٤٠]، ونحن نقف موقف الشكِّ المشروع مما قدَّمه هؤلاء، ولنا أن نقترح ما يكون أقرب إلى الشروط التاريخية والوقائع في صُوَر والمدن الكنعانية والثقافة السائدة فيها.

كانت العبارات في الإنيادة دالة على رأي فيرجيل السلبي الحقيقي في أهل قرطاج رغم ما أورده من سمات تبدو إيجابية، ففي كلامه عن قدوم آينياس ومجموعة من أصحابه على أليسا/ ديدو نقرأ: «وبإرادة الإله يتخلَّى الفينيقيون عن مشاعرهم الوحشية، وفوق ذلك تستقبل الملكة التيوكريين بتفكير هادئ وعاطفة رقيقة» ونسمع كلمات العجوز إليونوس متوجهاً إلى الملكة فهو في البدء يقول: «نتوسَّل إليك ادرئي عن سفننا نيراناً متقدة. أجيري ذرية ورعة...».

ولا يلبث أن يستعلي فيقرِّع حرس الشواطئ قائلاً: «أي سلالة من الناس هذه؟ وأيُّ وطن بربري هذا الذي يسير بتلك العادة؟ لقد رفضوا استضافتنا على الشاطئ، بل أعلنوا الحرب علينا، ومنعونا من أن نلمس حدود أراضيكم. إن كنتم تحتقرون الجنس البشري بالأسلحة الفانية...». وتشرح الملكة الموقف: «فالضرورة القصوى وحداثة عهد مملكتي تدفعانني إلى القيام بمثل هذه الأعمال القاسية وإلى تأمين الحدود بالحراس في كل اتجاه»[٤١].

ونقرأ عبارات فيرجيل التي تتّهم أهل قرطاج الذين تسميهم صوريين وفينيقيين وصيدونيين بلا تمييز كما أشرنا من قبل، ويلقي عليهم ما كان من سمات الرومانيين الذين نقضوا المعاهدات مع قرطاجة: «كانت الكثيرية [فينوس] تهاب المنزل الغامض والصيداويين ذوي اللسانين»، أي الذين يقولون شيئاً ويفعلون غيره خداعاً وغدراً[٤٢]. يختصر فيرجيل تأسيس قرطاجة بأمرين أولهما يتمثَّل بخروج ديدو/ أليسا من صُوَر هاربة بعد أن تفكَّك كيان الأسرة الحاكمة، وفاضَ طغيان بيغماليون أخيها المغتصب للملك، فهو يرتكب جرائم ويقتل أقرب الناس إليه، زوج أخته طمعاً بالأموال، ولا يردعه المعبد وقداسته، ومعه تسقط صور إلى الحضيض، ويغادرها وجوه المجتمع خلسة، والمشهد الثاني هو الوصول إلى موقع مدينة قديمة على الساحل الإفريقي، ثم الحصول على مساحة أرض من السكان الإفريقيين بما يتيحه جلد ثور، وببراعة يُفكَّك بسيور دقيقة لتتسع تلك المساحة. وبهذا يكون فيرجيل جرَّد مشروع التأسيس من هالة الجلال والرؤى الحضارية، وجعل الأمر لا يتجاوز مجموعة هاربة تبحث عن مأوى مستكينة لمن هم على الأرض، تقبل ما يسمحون به.

نتائج حرب الإنيادة الرابعة

لقد كان القصد الرئيس من الإنيادة المقابلة بين تأسيس روما بجهود آينياس وكفاحه وحروبه وعزيمته وورعه وتقواه، وتأسيس قرطاجة محاطاً بالبؤس والاضطراب، ويتأكَّد هذا التوجُّه لدى فيرجيل عندما نلحظ أنَّه لم يبدأ إنشاده لتتسلسل رحلة آينياس، التي تمتد فيها الأحداث ثم يكون المرور بشواطئ قرطاج واحداً من الأحداث، وهو مرور مفتعل -مع إدراكنا أنه غير حقيقي للفارق الزمني التاريخي بين سقوط طروادة وتأسيس قرطاج-لأنَّ المرور بشاطئ صقلية الذي سبق يعني الانتقال إلى الطرف الإيطالي، لا الذهاب في الاتجاه المعاكس إلى الشاطئ الإفريقي. إنَّ فيرجيل منذ البدء وفي السطور الأولى يضع قرطاج أمام القارئ. إنه لم ينتظر بل سارع إلى الكشف عن الهدف العميق من الإنيادة وهو السحق المعنوي لقرطاج وملكتها.

وقد أراد الإمبراطور أغسطس أن يكون هذا في عمل أدبي لأنه الأقرب والأكثر ديمومة

وانتشاراً من كتب المؤرخين التي قد تضيع، وتبعد عن الجمهور العام، ولن تكون لها جاذبية التصوير والتعبير الأسلوبي الجميل، وهذا ما كان عبر العصور الأوروبية ثم العالمية حتى اليوم في الكتب المدرسية؛ وفي الروايات والقصص؛ وفي الأفلام السينمائية؛ وفي لوحات الفنانين التشكيليين ومنحوتاتهم؛ وفي موسوعات الرموز والأساطير في العالم القديم، وظلَّت صورتان ماثلتين من قرطاجة: ديدو الملكة العاشقة التي انتحرت لفقدان الحبيب الهارب منها، وهانيبال الشخصية العسكرية مؤطَّرة بأعمال فذَّة فردية معزولة عن تفاصيل في الصراع الواسع.

صفحات جديدة في تأريخ قرطاجة

إنَّنا سنترك جانباً تصورات كتاب الإغريق والرومان، ونشرع من خلال المعطى التاريخي برسم تصوُّر جديد لتأريخ قرطاجة يتخذ منطلقاً مختلفاً، فنبدأ من المشروع الذي تطور في المدن الكنعانية، وهو إقامة الحواضر بحسب خطوط الملاحة التجارية على سواحل البحر المتوسط على الأقل منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد بدأت مراكز محدودة الإمكانات إلى أن غدت مدناً للتبادل مع المحيط البشري في امتداد المناطق الإفريقية والأوروبية ومع الالتفاف إلى السواحل المطلة على المحيط [الأطلسي] وراء بوابة أعمدة هرقل حتى الجزر البريطانية.

وكان هذا المشروع متنفساً عند اشتداد النفوذ العسكري للآشوريين، والخلافات والمنافسة مع مدن الداخل السوري، وقد حمى الصوريون والصيدونيون وسائر كنعاني الساحل ثرواتهم من نهب الجيوش الطامعة، وحفظوها في قبرص والمدن الكنعانية في البحر سواحل وجزراً في الغرب، وهنا يُفتح فصل مهم لمشروع المدينة الجديدة [قرت حدشت= قرطاجة] بتخطيط محكم ورؤوس أموال وخبرات اقتصادية واجتماعية وسياسية إدارية، ودراية كاملة وواضحة بالأمكنة المناسبة وكل ما يلزم للتعامل مع المحيط البشري، وهذا الإعداد المحكم يفسر كيف استطاعت أليسا/ عليسة الأميرة الصورية تأسيس قرطاجة والنهوض في زمن قصير لتكون مركزاً كنعانياً وقائدة للمدن الأخرى، وترتِّب جيوش الحماية.

ونتابع النظر في الوقائع والحروب والنتاج العلمي والفني، ورغم التدمير فثمة مناهج وأساليب لتكوين الصورة الأقرب إلى الحقيقة، وستساعدنا المكتشفات القرطاجية المتناثرة وكذلك المكتشفات الكنعانية. إنَّنا كَمَن يقف أمام حفريات أثرية يجمع ويغربل التراب ليجد إشارات تتنامى لتكون من دلائل الكشف. وهذا التصوُّر للعمل يحتاج إلى مجموعات عمل تحمل رؤية ثقافية عربية تخرج بعيداً عن العباءة الرومانية المخاتلة.

الهوامش

(١)- فرانسوا ديكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ترجمة: عز الدين أحمد عزو، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٦، ص ١٨٨.

(٢)- فينفريد الليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة: د. عيد مرعي، روافد للثقافة والفنون، دمشق، ٢٠٠٨، ص١٢٥-١٢٦.

(٣)- المرجع السابق نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤)- د. محمود حمُّود، الأضاحي البشرية عند الفينيقيين، مجلة مهد الحضارات، دمشق، ع١٣-١٤، ص١٧-١٩.

(٥)- مونتسيكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص ٥٣.

(٦)- د. إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، ط٢، ١٩٧٨، ج١، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٧)- أندريه إيمار- جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات ٢، روما و إمبراطوريتها، ترجمة: فريد داغرو فؤاد أبو ريحان، دار عويدات، بيروت-باريس، ط٢، ١٩٨٦، ص ٥٧.

(٨)- الشاذلي بورونيه-محمد طاهر، قرطاج البونية، تاريخ حضارة، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص ١٠٩.

(٩)- غوتييه أ.ف.، ماضي شمال إفريقيا، تر:هاشم الحسيني، مؤسسة توالت الثقافية، ٢٠١٠، ص ٢١.

(١٠)- مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاج، ترجمة: إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت-باريس،١٩٨١، ص١٨-١٩.

(١١)- روما وإمبراطوريتها، مرجع سابق، ص ٥٨.

(١٢)- قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، مرجع سابق، ص ١٥.

(١٣)- سيد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضارين، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩١، ص١٥، ود. مصطفى العبادي، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص١٥-١٦.

(١٤)- تاريخ الإمبراطورية الرومانية، مرجع سابق، ص١٠١.

(١٥)- الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري، مرجع سابق، ص ١٨-١٩.

(١٦)- تاريخ الإمبراطورية الرومانية، مرجع سابق، ٥٨.

(١٧)- د. عبد المعطي شعراوي، الإنيادة-المقدمة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ج١، ص ٢٥.

(١٨)- المرجع السابق نفسه، ١، ص ٢٦-٢٧.

(١٩)- د. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١١، ص ٩٤-٩٥.

(٢٠)- المرجع السابق نفسه، ص٩٦.

(٢١)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٤.

(٢٢)- الإمبراطورية الرومانية، عبادي، مرجع سابق، ص١٩.

(٢٣)- التاريخ الروماني، مرجع سابق، ص ١٠٦-١٠٧، وعبد المعطي شعراوي، مرجع سابق، ص٤٨.

(٢٤)- عبد المعطي شعراوي، مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.

(٢٥)- المرجع السابق نفسه، ص ٥١.

(٢٦)- المرجع السابق نفسه، ص٤٨.

(٢٧)- فيرجيليوس، الإنيادة، ترجمة: د. عبد المعطي شعراوي ومجموعة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ج١، ص٨٢.

(٢٨)- المرجع السابق نفسه، ج١، ص ٨٢.

(٢٩)- المرجع السابق نفسه، ج١، ص٨٢.

(٣٠)- المرجع السابق نفسه، ج١، ص٩٨.

(٣١)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص٢٠.

(٣٢)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص٢٠٩.

(٣٣)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص ١٨٨.

(٣٤)- المرجع السابق نفسه، ج١، ص١٠٧، ١٠٨، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٢.

(٣٥)- المرجع السابق نفسه، ج١، ٢٠٤-٢٠٥.

(٣٦)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص١١٩.

(٣٧)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص١٢٠.

(٣٨)- المرجع السابق نفسه، ج٢، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٣٩)- ملحمة بعل (نصوص من أوجاريت)، ترجمة: د. علي أبو عساف، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٨، ص ٤٧-١١٩، ١٦١.

(٤٠)- قرطاجة، الليغر، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٤١)- الإنيادة، مرجع سابق، ص١٠٠-١٠٢.

(٤٢)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٥.

* * *

الخطاب الغنائي

- عابرون في الغياب — محمود حامد
- تراتيل في حضرتها — علي جمعة الكعود

الخطاب السردي

- الكشكول — قصة طاغور
ترجمة : د. منذر عبسي

عابرون في الغياب

محمود حامد

من أنتَ؟! قلتُ: أنا؟!
سماءٌ لا حدودَ لها،
وأرضٌ لا وجودَ لها،
وطيرٌ عابرٌ هذا الزمانْ!

وسياجُ حلمٍ أشعلته الذكرياتُ على أسى
أيدٍ تلوحُ في الغيابِ،
طوته تحت جناحها
ريحُ الأحبةِ رعشةً من أقحوانْ.

* لوحة للفنان إسماعيل الهولو.

من أنتَ؟! طيرٌ عابرٌ
حملَ البلادَ بمقلتيه، وحيث طافَ
مضى هواه لعشبها
وسرى رفيفُ النبضِ عبر ترابها.
وطنٌ بلا وطنٍ
وحلمٌ من دخانْ
وخطاً تمرّ بلا جهاتٍ
والجهات بلا أمانْ
وغدٌ يجيءُ، ولا يجيءُ، وشرفةٌ
تمشي إلى أحبابها
تعبت على شباك غربتها تلوّحُ
بابتساماتٍ، وشالٍ
عابرٍ في الريح ... مرّ
فلا خطاه خطا الذين تحبهم أبداً، ولا
في العابرين من النسيم المشتهى
ما هَلّ في غيّابها
حتى إذا ... ملت أساها،
وانتظار الغائبين على المفارق، أسلمت
للبوح دمعتها، وراحت
ترسم الآتين حلماً من بهاء الأمنياتِ،
وقد تجلى فيض أقمار على أهدابها!
***
مروا... ولكن! لم نكن،
لم تلتقِ الخطواتُ:
كانوا عابرين،
ونحن كنا غائبين
لكننا
كنا نرى خطواتهم
في ذلك الفيض البهيّ من البنفسجِ
يملأ الدربَ الذي نمشي عليه،
ويملأ الوطن الذي نمضي إليه، كلما
لاحت على الأسلاك
أيديهم ملوحةَ
وتَـشْرَقُ بالمواعيدِ الرسائلُ
كان دمع الوجد يغرقنا
ونحلم بالذين نحبهم
في العابرينْ!
***
كان الطريق دماً يضيءُ...
وياسمينْ
كان الطريق أحبةً...،
كنا نرى أحبابنا:
في نسمةٍ تأتي، وطيرٍ عابرٍ
يلقي تحية عاشقيه لمن يحبّ،
ورعشةٍ تسري بنا كالشهدِ
تطفئ جمر لهفتنا، ونحن
على السياجاتِ الحزينةِ
بانتظارِ القادمين
لكنهم...
كانوا على الأسلاكِ
غير من انتظرنا في الأحبة عابرين،
ونحن كنا... آخَرين؟!
من أنتَ؟! قلت:
لعل ينطق ياسمين الروح عني،

أو يؤولني هوايْ؟!
وكأن ما بي شفّ.. أوحى
للنسيم بما يبوح، وعللت
ما كنت أخفي مقلتايْ!
وسرى رفيف أصابعي بيديكِ،
فارتعشت على البوح الأصابعُ، كلما
أوغلتُ في عشقي إليك... تفجرت
بجنون صبوتها يدايْ
وهتفت، علّ أراك في صوتي؟!
يردك في صدايْ؟!

لا أنتِ جئتِ، ولا أنا
أكملت، يا يافا، خطايْ!
غصّ الطريقُ على أساك
وكاد يشهقُ من أسايْ
لكنني...
أرأيت ما يوحى لسنبلة لتنهضِ
ما استقام على ثراها عودُها،
إلا وخلتُ بكبرِ قامتها
صبايْ؟!

* * *

تراتيل في حضرتها

علي جمعة الكعود

على شفتيها الياسمينُ يعرّشُ
دمشقُ التي بالطّلِّ يغسلُ صبحُها

فإنْ قبّلتْها الشمسُ، عطرٌ يُرشرَشُ
قبابَ بيوتٍ بالبنفسجِ تُفرَشُ

وإنْ فتحتْ في الجيْدِ أزرارَ فتنةٍ
تبوحُ لعشّاقٍ بأسرارِ حسنها

يلوْحُ إجاصٌ في الجوارِ ومشمشُ
وتاريخُها للفاتحينَ يوشوشُ

ويرنو إليها قاسيونُ كعاشقٍ
وفي بردى ماءٌ لها يتعطّشُ

فكم سائحٍ وافى دمشقَ بروحه
وكم شاعرٍ صادٍ بها يتحرّشُ

تفكُّ إذا الأشواقُ جُنّتْ ضفائراً
وفي غفلةٍ عن عاذليها تدردشُ

تطلُّ على الأكوانِ من شرفةِ الرؤى
فتسبي قلوبَ الناظرينَ وتُدهِشُ

بمرودِ أحلامٍ يرصّعها الهوى
وشوماً على جيْدِ الزمانِ وينقشُ

وتغزلُ نورَ الشمسِ ملء جمالها
قُبيلَ الضحى حيناً، وحيناً تهمّشُ

هوىً أمويٌّ يستبيحُ مدينةً
بذاكرة الأجيالِ ظلّتْ تعشّشُ

يهيمُ بها طفلٌ تنمّرَ جائعاً
على صدرِ أمٍّ راحَ يبكي ويجهشُ

وعزباءُ رامتْ أن تبوحَ بعشقها
فباتتْ عن الأختِ الرؤومِ تفتّشُ

ورسّامةٌ أنثى دمشقيّةُ الهوى
على ورقِ الجدرانِ أمستْ تخربشُ

وفي الغوطة الغنّاءِ طيرٌ يحبُّها
وقطٌّ على النارنجِ راحَ يعربشُ

دمشقُ التي أضفتْ على الأرضِ فتنةً
إذا رمقتْها العينُ كيف سترمشُ

نسائمها للحالمينَ عليلةٌ
تلامسُ أرواحَ الأنامِ وتنعشُ

أذوبُ هياماً في ربوعِ جنونها
كما ذابَ يوماً بالهيامِ المُرقَّشُ

وأكتبُ شِعراً تستحمُّ بعطرِه
دمشقُ التي بالياسمينِ تُعَرّشُ

حفيدُ نزارٍ، وارثُ العشقِ بعدهُ
إذا مُسَّ قلبي بالعذوبةِ يرعُشُ

* * *

الكشكول

قصة قصيرة للكاتب الهندي طاغور

ترجمة : د. منذر عبسي

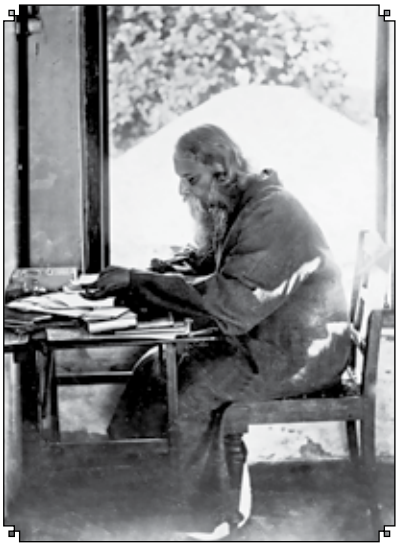

حالما تَعلَّمت (أَمَه) الكتّابة أخذت المتاعب تأتيها تباعـاً. كانت تكتب بقطعة من الفحـم على كل جدار من جـدران البيت بخـط طفولي كبيـر الانحناءات: «ينهمر المطر فترفرف أوراق الأشجار». وقعت يدها علـى نسخة من روايـة «مغامرات هارديـس السرية» التـي كانـت زوجة أخيهـا الأكبـر تحتفـظ بها تحت وسادتهـا، فكتبـت بقلم من الرصاص: «مياه سوداء وأزهار حمراء». كانت تكتب على كل شيء حتى أوراق التقويـم «الروزنامة» التي كـان يقرؤها الجميع، فقد طُمِست معظم رسومات الكواكب والنجوم فيها بسبب خربشاتها الكثيرة عليها.

وحتى دفتـر حسابات أبيها اليوميـة لم يسلم من شخبطاتهـا، إذ كانت تكتب وسـط قوائم الحسابات:

«إن من يتقن القراءة والكتابة يكون قادراً على قيادة حصان وعربة».

حتـى تاريخه لـم يقاطع أحد محاولات أُمَه الأدبية، ولكن المتاعـب سرعان ما بدأت تنهال علـى رأسها، فأخو (أَمَه) الأكبر (غوبنيـدالال) كان كريم الوجه، طلق المحيّا، يكتب للجرائد

علـى نحـو دائم، بيد أن أيّـاً من أقاربه ممـن كان يقرأ كتاباتـه لم يظن أنه كـان مفكراً. وفي الحقيقـة لـم يكن لأحد أن يتهمه اتهام حق بأنه كـان يفكر في أي موضوع يكتبه، ومع ذلك كان يكتب، وكانت آراؤه تنسجم مع معظم القراء في البنغال. فعلى سبيل المثال، كتب مؤخراً مقالاً ذاع صيتـه، ليس بسبب المنطق والبيان، بل بسبـب روح الهجوم وحذوة اللغة التي كتب المقال فيهـا. كـان المقال فـي التشريح، عبّر فيه عن أفكـار جدّية، ولكنها زائفة مما كـان سائداً في العلـوم الأوروبيـة. وخلال فترة، بُعَيد الظهـر، أمسكت (أُمَه) بقلم أخيهـا والدواة وكتبت على المقال بالأحرف العريضة:

يا لحُسن كوبال الصغير!

تراه يلتهم كل ما تقع عليه يداه[1].

لا أظن أنها كانت تريد ضرب المعول في مقال (غوبيندالال)، ولكنه سرعان ما هاج وماج، فقام بصفعها أولاً، ثم صادرَ مشكاة أقلام رصاصها وقلم حبرها مدبب الرأس، وجميع الأوراق التـي كانـت كتبتها وجمعتها بكل حرص وعناية. لم تفهم الطفلـة الصغيرة سبب هذه الإهانة، فخلدت إلى ركن البيت وأخذت تنتحب بالبكاء الشديد.

ولـمّـا انتهـت عقوبتهـا لان قلب أخيها قليـلاً، فأعاد لهـا أشياءها المصـادرة وحاول جبر خاطرها بأن أعطاها دفتر مذكرات مسطراً ومجلّداً تجليداً جميلاً.

كانـت (أُمَه) في السابعة مـن عمرها حينئذ، ومنذ ذلك الوقت وهـي تحتفظ بهذا الدفتر تحت وسادتها كل ليلة، وخلال النهار في حضنها أو تحت إبطها. وكلما ذهبت بشعرها المجدول بصحبة الخادمة إلى مدرسة البنات كانت تأخذ دفتر المذكرات معها أيضاً. بعض الفتيات كنّ يسألنها عن الكتاب، أخريات كنَّ يشتهين لو كنَّ يملكنَّ مثله، وبعضهن الآخر كنَّ يحسدنها عليه.

فـي العام الأول من اقتنائها الدفتر كانت تقتبس وبكل أناقة قصيدة للشاعر (مادانموهان تاركالانكـار): «**الطيـور تغني، الليل ينجلي**»، وكان من عادتهـا أن تجلس على الأرض في غرفة نومها وهي تعانق دفتر تمريناتها، وتنشد بأعلى صوتها وتكتب، مكملة بهذا العديد من المقاطع النثرية والمقتطفات الشعرية.

وفي العام الثاني بدأت تكتب أشياء من تأليفها، أشياء قصيرة ولكنها محكمة ورائعة ولكن مـن دون مقدمات وخواتيم. فعلى سبيل المثال في نهايـة قصة «النمر واللّقلق» أضافت سطراً إلى القصة لا يمكن أن يُوجَد مثله في الأدب البنغالي وهو: «أحب (ياشي) حباً جمَّاً».

أرجو ألَّا يحسب أحد أنني كنت على وشك أن أؤلف قصة غرام! فـ(ياشي) لم يكن ولداً من الحي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، بل امرأة مسنة في الحي تخدم في البيوت،

واسمها الحقيقي كان (ياشود)، بيد أن هذه الجملة يجب ألّا تؤخذ على أنها الدليل القاطع على مشاعر (أُمَه) تجاهها، فأيُّ أحد يريد أن يكتب وصفاً صادقاً عن المسألة كان سيجد بأن تلك الجملة كانت تتناقض مع جملة أخرى مكتوبة في الصفحتين التاليتين في دفتر التمرينات.

ولم يكن هذا مثالاً عابراً فحسب، بل كان هناك تناقضات صارخة في كتابات (أُمَه) في كل مرحلة من مراحل كتابتها. ففي إحدى الأماكن من كتابتها يمكن للمرء أن يقرأ عن علاقتها الطويلة مع من كانت تدعوها (هاري) واسمها الحقيقي هو (هاريداشي)، وبعد العديد من الأسطر التالية يتبين لك أنها لم تحب أحداً في حياتها كما أحبت (هاري) هذه.

وفي السنة التالية، لمّا كانت (أُمَه) في التاسعة من عمرها، ذات صباح بدأت الموسيقا تُعزف. لقد كان يوم زفافها. كان العريس يُدعى (بياريموهان)، وكان صديقاً لأخيها وكاتباً مثله. وعلى الرغم من أنه كان مايزال يافعاً وحصل على بعض التعليم، فإذّ الأفكار الحديثة لم تطرق بابه البتة، ولذلك كان يعدُّ محبوب الحي، وكان (غوبيندالال) قد تبنّاه على أنه مثال يحتذى، ولكن من دون نجاح كبير.

ارتدت (أُمَه) ساري البينارس وغُطّي وجها الصغير بوشاح ثم توجهت إلى بيت حميها. توجهت أمها إليها بالقول: «افعلي ما تأمرك به حماتك يا عزيزتي قومي بأعمال المنزل، ولا تضيعي وقتك في القراءة أو الكتابة». وقال لها أخوها: «انتبهي! ولا تقومي بالخربشة على الجدران، فالمكان لا يحتمل مثل هذا، وتذكري بألّا تحطّي من قدر أيّ من كتابات (بياريموهان)».

رجف قلب (أُمَه)، فقد أدركت أنه لن يكون هناك رحمة في البيت الذي كانت ذاهبة إليه وأن عليها أن تتعلم قواعد ذلك البيت بالتأنيب والتوبيخ.

ثم صدر صوت العازف من جديد، ولكني أشك في أن أيّاً من جمهور المحتشدين الضيوف فَهِمَ ما كان يدور في خَلَدِ الفتاة ومن خلف وشاحها ولباسها الساري وزينتها.

صحبتها (ياشي) من البداية، وكان من المفترض أن ترافقها حتى تستقر في بيت حميها ثم تتركها هناك. وبكل حنو ورقة حملت (ياشي) صاحبة القلب الطيب دفتر المذكرات معها لها. لقد كان الدفتر أحد القطع الثمينة التي جاءت بها من بيت أهلها، دفتر ذكريات عن الحياة القصيرة التي عاشتها في بيت ذويها ومسقط رأسها. كان سجلاً مختصراً لمجمل عواطف أمها وأبيها كُتِب بأحرف طفولية ذات دوائر. أعطاها دفتر المذكرات ذلك – في خضم واجباتها المنزلية في مسكنها الجديد وأعباء ذلك المنزل التي تجشمتها في سن مبكرة جداً – نكهة حرّية تعزُّ على قلب كل طفل في مثل سنّها والتي هي حقها الطبيعي.

فـي الأيـام الأولى من وجودها في بيـت حميها لم تكتب أي شيء البتـة، وذلك لأنه لم يكن لديها الوقت لذلك أصلاً.

ولكـن مـع الوقت الذي حان فيه لـ(ياشي) أن تعود إليها، وفي ذلك اليوم الذي غادرت فيه، أغلقـت (أمَـه) باب غرفة نومها في منتصـف النهار وأخرجت دفتـر تمريناتها من صندوقها المعدني وكتبت بعد أن اغرورقت الدموع في عينيها:

«ها قد غادرت (ياشي) البيت

ولابد لي أن أعود أنا لأمي أيضاً»

لـم يعد لديها وقت الفراغ كي تنسخ نصوصاً من كتاب **القراءة السهلة** أو كتاب **فجر الفهم**، بـل لـم تعد لديها الرغبة الجارفة في القيام بذلك. كما أنه لم يعد هناك نصوصٌ طويلة تقسّم كتاباتها الطفولية الخاصة. فأسفل الجملة أعلاه كتبت ما يلي:

«ألا ليت أبي قادر على أن يعيدني إلى بيتنا من جديد

أقسم ألّا أعبث بدفتر حساباته أو أكتب على أي شيء في البيت».

وفـي الحقيقة، فـإن أباها كان قد حاول غير مـرة دعوتها إلى بيته ولو مـدةً قصيرة ولكن أخاها وزوجها حالا دون ذلك، إذ قال أخوها غوبندالال: إنه آن الأوان لها أن تتعلم واجباتها نحو زوجهـا، وإذا ما أُعيدت إلى جو العواطف القديـم، فإن ذلك سيحول من سبل تعلمها واجباتها الزوجيـة، وكتب مقالاً حاذقاً حول الموضوع مما يعجب القراء من أمثاله دون غيرهم. لم تأبه (أُمَه) بكل ما كان يجري وكتبت في دفتر تمريناتها:

«أبي أرجوك أرجعني إلى البيت ولو مرة واحدة – أعدك بألّا أزعجك أبداً».

وفـي إحـدى الأيام كانت فـي غرفتها فأغلقت البـاب وأخرجت الدفتر وأخـذت تكتب دون هدف. كان لديها ابنة حمو تدعى «تلاكمانجاري» وكانت شديدة الفضول. قررت هذه أن تعرف مـاذا تفعل (أُمَه) داخل غرفتها خلف بابها المغلق. ولـمّـا استرقت النظر عبر شق الباب رأت (أُمَـه) وهي تكتب. أصيبـت بالدهشة، جاءت أختها الأصغر واختلسـت النظر أيضاً ثم تبعتها أختهمـا الصغـرى التي وقفت علـى رؤوس أصابعها كي تبصبص على ما كـان يدور من أسرار داخل تلك الغرفة.

وبينما كانت (أُمَه) تكتب سمعت على حين غرة تمتمات فتيات مألوفة خارج غرفتها. وبعد أن أدركت ما الذي كان يحدث أغلقت دفتر المذكرات على عجل وأعادته إلى صندوقه ثم دسّت وجهها في ملاءة السرير.

انزعج زوجها (بياريموهان) لمّا علم بالقصة. فعلى حد زعمه إذا ما بدأت الكتابة والقراءة ستكتب المسرحية أو الرواية، وهذا بدوره سوف يقود إلى تعريض الشؤون المنزلية إلى الخطر. وكان كلما يثير قصة ذلك الموضوع يخرج بنظرية فكرية خارقة مثل قوله إن الزواج الكامل هو نتاج اتحاد بين قوّتين هما الذكر والأنثى، ولكن إذا ما ضَعُفت قوة المرأة عبر تعليمها فإن سلطة الذّكر سوف تكون هي المسيطرة دون أي سبب، وإنّ الصراع بين الذكر والذكر سوف يكون مدمراً للزواج، ثـمَّ سوف يكون هناك الكثير من المطلّقات. كانت تلك هي نظرتيه التي لم يستطع أحد أن يماريه فيها.

تلك الليلة جاء (بياريموهان) إلى غرفة (أُمَه) وأنَّبها ووبّخها وسخر منها أيضاً؛ قال لها: «إذن، تريد زوجتي أن تذهب يوماً ما إلى المكتب وقد وضعت قلماً خلف أذنها؟» وتابع الحديث معها وهو يؤنبها بمصطلحات جاء بها من فيض كتاباته. شعرت بالأسى الشديد وتمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها.

توقفت بعد ذلك عن الكتابة مدةً طويلة، ولكن في إحدى صباحات الخريف سمعت صوت متسولة وهي تغني أغنية جميلة. شنَّفت أذنيها وأنصتت بهدوء وهي تضع ذقنها على قضبان النافذة. جلبت لها شمس الخريف العديد من ذكريات الطفولة الجميلة، وكانت تلك الأغنية مما أثار الشجن في نفسها.

لم تكن تغني؛ بيد أنها منذ أن تعلمت الكتابة دأبت أن تكتب الأغاني؛ وذلك كي تعوض عن ذلك الجانب من عدم القدرة على الغناء. وهذه هي الأغنية التي كانت تلك المرأة المتسولة تغنيها:

يقول الناس لوالدة (أُمَه)

«كوكبك المفقود ها قد عاد»

تركض الملكة بكل جنون وهي تبكي وتقول:

«أين (أُمَه) أفيدوني! ها قد غادرت محبوبتي (أُمَه)

تعالي يا محبوبتي، دعيني أضمك إلى صدري»

فتحت ذراعيها وعانقت أمها

وتعاتب (أُمَه) والدتها والألم يعتمل في قلبها:

«لمَ -يا أمي- لم ترسلي أبي كي يأتي بي إليكم».

وبحدة الألم نفسها اغرورقت عينا (أُمَه) بالدموع. نادت على المغنية بعصبية، أغلقت باب غرفتها، ثم بدأت بإعادة كتابة تلك القصيدة بطريقة غريبة في دفتر تمريناتها.

شاهدت ذلك بنات حميها الثلاث عبر شقوق الباب، وثم أخذن يصفّقن بأيديهم ويصرخن.

فتحت (أُمَه) الباب وقالت في يأس كبير: «أخواتي! من فضلكن لا تخبرن أحداً. أرجوكن! لن أعيدها ثانية، لن أكتب بعد اليوم، ثم لاحظت أن عين الأخت الكبيرة كانت على الدفتر فهرعت نحوه وأمسكت به ثم ضمته إلى صدرها. حاولت الأخوات أن يخطفن الكتاب، ولمّا أخفقن في ذلك، نادت الأخت الصغرى لأخيها. جاء (بياريموهان) الزوج وجلس على حافة السرير وهو واجم. قال وصوته يرعد «أعطني دفتر المذكرات ذاك». ولمّا لم يُطَع أمره، زمجر بصوت أشد حدة قائلاً أعطني إياه.

ضمت الفتاة المسكينة الدفتر إلى صدرها ونظرت إلى زوجها بعين التوسل، ولكنها لمّا شاهدت أنه كان على وشك أن يخلّصها إياه بالقوة، ألقت به على الأرض وغطت وجهها بيديها ثم سقطت على الأرض.

التقط (بيارِيموهان) دفتر المذكرات وأخذ يقرأ بصوت عالٍ بعضاً من كتابات طفولتها. وبينما كانت (أَمَه) تسمع تمنت لو أنِ الأرض تنشق فتبتلعها، فيِ حين راحت الأخوات الثلاث يقهقهن من الضحك. لم يُعد دفتر (أَمَه) إليها قطّ. كان لزوجها دفتر مذكرات أيضاً، وكان مملوءاً بمقالات تفيض من الحكمة التي كان يتجشَّأها، ولكن لم يكن هناك أحد على قدرٍ من الشهامة أن يخطف دفتره من يده ويتلفه.

الهوامش

(١)- كوبال: هو اسم لإحدى شخصيتين كانتا تردان في مقالات كتبها أرشفاتشاندرا فيدياساغار الذي كان أحد أعمدة الإصلاح التعليمي والاجتماعي في القرن التاسع عشر، وكان عميداً لكلية السنسكريت في كالكتا.

* * *

آفاق المعرفة

- استخدام السينما في نكبة فلسطين — د. سيد علي إسماعيل
- الأدب الرافديني القديم — تأليف: جوشوا ج. مارك
  ترجمة: محمد الدنيا
- آخر حرائق الحكم المطلق — تأليف: بيير إيف بوربير
  ترجمة: د. محمد أحمد طجو
- التّطوّر التاريخي لرمز الهلال — د. هيفين محمّد
- الوسائل البديلة لتسوية المنازعات في الفقه الوضعيّ المعاصر — فريد أمعضشو
- سلوى بكر — بدران المخلف

استخدام السينما في نكبة فلسطين

تأليف: د. سيد علي إسماعيل *

حدثت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، لمّا احتلت مجموعة من العصابات الصهيونية دولة فلسطين العربية بمساعدة إنكلترا والصهيونية العالمية! وهذا أمر معروف لا جديد فيه، ولكن السؤال الذي أطرحه في هذا البحث: كيف تقبلت شعوب العالم هذا الأمر حينها؟! الحقيقة أن الصهاينة فطنوا إلى أهمية السينما وانتشارها وأثرها الفاعل في عقول الشعوب ووجدانها، بوصفها وسيلة ترفيهية مبتكرة، هذا بالإضافة إلى كونها وسيلة ثقافية سهلة يتعلم منها ويتأثر فيها الأمي قبل المتعلم، إذ إنها متاحة ومنتشرة وغير مكلفة.

ومن هنا استخدمت الصهيونية السينما، بوصفها إحدى الوسائل، لاحتلال فلسطين من خلال مجموعة أفلام تروج لأكاذيبها، وتحقق أغراضها، وبسبب كثرة هذه الأفلام انتشرت الأكاذيب الصهيونية داخل فلسطين وخارجها، فما إن حدثت النكبة بصورة فجائية وسريعة، تقبلتها الشعوب الغربية حتى لو على مضض - قبل أن تستفيق الشعوب العربية التي اكتشفت أنها أمام أمر واقع فُرض عليها بقوة السلاح والاستعمار! وهكذا نجحت الصهيونية في استخدام الأفلام السينمائية لترويج أكاذيبها لاحتلال فلسطين!! وهذا ما سأحاول إثباته في بحثي هذا معتمداً على الصحف الفلسطينية من (١٩٢٢- ١٩٣٤م).

* مفكر وكاتب مصري.

المعـروف أن وعـد بلفور البغيض عـام ١٩١٧م، كان غرضـه إنشاء وطن قومـي لليهود في فلسطيـن! ما جعل هجـرة يهود أوروبا إلى فلسطين تزداد بصورة كبيرة منذ صدور هذا الوعد! وبعـد ثلاث سنوات أصبحت اللغة العبرية – بجانب العربية – لغة رسمية في الدوائر الحكومية الفلسطينية[١]– التي سيطر عليها الإنكليز؛ وبناء على ذلك بدأ الصهاينة استغلال السينما فـي مخططهم! ففي عام ١٩٢٢م عرضت سينما «صهيون» بالقدس فيلماً أساء إلى رجال الدين المسيحـي، فكتـب «بندلـي إليـاس مشحور» صاحـب جريدة «بيت المقدس» مقالة، جاء فيها:

بيت المقدس
BEYT - UL - MAKDES
JERUSALEM

في سينما صهيون

الحكومة تساعد الصهيونيين على نشر دعوتهم، وتخالف هي نفسها ما تأمر رعيتها بمراعاته. بعثت إلينا الحكومة منذ أشهر تقول ان الصور المتحركة لا تُعرض على الجمهور إلا بعد أن تُعرض على لجنة مراقبة... غير أن الحكومة على ما يظهر لم تعمل بهذا القانون الذي أصدرته، فسينما صهيون تعرض على الناس صوراً تمس عواطف المسيحيين، إذ تنزل رؤساء دينهم منازل فيها ما فيها من التحقير. فعجبنا من ذلك كل العجب وقلنا إما أن تكون الحكومة المحلية حكومة يهودية صرفة لا علاقة لها بإنكلترا المسيحية، وإما أن يكون رجال الحكومة البريطانية أنفسهم ممالئين لليهود إلى حد يسوغون فيه دوس عواطف المسيحيين ليساعدوا اليهود في تنفيذ مآربهم ونشر دعوتهم[٢]!

بعد أقلّ من عام عرضت السينمات – في حيفا والقدس ويافا – فيلماً بعنوان «خمسة أسفار التوراة»، صُوّر في فلسطين ومصر،

وبكلفة عشرة ملايين دولار، ويحكي حكاية الخلق منذ آدم حتى موت موسى الكليم! وكتب «إليان زكا» صاحب جريدة «النفير» مقالة وصف فيها بعض أحداث الفيلم مروجاً له ومشجعاً على مشاهدته، يهمني منها قوله: «لا أظن أحداً يتأخر عن النظر بعينه إبراهيم وابنه إسحق ويعقوب، وكيف باع إخوة يوسف أخاهم إلى المصريين واستبعدوا بني إسرائيل في القطر المصري والبنايات التاريخية التي شادوها. هذه فرصة طيبة لعائلات الذين يودون تدريس أولادهم وقائع التوراة»[٢].

وهذا يعني أن الصهاينة حاولوا ترسيخ أكاذيبهم منذ عام ١٩٢٣، ومن أهمها أن «موسى» هو آخر الأنبياء، وأن اليهود طُرِدوا من مصر بعد بنائهم للبنايات التاريخية - والمقصود «الأهرامات»! - وللأسف فإن هذا الفيلم كان يُستخدم في تدريس التوراة وترسيخها في عقول الأطفال والصغار، ناهيك من تأثيره في الجمهور العادي، كونه فيلماً سينمائياً يُعرض في السينمات العامة!

فيلم فلسطين الجديدة

بعد شهر واحد كشفت الصهيونية عن غرضها الاستعماري - بصورة سافرة - عندما عرضت فيلماً بعنوان «فلسطين الجديدة» أو «الرجوع إلى صهيون»! وعلى الرغم من أن الفيلم عُرض في مصر أولاً، فإن «عيسى العيسى» - صاحب جريدة «فلسطين» - نشر إعلان الفيلم، وهذا نصه: «إذا ما أردت أن تقوم بسياحة غريبة وأنت على مقعدك فليس عليك إلا أن تحضر مشاهد أحياء البلاد التي ارتكبنا جريمة إهمالها مدة ألفي سنة! احضر فيلم «فلسطين الجديدة» أو «الرجوع إلى صهيون» فتعش مدة ساعتين مع طلائعنا الأبطال «الهالونزيم»، الذين يكرسون أرواحهم وأجسامهم ويتحملون بصبر غريب تلك التضحية في سبيل إحياء فلسطين اليهودية، وتقاسمهم حياتهم اليومية منذ نزولهم إلى الشاطئ.. وتراهم كيف يستيقظون من رقادهم ويحملون المعاول على ظهورهم ويتسلقون الجبال الحجرية التي أصبحت بفضل أعمال أيديهم عامرة تحفظ مياه المطر فتعيد إلى تلك الأصقاع المهملة منظرها القديم أيام كان اللبن والعسل يفيضان في أوديتها. تجد على شاطئ بحيرة طبريا أولئك الهالوزيم يفتتون الجبال لإنشاء طريق عربات بين طبريا وسمخ التي أصبحت من أجمل البلاد في فلسطين، ثم انظر إلى البحيرة فتجد ماءها الأزرق والجبال التي تحيط بها تضحك لك وتغازلك ويتدفق منها نهر الأردن الذي يسير بخيلاء فيدهشك بأسراره، ثم ترى القدس تلك المدينة العظيمة

تبـرز أمامك ممنطقـة بالجبال والتلال التي تحيط بها. إنك ستنظـر كثيراً من المشاهد التي تصـور لك أمجاد الماضي كحلم شرقي جميـل، فترى فلسطين القديمة التي أقفرت منذ ألفي عام قد تحولت بفضل الجد اليهودي إلى مثل ما كانت عليه في أيام إبراهيم والأنبياء، يوم كان اليهـود يشعرون أنهم في بيوتهم ويحرثون أراضيهم. تجد بجانب المدن التركية الخربة أحياء عامرة خرجت من أراضٍ صخرية مقفرة، ثم ترى نفسك في بيارات زمارين وأمام كروم عيون قـاره، التي لا يجد الطـرف آخرها، وترى معيشة سكانها ونظافـة شوارعها وتلامذة مدارسها وأولاد اليهـود ينشـؤون على تربة يهودية، ثـم تزور تل أبيب «تل الربيع» هـذه المدينة اليهودية التي خرجت منذ اثنتي عشرة سنة من بين الرمال الموحشة. وبعد ذلك تشهد مؤتمر كاراسباد ذلك المؤتمر التاريخي الذي ضم نخبة اليهود في العالم وتعرض أمام عينيك أعياد المكابيين العظمة اليهودية إلخ»[٤].

هـذا الإعلان لم تنشره الصحيفة الفلسطينية ترويجاً له، بل رفضاً وانتقاداً لما فيه، حيث نشـرت فـي المكان نفسه كلمة بتوقيـع «أبو الحسن»، الذي شاهد الفيلـم ونقل لنا ما فيه! ومن خـلال هـذه الكلمة، علمنا أن أربـاح الفيلم خصِّصـت للمشروعات الصهيونيـة، وبدأ عرضه بالنشيـد الصهيونـي «هاتكفـا» وبعرض بعض أغراض الصهيونية، ثم كلمـة لهرتزل مؤسس الصهيونيـة، ثم مشاهـد لجيش مؤلف من مئات مـن الشبان والشابات ممـن يُعدّون لاكتساح فلسطيـن! ثـم عرضوا مناظر طبريـا ومستعمراتهم فيها وفي كل مكان فـي فلسطين! بل إنهم كانـوا يعرضون صور ما ليس لهم من قطعان الوطنييـن ومزارعهم فكانوا يسبلون على الصور ظلاماً خفيفاً يمنع المتفرج من تمييز الأشخاص فيها ليوهموا الناس أن كل شيء في فلسطين هو يهودي ليس غير. يدلّك على ذلك أنهم عرضوا رسوم الآثار الفلسطينية الرومانية والعربية – بدليـل وجود الحـروف اللاتينية – على بعضها والعربية على بعضهـا الآخر فعرضوها كآثار يهودية»! ويختتم الكاتب كلمته بأن الفيلم ضد فلسطين العربية، وينصح أبناءها قائلاً: «افتحوا عيونكم جيداً يا أبناء فلسطين فالخطر أعظم مما تظنون»[٥].

وللأسـف الشديـد عُرِضَ الفيلم مدَّـة عامين – محققاً غرضـه الصهيوني – وسط انتقاد الصحافـة، فنشرت جريدة «مرآة الشـرق» خبراً قالت فيه: «كانت نتيجة انتقاد الصحف فيلم السينما الذي يمثل مدينة اليهود في فلسطين، ويحطُّ من شأن العرب أن أعلن الدكتور ماركس صانع هذا الفيلم أن غايته لم تكن الحط من شأن العرب في فلسطين وأن هذا الفيلم سيتوقف ولا يعمل به في السينما»[٦].

مخططات صهيونية سينمائية

في عام ١٩٢٨م انتبه «منيف الحسيني» - صاحب جريدة «الجامعة العربية» - لهذا التخطيط الصهيوني السينمائي، فنشر كلمة بعنوان «دعاية اليهود في السينما»، قال فيها: «لا يزال اليهود في يافا وخصوصاً في تل أبيب ينشرون الدعايات ويتوسلون بالوسائل الكثيرة للمطالبة بملكية البُراق الشريف وغيره من الأماكن المقدسة الإسلامية. وقد أخذوا أخيراً يمثلون المناظر المهيجة في سينما «بيت عهام» الصهيوني الذي لم ينشأ إلا للدعاية الصهيونية الدينية، فقد أظهروا أخيراً أحد ملوكهم في حالة النزع الشديد يخاطب أبناءه الثلاثة بقوله: «لا أريد أن أموت وأنا غير مستريح الضمير والبال». وبعد أن جعلهم يُقسِمون على التوراة على أنهم يطيعونه، قال لهم: الآن أموت مستريح البال، وقام فأخرج لهم صورة الصخرة المشرفة والبراق والأماكن المقدسة الإسلامية وقد رسم فوقها العلم الإسرائيلي الديني، وقال لهم هذه صورتها عندما كانت في أيدي آبائنا وأجدادنا الأقدمين! ثم أخرج لهم صورة تمثل تلك الأماكن أيضاً على عهد الصليبيين وفوق تلك الأماكن الصلبان، ثم أخرج لهم صورة تلك الأماكن المقدسة وفوقها الشعار الإسلامي. وقال لهم قولوا أمامي أيضاً وأقسموا على التوراة إنكم ستعملون بملء قواكم على أخذ تلك الأماكن المقدسة من المسلمين! فأقسموا له على ذلك، وبعدها مات قرير العين»[٧].

واستمرت الصهيونية في تهويد كل شيء فلسطيني – بوساطة السينما - مثل «البرتقال» الذي يُعد المصدر القومي للاقتصاد الفلسطيني، وأحد ملامح شهرة فلسطين زراعياً واقتصادياً وعالمياً، فما كان من الصهاينة إلا القيام على تهويده عام ١٩٢٩م من خلال معرض البرتقال في تل أبيب بعرض فيلم يوضح أن مراحل زراعة البرتقال وجنيه وتحميله وتصديره كان من خلال اليهود فقط![٨] حتى الاضطرابات التي حدثت بين اليهود والمسلمين حول «حائط البراق»، صُوّرت سينمائياً، بحيث تستدرّ عطف لجان التحقيق لمصلحة اليهود، وجلب الإعانات المالية من بلاد أوروبا، وقد نشرت جريدة «الإقدام» خبراً حول ذلك، قائلة: «أعدت اللجنة التنفيذية الصهيونية شريط سينما يمثل اضطرابات فلسطين. وقد عُرض أول مرة أمام المحامين المرسلين من طرف الوكالة اليهودية للدفاع عن اليهود لدى لجنة التحقيق، وهذا الشريط مُعدّ لإرساله إلى الخارج لأجل تنمية سيول الإعانات»[٩].

لم تكتفِ الصهيونية بما سبق، بل عملت على نشر اللغة العبرية – على حساب اللغة العربية - وأجبرت عرب فلسطين على قبولها إن كانوا يريدون مشاهدة إعلانات السينما! وأشارت إلى ذلك الصحف عام ١٩٣٠م قائلة: لفت نظرنا أن دور السينما اليهودية في تل أبيب تأبى أن

تستخدم اللغة العربية في نشراتها وإعلاناتها أسوة باللغات الإنكليزية والإفرنسية والعبرية! وقد رجانا البعض أن نسوق كلمة عتاب إلى أصحاب دور السينما على إهمالهم اللغة العربية إذ إنَّ أكثر زبائنهم من «العرب»! والذي نراه نحن أن أصحاب دور السينما لا يجب أن يُعاتبوا بشيء، وإنما العتاب بل التعنيف يجب أن يُساق إلى هؤلاء «الزبائن العرب»، الذين يرون لغتهم تُزدرى وتُحتقر في تلك الدور. وفوق ذلك يكثرون من ارتيادها والإقبال عليها. نعم، إنَّ هؤلاء يجب أن يُساق إليهم التعنيف والتوبيخ![10]

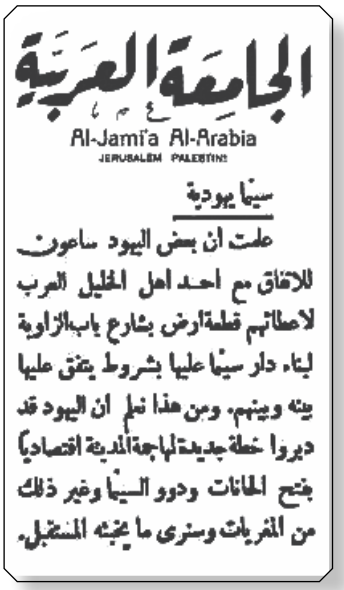
الجامعة العربية
Al-Jami'a Al-Arabia
JERUSALEM PALESTINE
سينما يهودية
علمت ان بعض اليهود ساعون للاتفاق مع احد اهل الخليل العرب لاعطائهم قطعة ارض بشارع باب الزاوية لبناء دار سينما عليها بشروط يتفق عليها بينه وبينهم. ومن هذا نعلم ان اليهود قد دبروا خطة جديدة لمهاجمة المدينة اقتصادياً بفتح الحانات ودور السينما وغير ذلك من المغريات وسنرى ما يخبئه المستقبل.

أرادت الصهيونية التوسع في استخدام السينما، وعدم حصرها في «تل أبيب» – لما لها من أثر فاعل في الجمهور – فأرادت بناء سينمات في مناطق أخرى، إذ قالت جريدة «الجامعة العربية» عام ١٩٣٢م: «علمت أن بعض اليهود ساعون للاتفاق مع أحد أهل الخليل العرب لإعطائهم قطعة أرض بشارع باب الزاوية لبناء دار سينما عليها بشروط يتفق عليها بينه وبينهم. ومن هذا نعلم أن اليهود قد دبروا خطة جديدة لمهاجمة المدينة»[11].

فيلم سر الصحراء

يُعد فيلم «سر الصحراء» أول مواجهة سينمائية مباشرة في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، وقد أنتجته شركة ألمانية، وعُرِضَ في سينما «صهيون» بالقدس ابتداء من يوم ١٩٣٢/٣/٢٦م، وأعلنته الصحف قائلة: «إنه فيلم عربي ناطق باللغة العربية الصحيحة... تمثيل وكلام العرب أنفسهم، وليس بواسطة ممثلين لا يعرفون اللغة العربية الصحيحة. مناظر رائعة عن حياة العربي الفطرية، أخرجت بوساطة شركة ألمانية كبيرة صرفت أموالاً كثيرة وأرسلت بعثة سينمائية للصحراء لأخذ مناظر الحياة البدوية»[12].

وهذا الإعلان كان خدعة صهيونية، كشفها «حسن صدقي الدجاني» الذي شاهد الفيلم وكتب عنه كلمة بعنوان «حول رواية سر الصحراء... التشهير بالإسلام تحت ظل الانتداب»، قال فيها: لو كنت وحدي الذي تأثر، وهاجت عواطفه بعد أن شاهد رواية «سر الصحراء» التي عُرضت ليلة أمس الأول في سينما «زيون» الصهيوني بالقدس، لقلت هي العاطفة الدينية

الإسلاميــة التي دفعتني إلى ذلك، ولكن ما قول القارئ الكريم إذا علم أن إخواننا المسيحيين الذيــن شاهــدوا هذا الفيلم لم يكونوا أقــل تأثراً من المسلمين، وأنهــم خرجوا ساخطين على الحكومــة لسماحها بعرض هذا الفيلم الذي لم يكن القصــد من عرضه إلا التشهير بالإسلام والمسلميــن، كمــا فهــم ذلــك كل من شاهد هذا الفيلم. تعال معي أستعرض وإيــاك نتفــاً من فصــول هــذا الفيلم لتفهــم الغايــة منــه: الفيلــم يعرض أمامــك صــوراً لأحطّ قبائــل البــدو الإسلامية الموجودة في إفريقيا، التي لا تــزال تعيش علــى البــداوة والفطرة في بــلاد المغرب، فيظهر لك ألبستهم الرثــة البالية، ويظهــر لــك عاداتهم السقيمــة، فتراهــم يأكلــون العقــارب ويلعبــون بالثعابيــن، ثم تراهــم عراة يرعــون الغنم وينشــدون الأناشيد، تم ترى الفيلم يعرض أمامك أحد الرعاة وقد تناول بيده لوحــاً وأخذ يقرأ سورة «الفاتحة» الكريمــة بلغة سقيمة ولهجة مصطنعة، وهنا تسمع أصوات الضحك قــد ترددت فــي المكــان. وبينمــا أنت كذلك ترى الفيلــم يسمعك ما يتحدث به الرجــال عن نسائهم فتــرى الرجل يقــول عن زوجته «ابنة الكلب». وما هي إلا دقائق حتى ترى جنازة لميت مسلم في الشارع وخلفهــا المشيعون يرددون «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهنا ترى ضحك السخريــة من المتفرجين

فلسطين

"La Palestine"

جريدة يومية ، سياسية ، اخبارية ، ادبية

Jaffa, Wednesday 30 March 1932

حول رواية «سر الصحراء»

التشهير بالاسلام تحت ظل الانتداب

سيدي الفاضل صاحب فلسطين الغراء

لم كنت وحدي الذي تأثر، وهاجت عواطفه بعد ان شاهد رواية « سر الصحراء » التي عرضت ليلة أمس الاول في سينما « زيون » الصهيوني بالقدس قلت في السالفة الغيرة الاسلامية التي دفعتني الى ذلك . ولكن ما قول القارئ الكريم اذا علم ان اخواننا المسيحيين الذين شاهدوا هذا الفلم (يكونوا اقل تأثراً من المسلمين ، وأنهم خرجوا ساخطين على الحكومة لسماحها بعرض هذا الفلم الذي لم يكن القصد من عرضه إلا التشهير بالاسلام ، والمسلمين كما فهم ذلك كل من شاهد هذا الفلم

تعال معي استعرض وإياك نتفاً من فصول هذا الفلم لتفهم الغاية منه : الفلم يعرض امامك صوراً لأحط قبائل البدو الاسلامية الموجودة في افريقيا والتي لا تزال تعيش على البداوة والفطرة في بلاد المغرب فيظهر لك البسهم الرثة البالية ، ويظهر لك عاداتهم السقيمة فتراهم يأكلون العقارب ويلعبون بالثعابين ثم تراهم عراة يرعون الغنم وينشدون الأناشيد

ثم ترى الفلم يعرض امامك احد الرعاة وقد تناول بيده لوحا واخذ يقرأ سورة « الفاتحة » الكريمة بلغة سقيمة ولهجة مصطنعة ، وهنا تسمع اصوات الضحك ترددت في المكان. وبينما انت كذلك اذا ترى الفلم يسمعك ما يتحدث به الرجال عن نسائهم فترى الرجل يقول عن زوجته « ابنة الكلب » وما هي الا دقائق حتى ترى جنازة لميت مسلم في الشارع وخلفها المشيعون يرددون « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وهنا ترى ضحك السخرية من المتفرجين فقد علا وافر قوا في الضحك وبعد ذلك ترى الرمة الميت تأتي ميتة سوت زوجها يطلم فتحمله على قبر زوجها وتجلس تصلي بالقرب من القبر (وهذا غير صحيح اذ ان الصلاة في القبور مكروهة شرعا) فيأتي رجل مسلم يسرق الطعام (وهي خاشعة في صلاتها) ويجلس على قبر آخر فيأكله بشراهة ثم لا تلبث ان ترى المؤذن قام يؤذن حاذيا الى الصلاة فترى رجلا سمعا رث الياس اخذ يصلي في القبرية واخذ الفواد يلعب في ثيابه

في بكلا يظهر عورته وهنا تسمع همس السخرية في الآذان الى غير ذلك من التافه والكلمات الرديئة التي يتكلمها افراد تلك القبائل مما لو جمعنا لكونت من وحداتها فكرة تامة لا تشك قط في ان الغاية منها لحط من كرامة المسلمين والاستهزاء بالدين الاسلامي وعاداتهم وتقاليده

وقد لا يكون هنا الفلم وضع من اجل هذه الغاية في من اجل اظهار عادات ومناظر غريبة للاوربيين

ولكن هل يليق بالحكومة ان تسمح بعرض مثل هذا الفلم في بلاد اسلامية وان تكون نتيجة ذلك ضحك واستهزاء المتفرجين وان يخطر الفلم المتفرج الى مستقبل غيبته ، والتصور بان دينه وقوميته اصبحتا عرضة للسخرية ، وان يرى حبيبه تشوه ، المقدسات والافتراء على الدين الاسلامي فيقال ما كنا لا يئس بنت شفة ؟

اني لا اعجب على الحكومة لانها غريبة ولانها لا تشعر بما يشعر به المسلمون في هذا الامر ولكنني اعجب كل العجب على الاعضاء المسلمين من لجنة مراقبة الافلام السينمائية الذين اجازوا وسمحوا بعرض هذا الفلم المزري المعيب .

وقد كان الاحرى بهؤلاء الاعضاء ان يعتبروا غيرة اللاكفيرعلى وطنهم يوم عرض فيلم الصهيونيين الكفار على الاصهيونيين الكافرين وقالوا بدمه بعد ان رأوا ان تقويمه لا تحتمل هذه الاهانة ، فكيف وان هذا الفلم يعرض بكرامة الدين الاسلامي والقومية العربية اذا اجيزا ابناء العرب عرياً مثلنا ؟

فانا كمسلم اولا وكعربي ثانياً احتج بكل ما عندي من عاطفة على سماح الحكومة بعرض هذا الفلم والطلب بكل الحاح منه والشكر لاخواني المسيحيين تلك الغيرة التي اظهروها واشتراكهم من هذا العرض كالمسجل لبعض المتفرجين تلك الاستهزاء التواصل التي سأذكره في طي هاتا والسلام .

في ٢٧-٣-٣٢ حسن مدني الدجاني

قد علا وأغرقوا في الضحك! وبعد ذلك ترى أرملة الميت تأتي صبيحة موت زوجها بطعام فتضعه على قبر زوجها وتجلس تصلي بالقرب من القبر – وهذا غير صحيح؛ إذ إن الصلاة في المقابر مكروهة شرعاً – فيأتي رجل مسلم يسرق الطعام، وهي خاشعة في صلاتها، ويجلس على قبر آخر فيأكله بشراهة! ثم لا تلبث أن ترى المؤذن يؤذن منادياً إلى الصلاة فترى رجلاً مسلماً رث اللباس أخذ يصلي في البرية وأخذ الهواء يلعب في ثيابه حتى يكاد يظهر عورته، وهنا تسمع همس السخرية في الآذان.. إلى غير ذلك من المناظر والكلمات الرديئة التي يتكلمها أفراد تلك القبائل مما لو جمعتها لكونت من وحداتها فكرة ثابتة لا تشك قط في أن الغاية منها الحط من كرامة المسلمين والاستهزاء من الدين الإسلامي وعاداته وتقاليده... فهل يليق بالحكومة أن تسمح بعرض مثل هذا الفيلم في بلاد إسلامية، ويضطر المسلم المتفرج إلى كظم غيظه، والشعور بأن دينه وقوميته أصبحا عرضة للسخرية، وأن يرى بعينه تشويه الحقائق، والافتراء على الدين الإسلامي؟! وأنا كمسلم أولاً وكعربي ثانياً أحتج بكل ما لديَّ من عاطفة على سماح الحكومة بعرض هذا الفيلم وأطلب بإلحاح منعه، وأشكر لإخواني المسيحيين تلك الغيرة التي أظهروها في اشمئزازهم من هذا العرض[١٣]!

من خلال هذا الوصف، تقدم مؤتمر الأمة الإسلامية الفلسطينية باحتجاج رسمي لحاكم قضاء القدس ضد عرض فيلم «سر الصحراء»، وهذا نصه: حضرة حاكم قضاء القدس المحترم... وردت في هذا الصباح إلى حزب مؤتمر الأمة الإسلامية الفلسطينية شكايات كثيرة من الذين حضروا عرض فيلم «سر الصحراء» في سينما زيون، بأن الفيلم المذكور يعرض الدين الإسلامي للهزء والسخرية عدا أنه مملوء بالمغالطات التي تشين سمعة الدين الإسلامي والمسلمين؛ لهذا وبما أن متابعة عرض مثل هذا الفيلم تهيج العواطف وتثير الخواطر فإني أرجو من حضرتكم إصدار أمركم السريع بوجوب منع عرض هذا الفيلم [توقيع] «راغب الخالدي»[١٤].

أكذوبة أرض بلا شعب

نشطت الصهيونية سينمائياً داخل فلسطين، حيث قابل أحد محرري الصحف مدير شركة «نيو فيلم» الناطقة المسيو «ماركوفتش»، فعلم منه أن في نية الشركة عمل أشرطة سينمائية في فلسطين لغايتين: الأولى تنشيط البضائع اليهودية الفلسطينية، والثانية الدعاية للحركة الصهيونية[١٥]، ومن هذه الدعاية، الترويج سينمائياً لمقولة «إنّ فلسطين أرض بلا شعب»!

وهـذه المقولة تصدى لها مراسل جريدة «الجامعة الإسلاميـة» عندما نشر في الجريدة كلمة بعنوان «الدعاية الصهيونية في دور السينما»، قائلاً:

شاهـدت ليلـة البارحـة فيلماً سينمائياً كلـه دعاية صهيونيـة تقشعر لها الأبـدان لما فيها مـن كذب. والقصة تـدور حول الأراضي وحالة العمال العرب والفـلاح العربي، فيظهرون على الشاشة البيضاء أن الأراضي قبل الاستعمار الصهيوني قد ذهبت سدىً، وأنها بعد أن استولوا عليهـا أصبحـت خصبة التربة تتدفّق منها الميـاه فيتزاحم العرب للشرب مـن أفواه الأنابيب ويستغربـون حـدوث هذا ولا سيّمـا إدرار الأرض لأنـواع الفواكه، بعد أن كانـت مجدبة. وأقبح مـا في الأمر عرضـ صور الفلاحين والفلاحات فـي أسوأ حال وبثيابهم القـذرة، يأكلون على السمـاط بشراهة لا عهـد لبشر بمثلها، ثم يقوم رجل لا ندري من أيـن اخترعوه يسمى «أحمد اليوسـف» فيلقـي خطاباً يشكر فيـه اليهود ويعلـن أن العرب واليهود متفقـون، وليس من أدنى اختلاف على محاسن الاستعمار الصهيوني وفوائده للبلاد ويدعو إخوانه العرب أن يتحدوا مع اليهود ويكونوا يداً واحدة!! فأنا أستغرب جد الاستغراب كيف تسكت لجنتنا التنفيذية وأحزابنا وهيئاتنـا عن هـذه الأكاذيب والدعايات المضللـة! كفاكم هجوعاً يا قـوم؛ فالكذب يجوز على الأموات، وهم يكذبون عليكم أمام أعينكم فهل أنتم أموات[١٦]؟!

وشاهـد هذا الفيلـم «أحمد جلال رستم» – من بيت لحم مـع صديقه – فكتب كلمة بعنوان «الـذي رأيتـه في السينمـا» – عندمـا شاهد الفيلم مـع صديق لـه – قائلاً: انطفـأت الأنوار الكهربائيـة وابتـدأت الأشعة تعكس المناظر علـى الشاشة البيضاء. ولا تتعجـب أيها القارئ، إذ بدأنـا نتسـاءل ما هذا الـذي نراه؟ ألهذا أتينا؟ هـل حضرنا لنرى اليهـود يلفقون المناظر ليظهـروا للملأ كيف كانت الأراضي جرداء لا ماء فيهـا ولا نبات، عندما ابتاعوها من الفلاح، وكيـف أصبحت تجري المياه فيها وتظلل الأشجار الباسقة أرضها، وكيف أصبحت جنات عدن تجـري من تحتهـا الأنهار. لا تعجب أيها القارئ من هذا، فلقد رأينـاه بأعيننا ورأينا كيف كان اليهـود يتبخترون في البساتين معجبيـن بأنفسهم وكيف كانت نساء العـرب ترجو وتستعطف لإرواء ظمئهن وملء جرارهن، كل هذا رأيناه!! بل رأينا ما هو شر وأدهى. رأيناهم يمثلون على الشاشـة البيضـاء كيف يحتفلون بإنشاء مستعمراتهم، وكيف يدعـون رجال العرب إلى حضور احتفالاتهـم، وكيف يجلسون إلى موائد الطعـام والشراب وبينهم رجال من الفلاحين يشربون معهم الأنخاب ويأكلون مسرورين ضاحكين ما لذ وطاب. ولكن لم يتقن الذين مثَّلوا «دور رجال العرب» أدوارهم! إذ ظهرت شواربهم ولحاهم المستعارة وذلك لأنه ليس لليهود لحى وشوارب في الأصل كما تعلم، وكأنهم ظنوا أن الذي سيرى تمثيلهم هذا على الشاشة البيضاء لن يدرك المغزى، ولهذا اضطروا غلى أن يعرضوا إلى جانب ذلك عائلة بدوية فقيرة تأكل الطعام بينهم

زائد ومن طبق صفيح... ولا تسل عن التصفيق كيف كان عالياً والسرور طافحاً على وجوه اليهود المتفرجين ولما لم يكن باستطاعتنا الاحتمال أكثر من هذا خرجنا[١٧].

في هذه المرحلة نشطت جمعية «كارن كايمت» الصهيونية التي كانت تشتري الأراضي من بعض الفلسطينيين، وكانت تجمع بعض أموالها – بصورة غير شرعية – من السينمات الصهيونية في تل أبيب، مثل سينما «عدن» وسينما «أوفير»، وأوبرا «مغربي»، إذ كان أصحاب هذه السينمات، يزيدون في أسعار التذاكر لمصلحة هذه الجمعية! ونشرت جريدة «فلسطين» عام ١٩٣٣م خبراً، قالت فيه: «حوكم نهار أمس الأول أصحاب دور السينما في تل أبيب بتهمة قبضهم ملاً واحداً زيادة عن ثمن التذاكر المقيد على التذكرة من رواد السينما، فدافع عنهم المحامي بقوله: إن المل كان يدفعه المتفرج من تلقاء نفسه متبرعاً به عن علم لجمعية «الكارن كايمت». وبعد سماع إفادة شهود النيابة ظهر أن هذا المل كان يقبض بصورة مخالفة لقانون التمغة، لذلك تقرر تغريم كل من أصحاب دور سينما عدن، ومغربي، وأوفير بعشرة جنيهات مع جنيهين أجرة محاماة، وكان يدافع في كرسي النيابة في هذه القضية الأولى من نوعها الدكتور برداكي محامي الحكومة في يافا»[١٨].

فلسطين
"La Palestine"
دور السينما
في تل ابيب
حوكم نهار امس الاول اصحاب دور السينما في تل ابيب بتهمة قبضهم ملا واحداً زياده عن ثمن التذاكر المقيد على التذكره من رواد السينما ، فدافع عنهم المحامي بقوله ان المل كان يدفعه المتفرج من تلقاء نفسه متبرعا به عن علم لجمعية (الكارن كايمت) وبعد سماع افادة شهود النيابة ظهر ان هذا المل كان يقبض بصورة مخالفة لقانون التمغة لذلك تقرر تغريم كل من اصحاب دور سينما عدن ، مغربي واوفير بعشرة جنيهات مع جنيهين اجرة محاماه وكان يرافع في كرسي النيابة في هذه القضية الاولى من نوعها الدكتور برداكي محامي الحكومة في يافا

أما جريدة «الجامعة العربية» فأضافت معلومات مهمة عن هذه الواقعة، قائلة: أصدرت المحكمة المركزية في يافا، حكماً بتغريم كل واحد من أصحاب دور السينما في تل أبيب عشرة جنيهات لتقاضيهم ملاً واحداً عن كل تذكرة زيادة عن الثمن، أما هذا المل الزائد فإنه يذهب، كما قال أصحاب دور السينما، إلى صندوق الكرن كايمت اليهودي، أي إلى المؤسسة التي تنتزع

أراضينـــا منا، فلا تعود إلينا مطلقـــاً. إن العرب مع الأسف الشديد، لم ينقطعوا عن ارتياد دور السينمـــا اليهوديـــة، لا في تل أبيب ولا في القدس ولا في حيفـــا، ومهما تسامحنا في عدد هؤلاء فإنـــه لا ينقصـــ يومياً عن ألف شخص، في المدن الثلاث، يدفع كل واحد منهم ملاً لا يحس به ولا يشعر، ولكنه يتكاتف ويكثر في صندوق الكرن كايمت، حتى يصبح ثروة طائلة تستحيل بعد قليل دونمات وبيارات، تتوكأ عليها الصهيونية وتبني قواعد الوطن القومي اليهودي[١٩]!

أفلام من دون رقابة

فـــي هذه المرحلـــة زاد تغلغل الصهيونية داخـــل أجهزة الحكومة إلـــى درجة عرض الأفلام – التي تخدم الأغراض الصهيونية – من دون تصريح رسمي من الرقابة السينمائية! وعن تفاصيـــل هـــذا الأمر نشرت جريدة «الجامعـــة العربية» عام ١٩٣٤ كلمـــة عنوانها «فلسطين في السينمـــا... أين لجنة مراقبـــة الأفلام؟»، قالت فيها: نعلم أنَّ في فلسطين لجنة خاصة لمراقبة أفلام السينما للسماح بعرضها على الجمهور. ولقد اعتدنا أن نرى علامة المراقبة تُعرض في جميع دور السينما عند عرض الفيلم تأكيداً أنه سُمح بعرضه بعد فحصه وتدقيقه. فهل لنا أن نسأل لجنة المراقبة إذا كان قد وصل لعلمها بأن سينما «ريتا بارك» بتل أبيب تعرض فيلماً تدعوه «صـــوت إسرائيل بعد أن عـــاد لوطنه» من دون أن تظهر عليه علامـــة المراقبة؟ وإن كانت تعلم بذلك – متجاهلة أمر ضرورة عرض علامة المراقبة – هل لنا أن نسألها كيف سمحت بعرض هذا الفيلم العبري الناطق، وهو عبارة عن دعاية صهيونية مهيجة تستفز شعور العرب. إن هذا الفيلـــم الذي نحن بصـــدده عبارة عن مناظر مختلفة لمدن فلسطيـــن والمستعمرات اليهودية، كله دعايـــة للصهيونية ولما تتطلبه هذه الصهيونية المتطرفة في فلسطين. ومن المناظر التي تثير استياء العرب موقف المغني أمام الحرم الشريف وهو ينشد نشيداً محزناً ثم يليه خطيب ثوري مهيج. وفي هذا كفاية لإظهار حقيقة هذا الفيلم. ثم هناك منظر حائط المبكى وعويلهم وخطابهم على جبل الطور بالقرب من جامعتهم حيث يقفون ينظرون إلى القدس. ولم يقتصر هـــذا الفيلـــم على ما تقدم، بـــل أخذ يظهر العرب في مظهـــر المتأخرين وبأنهـــم ما زالوا على البداوة، من ذلك عرض خيام البدو والرعاة العرب وجانب من داخل البلد القديمة في القدس وبيـــارة تُسقى بدولاب يجره جمل على الطرز القديم إلى جانب بيارات اليهود التي تتدفق إليها الميـــاه من المواسير والمضخات، وأحياء رحوفيا فـــي القدس ومتاجرهم ومناظر تل أبيب وما فيها من حياة وخلاعة على شاطئ البحر. ولا يستوعب المقام لتفنيد نواحي هذا الفيلم العبري الصهيونـــي جميعهـــا غير أننا نهيـــب بهيئاتنا أن تنهض لمطالبة الحكومـــة بوقف عرضه وعدم السماح له بالخروج من فلسطين، إذا لم يكن قد خرج بعد[٢٠].

ونشرت أيضاً جريدة «فلسطين» كلمة عن الأمر عنوانها «شريط يهودي سينمائي مثير»، قالت فيها: «أخبرنا بعض رواد دور السينما أنه يعرض في قاعة سينما ريتا بارك اليهودية في تل أبيب فيلم ناطق باللغة العبرية، أخذه اليهود في فلسطين، يتضمن الشيء الكثير عن حياة اليهود في هذه البلاد، ويظهرها بمظهر جذاب بينما يظهر العرب بمظهر قذر! ويتكلم في هذا الفيلم كثير من زعماء اليهود حاثين وداعين لإنقاذ فلسطين وتهويدها، إلى غير ذلك من الخطب المثيرة والمشاهد التي نفزع من التكلم عنها. وحدثونا أن هذا الشريط لا يُقدم بالشهادة الخاصة التي تشعر بمروره على دائرة مراقبة الأفلام في حكومة فلسطين، فهل يعرض إذن من دون مراقبة؟»[٢١].

وهذه الواقعة كتبت عنها الصحافة كثيراً في تلك المرحلة، وذكرت أسماء كثيرة للفيلم، منها: «حلم شعبي» أو «حلم أمتي» أو «صوت إسرائيل»، ونتج عن ذلك منع الفيلم رسمياً[٢٢]، ولكن بعد أن عُرض مدّة زمنية حققت فيها الصهيونية غرضها المحدد من عرضه!

* * *

هكذا خططت الصهيونية سينمائياً داخل فلسطين، حيث أنتجت أفلاماً تحقق أغراضها، مثل: الإساءة إلى الديانتين المسيحية والإسلامية، والترويج بأن فلسطين أرض بلا شعب، وأن زراعتها ونهضتها وتطورها تمّ على يد اليهود والصهاينة المهاجرين إليها، وتشجيع يهود العالم إلى الانتقال إلى فلسطين بوصفها وطناً قومياً لليهود... إلخ مما روجته الأفلام السابقة! وهذه الأفلام ظلت تُنتج وتُعرض منذ عام ١٩٢٢م! وللأسف، نجحت الصهيونية في مخططها السينمائي الذي روّج لهذه الأكاذيب، وساعدتها أغلب دول أوروبا، التي كانت ترغب في التخلص من اليهود ومشكلاتهم، فما إن أعلنت الصهيونية الاستيلاء على فلسطين عام ١٩٤٨م – فيما عُرف بنكبة فلسطين – سارعت أغلب دول أوروبا بالاعتراف بدولة الكيان الصهيوني، متأثرة بهذه الأفلام التي روجت للأكاذيب الصهيونية طوال ربع قرن، حتى أصبحت الأكاذيب حقائق من كثرة ترديدها!

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل تعلّم العرب الدرس؟! هل اقتنعوا بأن السينما كانت عاملاً مؤثراً في إقناع الشعوب بأكاذيب الصهاينة، إلى درجة أنها مهدت لهم قبول النكبة عام ١٩٤٨؟! والسؤال الأهم الآن: هل سيكتفي الكيان الصهيوني باحتلال فلسطين فقط، أو له مآرب أخرى في العالم العربي؟! وهل سيكرر هذا الكيان البغيض تجربته السينمائية في فلسطين مع دول عربية أخرى.

الهوامش

(١)- ينظر: مستقبل اللغة العربية في فلسطين، جريدة «مرآة الشرق»، ١٩٢٠/١٠/٦.

(٢)- في سينما صهيون، جريدة «بيت المقدس»، ١٩٢٢/٦/١٧.

(٣)- بشرى من عالم الشريط السينماتوغرافي، جريدة «النفير»، ١٩٢٣/٣/٣.

(٤)- فلسطين الجديدة في مصر، جريدة «فلسطين»، ١٩٢٣/٦/٤.

(٥)- هنـاك تكملة وتوضيحات وردود حول هذا الفيلـم عندما عُرض في تونس، نشرتها جريدة «فلسطين» في عدة مقالات، منها: طيف الخيال (السينما) ١٩٢٣/٥/٨، وفلسطين في تونس ١٩٢٤/٥/٢٧.

(٦)- نتيجة الانتقاد، جريدة مرآة الشرق، ١٩٢٥/٥/٢٤.

(٧)- دعاية اليهود في السينما، جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٢٨/١١/٨.

(٨)- راجع: في معرض البرتقال.. آمال وآلام، جريدة «فلسطين»، ١٩٢٩/٢/٢٦.

(٩)- شريـط سينمـا، جريـدة «الإقـدام»، ١٩٢٩/١٠/٣٠، ودعاياتهـم، ١٩٢٩/١١/٢٢، وينظـر أيضـاً: جريـدة «فلسطين»، حائط المبكى في السينما، ١٩٣٠/٧/٣.

(١٠)- اللغة العربية ودور السينما في تل أبيب، جريدة «الإقدام»، ١٩٣٠/٨/١٠.

(١١)- سينما يهودية، جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٣٢/٢/٢٤.

(١٢)- إعلانات جريدة «مرأة الشرق»، ١٩٣٢/٣/٢٦.

(١٣)- حسن صدقي الدجاني، حول رواية «سر الصحراء»، جريدة «فلسطين»، ١٩٣٢/٣/٣٠.

(١٤)- راغب الخالدي، الاحتجاج على عرض فيلم سينمائي، جريدة «مرآة الشرق»، ١٩٣٢/٣/٣٠، وللمزيد، ينظر: جريدة «الجامعة العربية»، من يراقب الأشرطة المتحركة؟، ١٩٣٢/٤/٨.

(١٥)- الدعاية الصهيونية بواسطة السينما الناطقة، جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٣٢/٥/١.

(١٦)- الدعاية الصهيونية في دور السينما، جريدة «الجامعة الإسلامية»، ١٩٣٢/٩/٢٠.

(١٧)- أحمد جلال رستم، الذي رأيته في السينما، جريدة «فلسطين»، ١٩٣٢/١٠/٢٨.

(١٨)- دور السينمـا في تل أبيـب، جريدة «فلسطين»، ١٩٣٣/٦/١٥، وأيضـاً: دور السينما وجمعية كيرن هاكميت، جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٣٣/٦/١٥.

(١٩)- تأسيس دور سينما عربية، جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٣٣/٨/٢٢.

(٢٠)- فلسطين في السينما.. أين لجنة مراقبة الأفلام؟ جريدة «الجامعة العربية»، ١٩٣٤/٧/١٢.

(٢١)- شريط يهودي سينمائي مثير، جريدة «فلسطين»، ١٩٣٤/٧/١٢.

(٢٢)- ينظـر: شريط سينمائي تمنع عرضه الحكومة، جريدة «الدفاع»، ١٩٣٤/٨/٣١، ودعاية يهودية مُنع عرضها بالسينما، جريدة «فلسطين»، ١٩٣٤/٨/٣١.

* * *

الأدب الرافديني القديم

تأليف: جوشوا ج. مارك*

ترجمة: محمد الدنيا**

تطور الأدب الرافديني القديم نحو العام ٢٦٠٠ ق.م، حينما أخذ كتبة وادي الرافدين يؤلفون أعمالاً إبداعية في بلاد سومر، وقد كانوا من قبل أمناء محفوظات. ابتكر السومريون الكتابة نحو ٣٥٠٠ ق.م، وهذبوا أسلوبها نحو ٣٢٠٠ ق.م، ومن المحتمل أن الكتبة جعلوا يؤلفون أعمالهم الخاصة قبل ٢٦٠٠ ق.م.

*- Joshua J. Mark عضو مؤسس لموسوعة تاريخ العالم World History Encyclopedia، وهي مؤسسة غير ربحية مسجلة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وكندا.

**- كاتب ومترجم سوري.

كانت الكتابة قد أُوجِدت في الأصل استجابةً لضرورات التواصل على مسافات بعيدة ضمن ميدان التجارة، وتمحورت في الأصل حول الجوانب العملية المحضة، كمسك السجلات وحفظ التسجيلات. كان الكتبة يدونون الثروات التجارية، المرسلة إلى هذه الوجهة أو تلك، وكميتها، وكلفتها. ومع مرور الزمن، تحولت الكتابة المسمارية الأولية إلى كتابة مسمارية سائدة، قوامها ٦٠٠ حرف، متيحة مرونة وحرية تعبيرية أكبر، وحينذاك، أخذ الكتبة على عاتقهم صياغة تسجيلات حول عهود الحكام ومآثر الملوك، فضلاً عن أعمال أخرى، كالوثائق الحقوقية والقضائية.

وإذ أتيحت لهم هذه الأداة المرنة، شرع الكتبة يؤلفون، بلا قدرة على التوقف على ما يبدو، وأبدعوا أعمالاً وصفها الاختصاصيون الحديثون بأنها شعر، وأدب حكمة، وميثولوجيا، وخيال تاريخي، وأساطير، ورقىً، وأناشيد، وصلوات، وتأملات، وقصص تعليمية، وأول رؤية من ملحمة جلجامش، التي سيطورها فيما بعد الكاتب البابلي «سين – ليقي أونيني» (كتبت بين ١٣٠٠ و١٠٠٠ ق.م). فيما بعد العام ٢٣٣٤ ق.م، استبدلت اللغة السومرية كلغة حية باللغة الأكادية واستخدم الكتبة حينذاك الكتابة المسمارية الأكادية التي اعتمدها وكيفها البابليون، والكاشيّون (الكاسيّون) والآشوريون وغيرهم.

أحياناً، يُدخل الباحثون الحديثون اليوم التاريخ والقوانين القضائية في تعريف «الأدب الرافديني» لأنها غالباً ما تشتمل على مراجع لكيانات فوق طبيعية. تتضمن «الأعمال الإبداعية» في الأدب الرافديني الشعر الديني، ذلك أن أقوال الآلهة وأفعالهم كانت تصور بأساليب شعرية وتنميقات تخيلية. وتطورت الأعمال الأدبية خلال العهود التالية من التاريخ الرافديني:

- بداية فترة السلالات ٢٩٠٠- ٢١٥٤ ق.م.
- الفترة الأكادية ٢٣٣٤ – ٢٢١٨ ق.م.
- فترة أور الثالثة ٢٠٤٧ – ١٧٥٠ ق.م.
- الفترة البابلية القديمة ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م تقريباً.
- الفترة الحثية ١٧٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.
- الفترة الكاشية ١٥٩٥ – ١١٥٥ ق.م تقريباً.
- الفترة الآشورية ١٣٠٧ – ٩١٢ ق.م تقريباً.
- الفترة الآشورية الحديثة ٩١٢ – ٦١٢ ق.م.
- الفترة البابلية الحديثة ٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م.
- الفترة الأخمينية – الساسانية ٥٥٠ ق.م – ٦٥١ م تقريباً.

لقد ترك الأدب الرافديني القديم بصماته على أعمال حضارات أخرى، لاسيما الحضارة المصرية، والمشرق، واليونان وروما.

الأدب السومري

توطد الأدب السومري نحو العام ٢١٥٠ ق.م، من خلال الشعر، بما في ذلك الأعمال المتعلقة بالملك - البطل جلجامش. يؤكد الباحث البريطاني «جيريمي بلاك» J. Black، الأستاذ في جامعتي كمبردج وأكسفورد، في العديد من أعماله حول الموضوع، أنّه المتعذر تأريخ الأدب السومري بدقة وذلك نتيجة عدم توفر المراجع التاريخية الموضوعية على صعيد العديد من الأعمال. لكن، بشكل عام، يقدر الاختصاصيون بأن الكتبة قد أخذوا يؤلفون الأدب الإبداعي نحو العام ٢٦٠٠ ق.م. ويعود تاريخ أقدم عمل فلسفي موجود اليوم عموماً، «تعاليم شوروباك»، إلى نحو العام ٢٠٠٠ ق.م، غير أن بعض العلماء يشيرون إلى أن هذا النص يعود إلى العام ٢٦٠٠ تقريباً، وهو ما يجعله أقدم نص مكتوب قائم في عالم اليوم. ونقرأ في «تعاليم شوروباك»: (**الأخُ الأكبرُ، حقيقةً، كالأب. الأختُ الكبرى، حقيقةً، كالأم. إصغِ إلى أخيكَ الأكبر كأنهُ والدكَ واصغِ إلى أختكَ الكبرى كأنها أمك. لا تعمل بعينيك فقط، لن تضاعف ثروتكَ باستخدام فمكَ وحده. الشخص المهمل هو أنقاض عائلته. من يرغبُ في إعلاء شأن البيت يمضي قدماً في إعلائه. كي تملك السلطةَ، وكي تملك ما تريد، تسلح بقوة الآلهة. يجب أن تبدأ بالاحترام، يجب أن تكون متواضعاً قبل أن تكون قوياً. المرأة الموثوق بها تليقُ بالمنزل الجيد. لا تتغطرس في كلامك مع أمك وتجعلها لا تحبك، لا تشكك في كلامها... الأبُ كأنه إله يجعلك مشرقاً. الأبُ مثل إله كلماته موثوقٌ بها. تعاليمُ الأبِ يجب الأخذ بها. المدينةُ بلا ضواحٍ لا مركز لها. المكان المجهول مخيفٌ...**). وهناك نص آخر يعود إلى الفترة نفسها، «ترنيمة معبد كيش»، الذي يعود تاريخه إلى نحو العام ٢٦٠٠ ق.م أيضاً. تقول هذه الترنيمة (**«أيها البيت، أيها التاج العظيم الذي يعانق السماوات، أيها البيت، يا قوس قزح الذي يدرك السموات! أيها البيت الذي تمتد شرفته حتى قلب السماوات وأسسه راسخة في أعماق المحيط وتغطي ظلالُه الأراضي كلها! أيها البيت الذي شيده الإله «آنو» وباركه «إنليل» وقدمه هاتف وحي من الأم «ننتود»! يا بيت كيش، يا يانع الثمار!**).

تُظهر ألواح غير مكتملة من أعمال أخرى تعود في تاريخها إلى الفترة نفسها أن بعض الكتبة كانوا يضعون أسماءهم على مؤلفات إبداعية. ونحو العام ٢١٥٠ ق.م، بُني الأدب السومري على الشعر، بما في ذلك الأعمال المتعلقة بالبطل – الملك «جلجامش». ويعود تاريخ «ملحمة جلجامش» إلى نحو ٢١٥٠ – ١٤٠٠ ق.م، حتى لو أن النسخة القياسية البابلية من النص ترجع إلى نحو ١٣٠٠ – ١٠٠٠ ق.م، على أساس القصائد السومرية الأولى التي تألف منها هذا العمل الإبداعي:

- جلجامش، إنكيدو والعالم السفلي
- جلجامش وهواوا
- جلجامش وثور السماء
- موت جلجامش
- تكوين إريدو

لم يختـرع السومريون الكتابـة وحسب، بل ابتكروا أيضـاً الأشكال الأدبية، بـدءاً بالشعر، الشكـل الأقدم من الأدب في العالم. أضحت هذه الأعمـال الخمسة المادة الإبداعية التي قام عليهـا جنس الشعـر الملحمي. وستترك قصـة «تكوين إريدو»، أول ظهـور لحكاية «الطوفان»، تأثيـراً فيمـا بعد في أعمـال شهيرة أخرى، منهـا القصيـدة المصرية «كتاب بقـرة السماء» (المعروفة أيضاً باسم «كتاب البقرة السماوية») وحكاية «سفينة نوح».

أسسـت أعمال شعرية أخرى، كقصيدة «السجال بين الخروف والزروع» و «أنشودة الفأس» (اللتيـن تعودان في تاريخهما إلى نحـو العام ٢٠٠٠ ق.م) لظهور شكل المناظرة الأدبية وشكل قصيـدة المديح، علـى التوالي، اللذيـن كثيراً ما حُـذي حذوهما طوال تاريخ بـلاد الرافدين وفـي حضارات أخرى. ووطدت قصائـد التقريظ الديني، مثل «ترنيمة إلـى نيدابا» (نيدابا أو نيسابـا)، إلهة الكتابة والتعليم لـدى السومريين، شكل الابتهـالات، والأناشيد والترانيم فيما بعـد، بينما أوجدت قصائـد سومرية أخرى أساليب، ورمـوزاً، وموضوعات ميثولوجية وأنماط شخصيات وجدت صداها في الآداب والثقافات العالمية عبر القرون التالية.

«نزول إنانا إلى العالم السفلي» (نحو ١٩٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) هي الدليل الكتابي الأقدم على كينونـة الإله الـذي يحتضر ثم يعود إلى الحياة (ولو أن حكاية الإله المصري «أوزيريس» كانت قـد وجـدت قبل ذلك، ولكن شفهياً). و «إنانا وسو-كال-تـودا» (نحو ١٨٠٠ ق.م) حكايةٌ تنبيه إلى أهمية التعامل مع الآخرين بكياسة وإدانة شديدة لانتهاك الأعراض. و «أيام مدّرسة» (نحو ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) و «نصائح مشرِف لكاتب شاب» (نحو ٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م) هي أولى أهم الأعمال في ميدان الهجاء، والشخصيات والمواضيع جميعها بدرجات أهمية متفاوتة؛ وستغدو إلهاماتٍ فيما بعد لكتبة ثقافات أخرى.

نحـو العام ٢٣٣٤ ق.م، كانت المدن – الدول والممالك السومرية- محط غزوات «سرجون الأكـادي» («سرجـون الأكبـر»، حكـم بيـن ٢٣٣٤ و٢٢٧٩ ق.م)، الـذي أسـس الإمبراطورية الأكاديـة. وكـان السومريون حينئذ قد أوجدوا «الإدوبا» (بيوت الألـواح / مدارس للكتبة وتعلم المعـارف وهـي أولى مدارس الكتبـة التي ظهرت نحـو الألفية الرابعة قبل الميـلاد في سهول

«بابل» الخصبة) منذ زمن طويل، وكانت تحث على الدراسة والنسخ والاستظهار وتلاوة الأعمال الأدبية التي تحكي ولادة العالم والحب الرومانسي، والجنس، والسياسة، والدين... ومختلف جوانب الحياة اليومية الأخرى.

كتبة أكاديون ونهضة سومرية

حلت الأكادية محل السومرية لغةً متكلمة ولغة كتابية، لكن الكتبة الأكاديين أسهموا في نسخ النصوص السومرية واستظهارها وتطويرها. درس الكتبة اللغتين ضمن إطار برامج دراسة مدارس «الإدوبا» على غرار ما فعل الباحثون الأوربيون فيما بعد من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية. الأعمال الأدبية المكتشفة اليوم على أنها «أكادية» هي غالباً سومرية أو بابلية ولكن مكتوبة بالمسمارية الأكادية. تدون المسمارية بوضع علامات، رموز، بصورة زوايا على ألواح طينية، ويمكن استعمال هذه الزوايا لكتابة أية لغة خاصة بالرافدين. إذن، بقيت الطريقة التي ابتكرها السومريون سائدة في الاستعمال.

مع ذلك، لم يكن الكتبة الأكاديون مجرد ناسخين، وإنما أبدعوا أعمالهم الخاصة الأصلية على شكل سير ذاتية، ومؤلفات دينية، وأناشيد مديح وترانيم. ولعل الكاتبة الأكادية الأشهر هي «إنهدوانا» (نحو ٢٢٨٥ – ٢٢٥٠ ق.م)، ابنة «سرجون الأكادي»، التي نظمت ٤٢ قصيدة فضلاً عن أناشيد التسبيح الشهيرة، ومنها «ترنيمة إلى إنانا». وكان لأعمالها تأثير في تطور الشعر الديني اللاحق.

وربما كان «حوار المتشائم» (نحو العام ١٠٠٠ ق.م) هو المثال الأشهر في الأدب الأكادي الذي كُشف بوصفه نصّاً بابلياً معاد الصياغة بأقلام كتبة أكاديين (ومن بعدهم الكتبة الآشوريون). يستشف هذا العمل الحِكمي معنى الحياة بالتساؤل عن مسوّغات فِعل أي شيء كان وأياً كان السبب، وعبثية أفعال البشر وعدم جدواها. بطلا هذه القصيدة سيدٌ وخادمه في مجموعة أحاديث يطلب فيها السيد من الخادم فِعل بعض الأعمال كأن يحضّر ما يلزم للعشاء، فيشجعه الخادم على ذلك؛ ثم يعبر السيد عن أنه لا يريد تناول العشاء فيجد له الخادم المسوّغات الملائمة كي لا يفعل. القصيدة ملهاة تؤدى أمام جمهور على الأرجح، غير أنها تنطوي على تساؤل عن المعنى النهائي لأي نشاط كان. ومنها نقتطف:

– أيها الخادم، اسمعني!

– أنا هنا، يا سيدي، أنا هنا!

– هيا بسرعة! جهز العربة وائتني بها، أريد الذهاب إلى القصر.

– اذهب، يا سيدي، اذهب! هذا في صالحك، حينما يراك الملك سيكرمك.

– حسناً، أيها الخادم، لن أذهب إلى القصر!

– لا تذهب، يا سيدي، لا تذهب! إن رآك الملك، قد يرسلك إلى مكان لا يعلمه إلّا الآلهة، وربما وجَّهك نحو طريق تجهله، فتكابد عذاباً في الليل والنهار.

*

– أيها الخادم، اسمعني!

– أنا هنا، يا سيدي، أنا هنا!

– أريد أن أقود ثورة!

– قُدْها، إذاً، يا سيدي، قُدْها! إذا لم تقُدْ ثورة، من أين ستأتي بملابسك؟ ومن سيعينك في ملء بطنك؟

– حسناً، أيها الخادم، لا أريد قيادة ثورة!

– لا تقُدها، يا سيدي، لا تقُدْ ثورة! من يقود ثورة قد يُقتَل أو يُسلَخ، أو تُقتلَع عيناه، وربما يُلقون القبض عليه ويرمى في السجن!

بقيت اللغة الأكادية سائدة الاستعمال خلال فترة «أور» السومرية الثالثة (٢١١٢– ٢٤ ق.م) المعروفة أيضاً باسم «النهضة السومرية»، ذلك أن هذه الفترة شهدت نهضة الثقافة والأدب السومريين وما أثاراه من اهتمام. وقد عمل «أور – نامو» (أور– نامـا) ، مؤسس أسرة «أور» الثالثة الذي حكم بين ٢٠٤٧ و٢٠٣٠ ق.م، على الإلمام بالقراءة والكتابة. وقد تأهل ابنه وخلفه «شولجي – أور»، الذي حكم بين ٢٠٢٩ و١٩٨٢ ق.م، على يد عدد من الكتبة ونظم قصائد إبداعية، وتابع نهج أبيه. وأحد أشهر أعمال فترة حكمه، وهو نص بعنوان «موت أور – نامو» (مجهول الكاتب) يشيد بمآثر والده وينطوي على أوائل أوصاف العالم الآخر الرافديني ويتطرق إلى صعوبات تجاوز الحزن والكآبة سواء في هذا العالم الدنيوي أم في العالم السفلي.

كانت قصيدة «على شرف شولجي» قد نظمت احتفالاً وتخليداً لذكرى سباق شهير حققه الملك، الذي قطع مسافة ٣٢١,٨ كم بين «نيبور» و «أور» في نهار واحد. وكانت أيضاً مثالاً على أعمال إبداعية تشيد بالإنجازات البشرية وليس فقط بانتصارات ملك في معركة أو بعطف آلهة. وتعدّ «تهويدة لابن شولجي»، التي ألفها كاتب مجهول من كتاب بلاط «شولجي» وخص بها أحد أطفال الملك، أول تهويدة في العالم. أفضت سياسة «شولجي» في تعليم القراءة والكتابة إلى إنشاء مدارس كتَبة في أنحاء المملكة كلها، ما تمخض عن ازدهار الإبداع لدى الكتبة على مستوى المنطقة وخارجها.

في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، تطور جنس أدبي جديد عُرف في الزمن الحديث باسم «أدب نارو الرافدي»، الذي يتمثل في شخصية تاريخية شهيرة (ملك عموماً) ضمن حكاية تخيلية. من بين الأعمال الأشهر في هذا الجنس الأدبي نقع على «أسطورة كوثا» و «لعنة أغادي / لعنة أكاد». ويرى بعض الاختصاصيين اليوم أن «ملحمة جلجامش» نفسها تنتمي إلى أدب نارو الرافدي. وكان هذا النوع قد تطور من خلال نشاط مارسه الكتبة وتوطد منذ زمن سابق طويل: يحررون على نُصَيب حجري (مسلة تعرف باسم «نارو») تسجيلات منقوشة وقصصاً تحكي إنجازات الملك، يتناول الكاتب فيها ملكاً تاريخياً شهيراً، متحدثاً عن مآثره المعتادة – أو يكتبون حكايات متخيلة أو غرضها إيصال درس أخلاقي أو عبرة بدلاً من تمجيد الملك. مع ذلك، نجد بعض الأعمال قد نقلت صورة سلبية عن الملك. بذلك، أبدع الرافديون القَصَص الخيالي التاريخي.

كتبة ومكتبات بابلية

كان الكتبة البابليون والأكاديون يتأهلون وفقاً للقواعد والمبادئ التي وضعها السومريون، في عدة مدن، مثل «أور» و «أوروك» و «بابل» التي ازدهر فيها تعليم القراءة والكتابة. تابع الأدب البابلي تقاليد الحفاظ على المؤلفات السومرية التي تركت بصماتها على أعمال المؤلفين اللاحقين. وتشكل قصيدة «لودلول – بيل – نيميقي» (قصيدة الصالح المتألم) السومرية – التي يعود تاريخها إلى نحو ١٧٠٠ ق.م، والتي أعيدت كتابتها وطورها إلى حد كبير كتبةٌ بابليون نحو ١٣٠٧– ١٢٨٢ ق.م– حالةً من التأمل في معنى الألم وسبب المصائب التي تصيب الأشخاص الطيبين. وربما تكون هذه القصيدة قد استوحيت من أخرى سابقة، «حوار بين رجل وإلهه» (يعود تاريخها إلى نحو ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) تدور حول الموضوع نفسه. وقد تمكن الكتبة من بلوغ هذه الأعمال السابقة من خلال المكتبات العامة أو مجموعاتهم الخاصة.

من أبيات «قصيدة المتألم الصالح»، وتعدادها ٤٨٠ بيتاً:

«مردوخ، لا تتحمل السَموات ثقل يَديه،

لكن يده الخَفيفة تُمسك (الرّجُل) المرصود للمَوت.

بِغَضبه تنفتح القُبور،

وبِرحمَته ينجي الرجل المنكوب مِنَ الكارِثة...».

كانت المكتبات من ثوابت الصروح زمن بابل القديمة ضمن بناء المعبد عموماً، بل أيضاً داخل مدارس الكتبة، وكان يتعين على أمين المكتبة (أو على حارس مكتبة المعبد) الحفاظ على

مجموعات الأعمال وإحضار بديل المفقود أو التالف منها وإضافة وترتيب أخرى جديدة والعمل على نسخها وتحديد مواضعها. ومثال ذلك قصيدة «رجل نيبور الفقير البائس» وأخرى كثيرة غيرها. وتعود النسخة الموجودة منها إلى العام ٧٠١ ق.م، غير أن بعض الباحثين يعيدون تاريخها إلى نحو العام ١٥٠٠ ق.م، إن لم يكن قبل ذلك. ويبدو من شبه المؤكد أنها سومرية الأصل، كُتبت بأحرف أكادية ونسخت بعد ذلك لتضم إلى مجموعات إحدى مكتبات بابل. وربما كان الكاتب «سين – ليقي – أونيني»، المعروف بأنه مؤلف ملحمة جلجامش، أحد الكتبة الذين عملوا لصالح إحدى دور الكتبة أو لأحد المعابد، فنسخ، وحرر في الوقت نفسه إبداعاته الخاصة به.

ما يزال الباحثون يتساءلون إن كانت قد وجدت مكتبات خاصة في منازل سكان بلاد الرافدين القديمة. لكن في الواقع بدا هذا التساؤل غير ذي جدوى بعد أن عثر على عدد من الألواح الشخصية كانت قد ضمتها المكتبة الخاصة بالملك الآشوري الحديث «آشور بانيبال» في نينوى. وكما هو الحال مع «شولجي» ملك «أور»، كان «آشور بانيبال» (الذي حكم بين ٦٦٨ و٦٢٧ ق.م) قد تأهل على يد عدد من الكتبة، وألف بعض الأعمال وبنى مكتبة نينوى للحفاظ على مجمل تاريخ وادي الرافدين وثقافته. وقد بعث برسائل إلى أنحاء الإمبراطورية الآشورية كلّها يحث فيها على البحث عن كتب وجمعها ونسخها. وعلى الرغم من العثور على العديد من أعمال بلاد الرافدين في كثير من المواقع في الشرق الأوسط فإن أهم مصادر بعضها بقايا مكتبة نينوى.

مؤلفات آشورية

كان لآشور بانيبال، آخر كبار ملوك الإمبراطورية الآشورية الحديثة، مؤلفاته الأدبية الخاصة، غير أن الكتبة الآشوريين كانوا قد أخذوا يؤلفون أعمالاً إبداعية بعد وقت قصير من بداية حكم الملك الآشوري «أداد نيراري الأول» (حكم بين ١٣٠٧ – ١٢٧٥ ق.م) مع ملحمة «أداد نيراري». وُجدت ألواح هذا العمل تالفة إلى حد كبير فاستحال على الباحثين الحديثين تحديد إن كان هذا المؤلف عملاً تاريخياً بدقيق العبارة أم إنه من أدب «نارو الرافدي»، غير أن الملحمة تتعلق بانتصار الملك على البابليين.

ربما تكون هذه الملحمة قد استوحيت من «إعلان أنيتا»، الذي كتبه الملك الحثي «أنيتا» (حكم نحو ١٧٤٠ – ١٧٢٥ ق.م)، وكان من الكتبة المتميزين وأول من ألف عملاً بلغة الحيثيين. ويروي «إعلان أنيتا» حكاية الانتصار العسكري الكبير الذي أحرزه الملك ويحييه كمحارب مقتدر، وهو ما كان يشكل قاعدة تسجيلات فترات حكم الملوك، لكن الأجزاء المقروءة من «ملحمة أداد – نيراري» بدت شبيهة بنص «إعلان أنيتا» على الرغم من أن الرابط النهائي بين النصين بقي نظرياً وحسب.

هنـاك مؤلَّف آشـوري أكثر اكتمالاً، «ملحمـة توكولتي – نينورتا»، التـي تتحدث عن الملك «توكولتي – نينورتا الأول» (حكم نحو ١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م) وتمجد انتصاره على ملك الكاشيين (الكاسيين) «كشتيلياش الرابع» (حكم نحو ١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق.م) الذي مارس الحكم من خلال بابل. يوضح هذا العمل أن «كشتيلياش الرابع» ألغى معاهدة مع «توكولتي – نينورتا الأول» الذي أبـدى تسامحـاً نحو ذلك آملاً تجنب حدوث نزاع. لكن الملك الكاشي رفض مبادرات السلام، فوجـه إليـه «توكولتي – نينورتا الأول» جيشـه وانتصر عليه وأتى من عاصمتـه بغنائم كرسها لإكرام الآلهة.

تركـز الملحمتان على الانتصارات العسكرية. مع ذلك، بقي الكتبة الآشوريون على سعيهم أيضـاً إلى مراجعة النصوص السومرية والبابلية السابقـة، متابعين جهودهم المعتادة. وتمثل أحـد أهم مساعيهم، فيما يتعلق بكاتب القصر، فـي التأكد من أن تسجيلات الملك قد نُقشت فـي الوقت المطلوب، ومن أفضل أمثلتها هو تاريخ تنظيم العيد الأكبر: مهرجان «كلخو» للملك «آشـور ناصربـال الثاني»، في العام ٨٧٩ ق.م. حكـم «آشور ناصربال الثانـي» بين عامي ٨٨٤ و٨٥٩ ق.م، ونظـم احتفاله الكبيـر لتدشين مدينته الجديدة «كالح» ثـم طلب من كتبته تخليد الحدث كتابةً.

سجلـوا تاريخاً، وقوانين قضائية، ووثائق زراعية، وأخرى قانونية ومراسيم سياسية، وأخذ آخرون وقتهم في ممارسة فنهم وألفوا نصوصاً إبداعية.

تعدّ «ملحمـة إزدوبار» (المسماة أيضاً «ملحمة عشتار وإزدوبـار»)، التي يعود تاريخها إلى فترة حكم الملك الآشوري الحديث «سرجون الثاني» (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) والتي عثر عليها بين أنقاض مدينته «دور شاروكين»، أحدَ أشهر المؤلفات الأدبية في الزمن الآشوري. يستعيد هذا العمل «ملحمة جلجامش»، مضفياً عليها تغيرات مهمة. في «ملحمة جلجامش»، رفيق البطل هو رجـل البرية «إنكيدو»، أمـا هنا فهو الحكيم «هيباني» Heabani. فـي هذه النسخة، لم يقهر الأبطـال الوحش «همبابا» بل ملكاً اسمه «خومبابا»، ولكن ليس فيها ذكر للطوفان الكبير. أعاد الكتبة الآشوريون كتابة كثير من النصوص السابقة، منها «نزول إنانا إلى العالم السفلي»، التي حولوها إلى «نزول عشتار إلى العالم السفلي».

لقـد ابتكر الرافديون الكتابة، بل أيضاً ضروب الشعـر، والمسرح، والمتخيل التاريخي، وأدب الحكمـة، والمحاورة الشعرية، والقصيدة الملحمية، والهجـاء، والشعر الديني وعدداً من الأنواع الأخرى. وما كان يمكن للأدب العالمي أن يغدو على ما هو عليه اليوم لولا الأدب الرافديني القديم.

* * *

آخر حرائق الحكم المطلق[1]

تأليف: بيير إيف بوربير*
ترجمة: د. محمد أحمد طجو**

دفع لويس الرابع عشر الحق الإلهي في الحكم المطلق لبلوغ ذروته من خلال شعاره «الملك الذي لا مثيل له»، «À nul autre pareil» فحكمه الشخصي الطويل (١٦٦١-١٧١٥م) جعل من الملك شمساً. وتعمل جميع الهيئات الملكية المحيطة بالملك (الأجرام المحيطة بهذا النجم) باحترام في تركيب دقيق مستوحى من تركيب سماوي ترمز له حياة البلاط في فرساي. وكان على الملك أن يفرض من أجل إسكات المعارضة، ضد تيار تقاليد فرنسا الحديثة، وحدانية المملكة: «إيمان وحيد، قانون وحيد، ملك وحيد».

*- مدرس التاريخ الحديث، في جامعة كوت دازور Université Côte-d'Azur.
**- أستاذ جامعي ومترجم سوري، كلية اللغات وعلومها، جامعة الملك سعود.

ومع ذلك، توضح وفاة الملك في ١٧١٥/٩/١م أن الحكم المطلق له حدود. فسلطة الملك لا تعني غياب التفاوض مع الهيئات الوسيطة، ويجب عليه أن يحترم القوانين الأساسية للمملكة. وقد خاطر لويس الرابع عشر باحتمال الاعتراض على وصيته لا، بل بإلغائها في برلمان باريس -محكمة الاستئناف، عندما فرض حضور ابنيه غير الشرعيين،اللذين أضفى عليهما الشرعية، في ترتيب الخلافة[٢]. كان الوصي فيليب دورليان Philippe dOrléans ابن شقيق الملك الراحل، ينوي التخلص من العقبات التي توقعها لويس الرابع عشر بمجرد أن أدرك أن الوصاية أمر لا مفر منه لتولي مقاليد الحكم حقاً وحقيقة، إذ كان عمر الوريث وحفيد لويس الرابع عشر، لويس الخامس عشر، خمس سنوات فقط في عام ١٧١٥. وكان على وجه الخصوص يحتاج، للقيام بذلك، إلى دعم البرلمانات وعلية القوم من النبلاء. وقد دشن الوصي حقبة جديدة في تاريخ الحكم المطلق بينما بدأ حراك التنوير. فكما كتب ميشليه Michelet، «[سوف يمر] قرن كامل في ثماني سنوات».

إعادة تأسيس الحكم المطلق

تميز هذا التجريب بتنظيم المجالس الحكومية المكلفة جماعياً بالحقائب الوزارية التقليدية: الحربية والبحرية والمالية والدينية خاصةً. ومع ذلك، كان لدى الوصي حس سياسي حقيقي. إنه يعلم أنّه يجب أن يعتمد على الآلة الإدارية التي بنيت منذ لويس الثالث عشر وريشيليو Richelieu ولويس الرابع عشر وكولبير Colbert. وقد فرض مطلب الفعالية والسرعة في اتخاذ القرار نفسه عليه بسرعة. وتخلص، بمجرد تأكيد سلطته، من المجالس للعودة إلى حكومة كلاسيكية حيث يتحدث الملك (عبر الوصي) مباشرة وفردياً مع وزراء الدولة حول شؤون وزاراتهم، وهي لقاءات أطلق عليها اسم «الرزمة» بسبب الوثائق التي يجب على الملك أن يوقعها نظرياً، ولكن في مرحلة التجريب هذه كما في المرحلة التي تلتها، استكشف الوصي إمكانات حكومة المجالس وحدودها؛ لأن الملك كان في كل الممالك الأوروبية في ذلك الوقت يلتمس المشورة، ويجلس في مجلسه، ويجمع بين المجلس المصغر والمجلس الموسع (المجالس). فحتى لو لم تُدَع مجالس النواب للاجتماع بين عام ١٦١٤ والثورة الفرنسية، فإن الحكم المطلق لا يعني التفرّد بالسلطة الملكية.

الحكم المطلق لا يعني التفرّد بالسلطة الملكية

لقد ورث لويس الخامس عشر (الذي حكم في الفترة ١٧١٥-١٧٧٤م) من تجربة الوصي الذي أشرف على تدريبه التدريجي على شؤون المملكة ومن حكمة رئيس وزرائه الكاردينال

دو فلوري de Fleury، الذي حكم حتى وفاته في عام ١٧٤٣. وإذا كان لويس الخامس عشر قد لقب بـ «المحبوب»، فإنه سرعان ما أصبح مكروهاً، ولاسيّما لأنه من الصعب في فرنسا الحكم المطلق أن نفهم لماذا انتظر عشرين سنة بعد بلوغه سن الرشد (١٣ سنة للملوك) لممارسة «وظيفة الملك الصعبة»، ولماذا أبقى في السلطة مربيه السابق الذي كان عمره آنذاك ٩٠ عاماً تقريباً؟ وسوف يُقارن دائماً بين لويس الخامس عشر ولويس الرابع عشر (الذي يُنسى انتظاره وفاة رئيس وزرائه مازاران Mazarin وعرابه لبدء حكمه الشخصي)، ولاسيّما لدى فولتير Voltaire في كتاب قرن لويس الرابع عشر XIV (نشره في عام ١٧٥١، ولكنه بدأه قبل عشرين عاماً).

اتسم الحكم المطلق في عصر التنوير أولاً بتطوير جهاز الدولة. فثمة كلام على «آلة إدارية»، وأرسل محامون مدربون داخل مجلس الدولة على أعمالها الروتينية إلى الأقاليم ليتولوا مسؤولية المناطق المالية (الدوائر الإدارية) بوصفهم وكلاء للعدالة والشرطة والمالية. وقد أُطلق عليهم منذ القرن السابع عشر «عين الملك»، ولكنهم أدّوا في القرن الثامن عشر دوراً متزايداً في الحياة الاقتصادية فطوروا المعارض والبنية التحتية والطرق والقنوات والتنظيم العمراني للأقاليم المسؤولين عنها، واستفادت الخزينة الملكية منهم من خلال العوائد الضريبية. فقد جعل بعضهم من المناطق المالية الخاصة بهم مختبرات حقيقية لملكية مستنيرة. وقد وجد التنوير الإداري في ذلك ميداناً مميزة للتجريب. هذه هي على سبيل المثال حالة منطقة ليموزان Limousin[٣]، إذ كان المشرف عليها تورغو Turgot، مؤلف مقال «المعارض والأسواق» في موسوعة ديدرو، يسعى جاهداً لكسر عزلتها الاقتصادية وتطويرها.

سوف يختار الملك لويس السادس عشر في بداية الحكم التالي، أي في الفترة ١٧٧٤-١٧٧٦، وفي بادرة معبرة، تورغو لتولي رئاسة المراقبة العامة للمالية (وهي أشبه بوزارة كبيرة للمالية، والاقتصاد، والصناعة، والميزانية). وسوف يطلق تورغو إصلاحات جريئة سوف تكلفه في نهاية المطاف منصبه.

جربت بعض المناطق المالية النموذجية أيضاً تسجيل الأراضي في السجل العقاري (المساحة) لإعادة بناء النظام الضريبي بأكمله على أسس أكثر عدلاً. كان المشروع معقداً. وواجه مقاومة كبيرة، وافترض استثماراً طويل الأجل في الملكية، التي كانت خزائنها فارغة دائماً. لكنه يشهد على الرغبة في تحديث الملكية المطلقة، من خلال الحصول على دعم السكان. ويتعلق الأمر في الواقع بمسألة جوهرية بالنسبة إلى الدولة حتى يومنا هذا، وهي

الموافقة على الضرائب؛ لذلك، كان هناك إصرار على حقيقة أنه من الأفضل فرض ضرائب أقل، ولكن على أن يبقى التدفق الضريبي أكثر انتظاماً. ولم يكن مفاجئاً أن تختار مدرسة مثل المدرسة الوطنية للإدارة ENA تورغو عرّاباً لإحدى أشهر دفعاتها من الخريجين، للإشادة بهذا الإلهام الإصلاحي.

في خدمة الدولة

تعتمد الملكية المطلقة أيضاً على الهيئات في طور الاحتراف التي تشدد على تفانيها في خدمة الدولة، بناء على إستراتيجية عامة طويلة المدى لا تسمح بتعديل مسارها أو حتى إفساده بالمصالح الخاصة. فجميع خطابات الهيئات الفرنسية الرئيسة في القرن العشرين- والتشكيك بها اليوم- عن الدولة الإستراتيجية تجد أصلها هنا. ففي عام ١٧٤٨م، أُنشئت هيئة مهندسي الجسور والطرق. ويتعلم الطلاب في المدرسة التي سميت باسمها خدمة الدولة والتحكيم في النزاعات المحلية، على سبيل المثال: تخطيط طريق أو إمكانية بناء جسر على أساس المصلحة العامة.

تقتضي حكومة الشؤون العامة أن تكون عقلانية وقائمة على الأدوات الرياضية المساعدة على اتخاذ القرار. فالقرن الثامن عشر هو قرن الإحصاء، ويقوم الحكم المطلق بالتالي على جهاز للدولة يقرن الكفاءة القانونية بتعدد مهارات المهندس وصرامة الخبرة. ويتحاور مع التنوير الذي ليس خارج ذاته إطلاقاً،كما رأينا مع تورغو. وإن ترودينو مونتيني Trudaine de Montigny، الذي تابع عمل والده ونظم على سبيل المثال هيئة الجسور والطرق، أكاديمي في العلوم. وهو أيضاً نشط على وجه الخصوص في الحياة الاجتماعية، في زمن «الجمعيات» التي سوف يطلق عليها اسم «الصالونات» بشكل أكثر شيوعاً في القرن التاسع عشر.

تقتضي حكومة الشؤون العامة أن تكون عقلانية
وقائمة على الأدوات الرياضية المساعدة في اتخاذ القرار

يُلاحظ تحول في الملكية المطلقة، وطريقة جديدة لحوارها مع «شعوبها»، حتى لمّا خضعت المراكز الحضرية لتنظيم الساحات الملكية، مع وجود تمثال للملك في وسطها. ففي مدينة رانس Reims، لم يعد لويس الخامس عشر ملكاً للحرب يستلهم من لويس الرابع عشر، وإنما ملك مواطن، يرتدي الزي القديم، ويشجع على تطوير الفنون والصناعة. ومع ذلك،

تجيد الدعاية الملكية، الأكثر قرباً من الحدود، التذكير بمهمة الملك الحامي، كما في مدينة نانسي Nancy، حيث يحمي الملك المقاطعة الجديدة التي جاءت لتوسع المملكة عند وفاة الدوق ستانيسلاس ليشينسكي Stanislas Leszczynski، والد زوجة لويس الخامس عشر.

حاكم معذب

يوضح لويس الخامس عشر نفسه تناقضات الحكم المطلق المستنير. فهو يعتمد بسبب طابعه السري، على مستوى العلاقات الدولية، على دبلوماسية موازية، هي دبلوماسية سر الملك، مع مبعوثيه الشخصيين، وممثلي نفوذه، وجواسيسه الموثوق بهم، الذين يضاعفون القنوات الدبلوماسية الرسمية. وهو لا ينوي التخلي عن أصغر جزء من سلطة منبثقة من الحق الإلهي، ولكن نتائج فرط النشاط الجنسي تعذبه على المستوى الديني، إذ إنه يمنعه بصراحة من تناول القربان غالباً، وثمّ من القيام بدور الشفيع التقليدي لملك مقدس، و«لسلطة علمانية»، بين الله وشعوبه. ويُذّكر القضاة الذين يتحدونه برفض تسجيل القوانين في نطاق اختصاصهم، وهو إجراء ضروري لتطبيقها، بالحكم الملكي المطلق: لن أقبل أن تتشكل في مملكتي جمعية تحول الرباط الطبيعي للواجبات نفسها والالتزامات المشتركة إلى كونفدرالية مقاومة، وأن يدخل مملكتي هيئةٌ متخيلة تزعج انسجامها. فالقضاء لا يشكل هيئة أو نظاماً منفصلاً عن أنظمة المملكة الثلاث: القضاة مأمورون ومكلفون بإعفائي من الواجب الملكي حقاً، وبإنصاف رعيتي».

ثار رئيس وزراء فرنسا رونيه-نيكولا دو موبو René-Nicolas de Maupeou والشخصية الثانية في الدولة، في نهاية عهده، ثورةً ملكية حقيقية، مرت بإعادة القضاء إلى الصواب. لكن الأمثلة على المقاومة كثيرة، لأن الرأي العام كان فعلاً حساساً للاتهامات الوزارية بالتعسف. لا، بل بالاستبداد. وقد تعددت المنشورات المعادية لموبو وللوزراء. وتعرض الملك نفسه في أكثرها جرأة للهجوم ولنزع صفة القداسة عن شخصه: اتهم بتجويع الشعب وبالاستفادة من «ميثاق المجاعة» مع أن الحاكم ملك معيل تقليدياً، كما اتهم بالتخلي عن السلطة لعشيقاته، والاستسلام لشهواته.

إن الرأي العام الذي أيقظه التنوير، على نطاق أوسع، حساس لحجج البرلمانيين الذين يُعدون بموجبها، في حالة عدم دعوة طبقات الأمة الثلاث[٤]، المتحدثين الرسميين باسم الأمة، وحماة الحريات الفرنسية، إذ إن تاريخ الفرنجة مصدر استخدام قوي للاستغلال.

ففي عهد الملك لويس السادس عشر، سرعان ما أصبح متعذراً الدفاع عن مناصب الوزراء الذين ما كادوا يدخلون الوظيفة؛ لأن المعارضة أطلقت العنان ضدهم، وقوضت داخلياً في البلاط أو حتى في الحكومة الثقة بهم لدى الملك. فمحكمة الرأي العام تضع يدها على القضايا الأخلاقية والفضائح لتجعل منها شأناً من شؤون الدولة. وعلى الرغم من حسن النية الواضح، لن يكون لويس السادس عشر هنري الرابع الجديد، كما كان يأمل الشخص الذي كتب باللاتينية Resurrexit ، أي «لقد بُعث من الموت» على تمثال «لو بون نوف» أو الجسر الجديد Pont-Neuf، في عام ١٧٧٤م، في بداية العهد الجديد.

الهوامش

(١)- هذا المقالة ترجمة للصفحات: ٣٥-٤٥، من كتاب التنوير ثورة فكرية Les lumières une revolution de pensée، تحرير لوران تيستو Laurent Testo، دار العلوم الإنسانية Sciences Humaines Éditions، عام ٢٠٢٢م.

(٢)- كان الملك قد أضفى الشرعية على ابنيه غير الشرعيين، وأصدر في تموز ١٧١٤م مرسوماً سجله برلمان باريس من دون معارضة، ينص على أنه في حالة عدم وجود أمراء يجري في عروقهم الدم الملكي، يكون لهذين الابنين غير الشرعيين سابقاً حق وراثة العرش. وبعد سنة من ذلك، أصدر مرسوماً آخر بمساواتهما في الرتبة من الوجهة القانونية بالأمراء الشرعيين، وكان لهذا القرار وقع الصاعقة على سان سيمون Saint-Simon والنبلاء الآخرين، وكانت أمهما مدام دو مونتسبان Madame de Montespan قد ماتت، ولكن أمهما بالتنشئة، زوجة الملك، أحبتهما مثل أولادها، واستخدمت نفوذها للنهوض بهما في مراقي الشرف والسلطة والجاه. (المترجم).

(٣)- هي إحدى مناطق فرنسا وعاصمتها ليموج.Limoges تنقسم المنطقة إلى ثلاث محافظات: فيينا العليا Haute-Vienne، وكروز Creuse، وكورّيز Corrèze. (المترجم).

(٤)- كان المجتمع الفرنسي يتشكل من ٣ طبقات رئيسة: النبلاء، ورجال الدين، والعمال أو عامة الشعب. (المترجم).

* * *

التّطوّر التاريخي لرمز الهلال

د. هيفين محمّد

يتناول هذا البحث رمز الهلال في الحضارات عبر التسلسل الزمني، والهدف هو استجلاء الأبعاد السيميائية (Semiotics) في جانبي الدلالة: الدال signifier في تكوينه الشكلي؛ والمدلول المرتبط بهذه العلامة signified في امتداد عقائدي أو سياسي أو اجتماعي أو فنّي، ونظراً إلى اتساع المدى التاريخي وتنوُّع الحضارات فإننا سوف نركّز على مراحل من هذه السلسلة الرمزية للهلال محاولين التحليل والمقارنة لنبيّن بعض العلاقات بين تلك الحضارات، سواء في مشرق البحر المتوسط وما وراءه في سومر وبابل وآشور وأوغاريت وتدمر، أو غرب هذا البحر في أوروبا لدى الإغريق والرومان والساحل الشمالي الإفريقي في قرطاج، وفي الجزيرة العربية جنوباً في اليمن المعينية والسبئية والحضرمية، والشمال في نجد والحجاز وما سيكون بعد الإسلام من تحوُّل التمثيل السميائي، ثم العودة إلى العلامات الحاملة الهلال رمزاً دينياً وجمالياً، ولاسيّما مع المرحلة العثمانية التي حلّت مكان بيزنطة في القسطنطينية/ إستنبول. وسيكون المصطلح المتداول هو الهلال croissant / crescent مقروناً بالقمر moon/lune.

رمز الهلال في الحضارة السّومريّة والآشوريّة والبابليّة

يُعدّ رمز الهلال من أبرز الرّموز الدّينيّة والفلكيّة في حضارات بلاد الرّافدين القديمة، وارتبط ارتباطاً وثيقاً بإله القمر «سين» الّذي احتلّ مكانة مركزيّة في مجمَّع الآلهة السّومريّ والبابليّ والآشوريّ.

وكان المركزان الرّئيسان لعبادة إله القمر في أور بجنوب الرّافدين وحرّان في شمالها، عندما كانت أور تتمتّع بالسّيادة على وادي الفرات (ما بين ٢٦٠٠ و٢٤٠٠ ق.م)، وكان الإله سين (إله القمر) كبير الآلهة. ثمّ عدَّ «أباً للآلهة»، و«رأس الآلهة» أو «خالق كلّ الأشياء».

تمثّل عبادة الإله «سين» ورمز الهلال في حضارات وادي الرّافدين أحد أهم المحاور لفهم البنية الدّينيّة والرّمزيّة لتلك الشّعوب. فقد عبّر الهلال عن مفاهيم روحيّة وزمنيّة مركّبة، تتجاوز كونه شكلاً بصريّاً، إلى كونه مكوّناً مركزيّاً في العقيدة والسّلطة والنّظام الاجتماعيّ.

الإله «سين» في العقائد السّومريّة:

«نظّم الكهنة ورجال الدين في سومر علاقات الآلهة بعضها ببعض، ووضعوا أنسابها... فكان للإله آنو مثلاً ابنة مفضّلة هي أنانا/ عشتار، كما جُعلت زوجته، وعُبد الأب والبنت معاً في المركز الرئيسي لعبادتهما في مدينة الوركاء، ويسمَّى معبدهما أي-أنا أي بيت السماء، وصِيغ من اسم آنو إلهة زوجة أيضاً هي أنتم، وكان أشهر أبناء أنليل من زوجته ننليل الإله القمر نانا بالسومرية أو سين في البابلية»[١].

«وكان الثالوث الأسمى بين آلهة أرض الرافدين يتكوَّن من: السماء متجسمة في آن Anu، والهواء متجسماً في أنليل Enlil والأرض متجسِّمة في إنكي أو إيا Ea/ Enki. وكان هناك ثالوث آخر من أجرام سماوية هي الشمس والقمر وكوكب الزهرة نجم الصباح، وبتطور الدين صار لكل إله نجمه الخاص، وبتقدُّم علم التنجيم زادت عبادة النجوم»[٢].

كان الاسم السُّومريُّ لإله القمر نانا (Nanna) وكان مركز عبادته في مدينة أور، وارتبط بالقمر، بصفته ضامناً لدورة الزّمن، وراعياً للخصوبة والنّمو. وأمّا إله القمر في الحضارة الآشوريّة والبابليّة فكان اسمه «سين» (Sîn)، واستمرّ في لعب دور مركزيّ عندهم حيث عدَّ حاكم الزّمن الليليّ، وتجلّى في الطّقوس الفلكيّة والتقويم الدّينيّ، وأهمّ مراكز عبادته كان في أور وحرَّان. وكان كإله مراقب للزمن، ومُنظّم للفصول. ورُبط أيضاً بالخصوبة، ولاسيّما في الزّراعة الّتي تتبع الدّورة القمريّة. وفي الفنّ المعماريّ والدّينيّ كان الهلال قد نُقش فوق المذابح، وعلى الألواح النذريّة، والأختام الملكيّة. أمّا الطّقوس والشّعائر المرتبطة بالقمر فقد كانوا يستخدمون القمر في التّقويم، وتنظيم الأعياد الدّينيّة استناداً إلى الهلال الجديد. وبقيت عبادة «سين» قائمة في حران حتّى القرون الميلاديّة الأولى.

تفاعل الهلال والقمر بين الحضارات السامية الشقيقة

نقف مع القمر في ثقافة أوغاريت في العقائد والأساطير والفن، ثم تلفت الانتباه الصلاتُ الوثيقة ما بين بلاد الرافدين والشام بأرجائها من الساحل الكنعاني إلى الداخل بتجليات آرامية وخصوصية في تدمر التي تعاقبت عليها مؤثرات متعددة:

يشير الباحث علي أبو عسَّاف في تقديمه لنصوص الملاحم والأناشيد الأوغاريتية التي نشرت كاملة بدمشق عام ١٩٨٨:

«نكال هي إلهة القمر السومرية التي قصَّ علينا الأوغاريتيون قصة زواجها من إله القمر يرخ الأوغاريتي وأطلقوا عليها اسم (إب) إلى جانب اسمها الحقيقي نكال، وكانت عبادتها منتشرة في أوغاريت، ويبدو أنَّها قد انتقلت إليهم من مدينة حرَّان مركز عبادة إله القمر سِنّ»[٣].

وعندما نقرأ هذه الأنشودة نجد أنها تروي لنا طلب يرخ، وردَّ الإله خرخب والد نكال، وبعد حوار ومحاولة إقناع بالزواج من شقيقتها تتم الموافقة على طلب يرخ، ويُحْضَر الميزان لاستلام المهر، وتشترك الأسرة كلها بهذه الطقوس، وتختم الأنشودة أبياتٌ تكيل المديح إلى نكال، وتشبِّه نورها بنور القمر، كما تمدح الإلهة كَثْرة بنت هلل:

«يتزوَّج يرخُ من نَكال. أما أبوها
فرَكَز منصب الميزان، وأمُّها
كفتي الميزان وإخوتُها فحصوا
الدقَّة، وإخوتُها جلبوا حجارة
الميزان، نكال وإب
التي أمدح، نور القمر، والقمر
نورك.
أمدح الإلهةَ كثرةَ بنت
هلل الرسامة بنت هلل...»[٤].

ويتناول الباحث طه باقر الصلات بين الآراميين والكنعانيين والعلامات المشتركة مع البابليين في تصوير الآلهة واستخدام رمز الهلال:

«تأثَّر الآراميون بديانة الأقوام السامية المجاورة كالكنعانيين، ومثل ذلك بالأموريين. كان أعظم إله خصُّوه بالعبادة الإله حَدَد أو هدد أو أدد، وهو من بين الآلهة الرئيسة عند الأموريين، وعنهم انتقلت عبادته إلى الكنعانيين... وهو الإله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار. واختلطت عبادته مع عبادة الإله الشمس، وعُبدت مع الإله (حدد) في منبج وفي المناطق الآرامية

الأخرى الإلهة زوجته، ونُعتت في المصادر اليونانية والرومانية بالإلهة السورية، وتبدو هذه الإلهة في وصف لوقيانوس [الكاتب والأديب والمفكر السوري القديم١٢٥-١٧٥م] بالصفات الأساسية الخاصة بالأم- الإلهة السامية، وصوُّرت في النقود التي ضُربت بمنبج، وهي تلبس تاجاً ويصحبها أسدٌ في بعض الصور على غرار الإلهة البابلية عشتار، كما اتُّخذ لها رمزٌ مؤلَّف من الهلال وقرص الشمس، وعُبدت في فلسطين أيضاً في عسقلان، وانتشرت عبادتها في العهد السلوقي، ثمَّ أخذها الرومان حيث أُقيم لها معبدٌ في روما، ومُثِّلت في المآثر الرومانية، وهي جالسة على عرشها بين أسدين»[٥].

بعل شامين هو «سيد السموات» في سوريا القديمة، انتشرت عبادته في سوريا وشمالي بلاد الرافدين منذ الألف الثاني قبل الميلاد، ثم انتقلت عبر الفينيقيين إلى قبرص وقرطاجة في الألف الأول قبل الميلاد، وقد ظهر على نقد سلوقي يحمل هلالاً على جبينه وقرص الشمس الذي تخرج منه سبعة أشعة في إحدى يديه.

وقد حفظت لنا منحوتة في تدمر [موجودة في متحف اللوفر بباريس] تمثل الثالوث الإلهي التدمري يتوسطه بعل شامين وعلى يمينه عجليبول إله القمر، وحول رأسه دائرة من الأشعة تماثل ما لدى يرحيبول إله الشمس، ولكن هلالاً يحيط برأس إله القمر[٦].

لقد فصَّلت الدراسات الصلات العميقة والوجودية بين قرطاج وصُوَر على الساحل الشرقي من البحر المتوسط، فالجذر الكنعاني واحد، وقد تفرعت منه مجموعة المدن الكنعانية/ الفينيقية على امتداد سواحل المتوسط وجزره وعلى الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وحتى الساحل المطل على الأطلسي.

يشير الباحث الألماني الليغر إلى امتداد الحضور القمري في عقائد قرطاج: «لا تختلف نظرة القرطاجيين إلى الآلهة كواهبة للخصب وسادة للعالم وحامية للجماعة والفرد عن التصوُّرات الدينية لشعوب حوض البحر المتوسط الأخرى إلا نادراً، على العكس كان الشعور بالخوف عندهم نامياً بشكل كبير. ويبدو أنهم عاشوا فيه بشكل دائم، وهو خوف أن يصطدم بأي واجب تجاه الآلهة»[٧].

كان القرطاجيون نشطين جداً في المجال الديني بشكل أكبر من المتوقَّع في ظلّ وضعهم الأساسي المحافظ، وتظهر الإلهة تانيت في الواقع على ارتباط وثيق مع بعل حمُّون كما يبرهن على ذلك لقبها الأكثر شيوعاً (وجه بعل) Pene Baal... على أية حال تذكرها الكتابات القرطاجية على خلاف بقية أفريقيا الشمالية [حيث الامتداد الكنعاني/ الفينيقي، في المقام الأول دائماً وقريباً وقبل (بعل حمُّون) مانحةً إياها بذلك مرتبة متقدِّمة... ويشير الهلال [في المنحوتات المعروفة] وهو صفة شائعة لتانيت القرطاجية كإلهة قمرية وكملكة للسماء»[٨].

إله القمر في مصر الفرعونية

كان خونسو إله القمر هو ابن الإله آمون وزوجته أوموت (الأم) عندما كانوا يشكّلون ثالوث مدينة طيبة الإلهي، ثم اتسع مداه باسمه الدال على الخفيّ والمستتر، ويمثل قوى الريح والخصوبة والقادر على خلق نفسه بنفسه من جديد، وقد دخل اسمه في تركيب عدد من ملوك الفراعنة (أمونحتب، توت عنخ آمون).

وفي مراحل تطورية ظهر «الإله تحوتي، وفي القبطية (توت) هو إله للقمر والتقويم وحساب السنين والفلك والحساب والكتابة واللغة، وهو زوج الإلهة (ماعت) إلهة العدالة. صُوِّرَ تحوتي غالباً بهيئة إنسان له رأس طائر أبي منجل... وربما يرجع سبب ذلك إلى أن منقار أبي منجل المنحني يشبه الهلال رمز القمر»[٩].

آلهة القمر عند الإغريق والرومان

استنسخ الرومان ما كان من معطيات الحضارات السابقة لهم، ولاسيّما حضارة الإغريق، ومن ذلك الآلهة التي تغيَّرت أسماؤها، وحافظت على وظائفها التي رسمتها المخيلة الجمعية في أثينا وسائر المدن اليونانية، وكانت تلك الوظائف تتغير في بعض الحالات، وقد عرفت عند الإغريق إلهة القمر سيلينا Selene، وهي ابنة هيبريون وثيا، وشقيقة هيلوس إله الشمس وإيوس ربَّة الفجر، وهي امرأة جميلة بجناحين طويلين، تضع على رأسها تاجاً من الذهب يشعُّ ضوءاً رقيقاً، ثم اتحدت سيلينا مع أرتيميس ولونا وهيكابي[١٠].

يُعدّ الهلال أحد الرّموز الكونيّة الأوسع انتشاراً في الثّقافات القديمة، وقد احتل الهلال مكانة رمزيّة ودينيّة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، ولا سيما خلال الفترة الإمبراطوريّة (٢٧ ق.م – ٤٧٦ م)، حين خضع لتطوّر واضح في المعنى والدّلالة، من مجرّد عنصر فلكيّ إلى رمزٍ دينيّ له صلات بالخصوبة والزّمن والآلهة الأنثوية. وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسّياسة والثّقافة، وكان يرمز إلى النّصر والقوّة الإلهيّة، وكان يظهر على العملات النّقديّة والأعلام والملابس الملكيّة. فساهم هذا الرّمز في تشكيل هويّة الدّولة وترك بصمته في الثّقافة والسّياسة والدّيانة الرّومانيّة.

ارتبط الهلال في البانثيون الرّوماني بالإلهة لونا (Luna)، وهي إلهة القمر، ففي المسكوكات الّتي تعود إلى القرن الأوّل الميلاديّ، ولاسيّما في عهد الإمبراطور هادريانوس، ظهرت صورة لونا بهلال واضح فوق جبينها، مع رموز فلكيّة مرافقة مثل النّجوم[١١].

وقد استُخدم الهلال عندهم للدّلالة على الزّمن الكوني أو الدورة الشّهريّة، ولاسيّما في المسكوكات المكرّسة لتكريم الأعياد الموسميّة أو الطّقوس الزّراعيّة. واقترن بالأنوثة أيضاً، ولاسيما من خلال ارتباطه بـ(الإلهة لونا)، ما جعله رمزاً للحماية والخصب والطّهارة.

القمر والهلال في الزمن الإسلامي

١- القمر في اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام

يبدو أن تناول رمز القمر والهلال في الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً مترابط، وقد امتاز الجنوب (اليمن) بحفظ الكتابات على النقوش، وبمجموعة من التماثيل/الأصنام التي تمثل الإله القمر، وأمَّا في الشمال في الحجاز ونَجْد فليس لدينا إلا المرويات الشعرية، وما جاء من خطاب قرآني كريم يبيِّن بعض عقائد الجاهلية وينهَى عنها، فيشير القرآن الكريم إلى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية، ولا سيما الشمس والقمر «ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا للّه الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون» [فصِّلت ٤١ : ٣٧].

ذكر المؤرِّخ جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) أنَّ «بعض العلماء يرى أنَّ عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب، وأنَّ أسماء الأصنام والآلهة وإن تعددت وكثرت إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي هو الشمس والقمر والزهرة، وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو القمر ومن أم هي الشمس ومن ابن هو الزهرة.

وعَدَّ الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث، وصار هو الإله المقدّم فيه، وكبير الآلهة، وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين (اليمن)، وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين...»[١٢].

ويقول المؤرخ جواد علي: «الاسم الشائع للقمر عند الساميين هو: ورخ؛ وسن؛ وسين؛ وشهر؛ وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي عُثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب.

والإله (القمر) هو الإله (المقه) عند السبئيين، وهو إله سبأ الكبير، وهو (عم) عند القتبانيين، وهو (ودٌّ) عند المعينيين، وهو سن وسين عند الحضارمة»[١٣].

وكشفت لنا نقوش المسند في اليمن منذ الألف الثاني قبل الميلاد ما كان يراه اليمنيون في (المقه) فهو الحامي ومانح النجاح في الحروب، وهو الذي يبارك المحاصيل والحقول، وهو مانح المطر، ويبارك الأجيال، وبكلمة مجملة إنه يجيب ويحقّق كل الأمنيات للرجال والنساء الصالحين[١٤].

٢- الزمن الإسلامي والرموز

في القرن السابع الميلادي بزغ الإسلام برسالته والتوحيد عمادها، وبهذا انتفت كل المظاهر الوثنية التي صاحبت العقائد في العصر السابق، واختفت الأصنام والأنصاب،

وكانـت بطبيعة الحـال رموز القمر والهلال مـن بينها. وقد اتخـذ الأداء التصويري الفني في سنـوات طويلـة امتدت من العهد النبـوي والراشدي إلـى الأموي نمطاً جديـداً، وغدا التمثيل السيميائـي مرتبطـاً بالعمارة والطبيعـة النباتية من الأشجار والزهـور، وبعد مرور عقود على استقـرار العقيدة أخذ التصوير يدخل الكائنات الحيوانيـة، ثم الشخوص البشرية في العصر العباسي وما بعده[١٥].

إنّ حضـور القمر والهلال فـي الثقافة الإسلامية تحوَّل من تشكيلات سيميائية في خطوط ورسـوم وألـوان أو منحوتات ترتبط بالعقائـد الدينية إلى رموز لغوية دلاليـة تدل على ظواهر طبيعية يستفاد منها في الحياة العملية، وقد اعتُمد التقويمُ القمري في الإدارة والثقافة والعلوم الـذي يبدأ بتاريـخ هجرة الرسـول الكريم صلى الله عليـه وسلم من مكة إلـى المدينة، ومعه يتطلـب الأمـر متابعة ظهور هلال القمر رأس كل شهر، وكذلـك يقترن بهذا التتبع مواعيد بدء الصيام مع شهر رمضان ونهايته وبدء شهر شوال المبيِّن لأيام عيد الفطر، وكذلك في تحديد بدء شهر ذي الحجة وأيام الحج والوقفة ثم عيد الأضحى المبارك، وقد جاءت آية توضِّح هذا المنحى الجديد مع صيغة الجمع لكلمة هلال (أهلَّة):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة ١: ١٨٩].

ومـن الملحـوظ ورود دال (القمر) معرّفـاً (٢٥) مرَّة في القرآن الكريـم ومرة واحدة في صيغة النكرة، في (٢٣) سورة، وكانت بينها سورة تحمل اسم (سورة القمر).

إذْ مـا يقارب تسعة قرون تمر إلـى أن يعود الهلال، ويكون رمزاً رسمياً إسلامياً عندما اعتمده العثمانيـون بعد فتـح القسطنطينية التي تحوَّل اسمهـا إلى إستنبول، وصار علامـة في الإدارات والدواويـن وأوراقهـا، وفي الأعلام وعلى قباب المساجد والمآذن ورايـات الجيوش، وبدا أنه يدل على القيم الإسلامية، في مقابل ما عرف من اعتماد رمز الصليب في الدول والجيوش المسيحية.

السؤال الذي يواجه الباحثين في هذا المجال السيميائي والفكري هو: هل حقّاً غاب الهلال عـن رمزية لمملكة أو إمارة أو جيوش طيلة تلك القرون ورغم المواجهة مع جيوش الصليبيين وحملاتهـم وإماراتهـم وممالكهم في الشرق؟ أم أنّ ثمة حضوراً بشكـل من الأشكال في حقبة زمنية محدَّدة؟ وعندما يحاول الباحث في التاريخ استكشاف الدلائل على الحضور أو الغياب، وهـي مـا يمكن أن تحمله كتب المؤرخيـن للمراحل المختلفة، أو الصـور التي تنقل جوانب من الواقـع عبـر رسوم اللوحات الفنية التـي دُوِّنت في المخطوطات واصطلـح عليها بالمنمنمات، أو برسـوم جداريـة في الآثار التي اكتشفت ونُقِّب عنها، أو مـا تحمله بعض الأواني من مشاهد الحيـاة اليومية، عندما يعـود إلى المكتبة فإنه لا يجد ما يطلبه فـي عناوين واضحة، ولا تُعنَى المؤلفـات بتوضيح علامات الرايات والأسلحة وحضور أو غياب الرموز المميزة، التي قد يكون

فيهـا تطور ودلالة تتضمن الهلال، وبهذا نجد ضرورة استقراء المدوَّنات على نحو واسع لتكون الإجابة علمية عن رموز إسلامية في الظواهر الحضارية في القرون ما قبل العثمانيين.

وقـد استطلعنا الصور الباقية من تراث المزوِّقين رسَّامـي المنمنمات، ووجدنا دليل غياب الهلال رمزاً دينياً في العصر العباسي، وذلك من خلال أعمال الفنان يحيى بن محمود الواسطي الـذي عاش ببغداد في القرن السابع الهجري (كان يعيش في ٦٤٠ هـ). فقد اعتنى بدقّة عمارة المسجـد من الداخـل والخارج في هندسـة المئذنة والقبة، فـلا نجد الهلال شكـلاً سميائياً، ويتأكَّـد هذا عندما يرسم كنيسة، فهو رسم بوضـوح الصليب رمزها المعروف، وكان د. عيسى سلمـان قـد قدَّم دراسة وافيـة عن هذه الجوانب محلـلاً لوحات/ منمنمـات زوَّق بها الواسطي المقامات المشهورة للأديب الحريري[١٦]، ويمكن أن تقدِّم لنا الصورُ والحُليُّ والأدواتُ القديمة التي تضمها المتاحف من العصور الإسلامية دليلاً لحضور رمز الهلال أو تأكيد غيابه.

٣- الهلال العثماني وجذوره السابقة

يـورد العلامـة المؤرخ واللغـوي أحمـد تيموراشـا (١٨٧١-١٩٣٠) في كتابـه المركَّز في ثمانـي عشـرة صفحة (تاريخ العَلَم العثمانـي) نتائج الحوارات حول العَلَـم العثماني، وحضور رمـز الهلال فيه ثم النجمة وتطورت عبر الأحداث ومع السلاطين. وكان هناك رأيان أحدهما أنَّ اقتباسـاً للهلال جـاء من القسطنطينيـة البيزنطية بعد أن فتحها السلطـان محمد الفاتح ١٤٥٣م، لأن الروم البيزنطيين اعتمدوا الهلال رمزاً موروثاً للمدينة، ويبدو لنا هذا الرأي غير صحيـح من جهتين: فلا يتصوَّر استمداد رمز من بيئـة الخصوم المنهزمين، والجهة الأخرى ظهور دلائل على جذور للهلال العثماني في التاريخ الإسلامي.

يذكر أحمد تيمور مستنداً إلى مرجعيات المؤرخين السابقين: القلقشندي في صبح الأعشى والمقريـزي في الخطط؛ أن علامة الهلال كانت ضمن رموز فاطمية في مصر، وسلجوقية في المشرق الذي تكونت فيه دول للأتراك السلاجقة منذ القرن الخامس الهجري [١٧].

إنَّمـا جـاء عند أحمد تيمـور يعدُّ منطلقـاً للدراسات في هـذه القضية التـي تحقِّق وتتبع الإشارات التاريخية:

«أمَّـا الـرأي الآخر فيروون فيـه أنَّ الهلال كان شعـاراً للسلجوقيين، وكـان متخذاً عندهم فـي الأعلام، ولكن على عواليها، وأنَّ العلم الأبيـض الذي أهداه آخر سلاطينهم إلى السلطان عثمـان كـان متوَّج الرأس بتمثال هـلال، فلمَّا ورث العثمانيون مُلـك السلجوقيين بعد انقراض دولتهم عدُّوا هذا العلم علامة لاستقلالهم، وتيمنوا بالهلال، ثمَّ لمَّا غيَّر السلطان مراد الأول لون العلم الأبيض بالخضرة جعل وسطه أهلَّة بيضاء»[١٨].

الهوامش

(١)- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الورَّاق، ٢٠٠٩، ج١، ص٣٧٠-٣٧١.

(٢)- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، دار الراقي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٧٥.

(٣)- علي أبو عسَّاف، نصوص من أوجاريت، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٨، ص١١٧.

(٤)- المرجع السابق نفسه، ص ١١٩.

(٥)- طه باقر، مقدمة، مرجع سابق، ج٢، ص ٣١٢-٣١٣.

(٦)- عيـد مرعي، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشـرق الأدنى القديم، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٨، بعل شامين.

(٧)- فينفريـد الليغر، قرطاجة، مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة: د. عيد مرعي، ط. روافد للثقافة، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٨١.

(٨)- المرجع السابق نفسه، ص ٧١-٧٣.

(٩)- معجم الآلهة والكائنات، مرجع سابق، كحوتي.

(١٠)- إمام عبد الفتاح إمام، معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.، سيلينا+ ب. كوملان، الأساطيـر الإغريقية والرومانية، ترجمـة: أحمد رضا محمد رضا، الهيئة العامـة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢، ص ٧٨-٧٩.

(١١)- معجم ديانات وأساطير، مرجع سابق، لونا.

(١٢)- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج٦، ص ٥٠-٥٣.

(١٣)- المرجع السابق نفسه، ج٦، ص ٥٠-٥٣.

(١٤)- مطهَّـر علـي الإرياني، نقوش مسندية، مركـز البحوث والدراسات اليمني، صنعـاء، ١٩٩٠، ص ١٥٨، ٢٢٣، ٢٨٧، ٢٨٨.

(١٥)- ريتشـارد إيتنغهـاوزن، التصوير عند العـرب، ترجمة: عيسى سلمان وسلسم طـه التكريتي، وزارة الإعلام، بغـداد، ١٩٧٣، صـ ١٢-١٣. دافيد تالبوت رايس، الفن الإسلامي، ترجمة: منيـر صلاحي الأصبحي، المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٧٧، ص ١٥.

(١٦)- عيسى سلمان، الواسطي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢، ص ٣٣.

(١٧)- زبيـدة عطـا، بلاد الترك فـي العصور الوسطى، بيزنطـة وسلاجقة الروم والعثمانيـون، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٥٣-١٦٤.

(١٨)- أحمد تيمور باشا، تاريخ العلم العثماني، القاهرة، د.ت، ص ١١-١٢.

* * *

الوسائل البديلة لتسوية المنازعات في الفقه الوضعيّ المعاصر

فريد أمعضشو *

لقد كشفَ الواقع محدودية العقوبة، بمفهومها التقليدي، في مكافحة الإجرام على نحوٍ فعّال، وفي إيجاد حلول ناجعة لمَا ينشأ بين الناس من نزاعات مختلفة؛ بدليل ارتفاع مؤشرات الجريمة عبر العالم، بما في ذلك ما يُلاحَظ في الأنظمة التي تشدِّد في الجزاء الجنائي أحياناً، وتزايد حالات العَوْد إلى اقتراف الجرائم، وعدم تخوّف كثيرين من ارتياد عالم الإجرام رغم علمهم مقدَّماً بما قد ينالهم من عقاب جراءَ ذلك. وبالنظر إلى هذا الوضع، وباستحضار ما عرفه العصر الحديث من تطورات اقتصادية ومالية وغيرها، وما يتمخض عنها أحياناً من تعقيدات ومنازعات، تتطلب الإسراع إلى حلّها وَفق آليات جديدة ذات فعالية، بعيداً عن اعتماد الجزاءات الكلاسيكية والمساطر الرسمية الروتينية، فُكِّرَ في اللجوء إلى وسائل أخرى لحلِّ ما قد ينشأ بين أفراد المجتمع من صراعات ونزاعات، من دون أن يسْلُكوا إلى ذلك المسلك القضائي المعتاد، وهي المسمّاة بـ«الوسائل البديلة لتسوية المنازعات».

ويقصد بها، لدى باحثي القانون، بعبارةٍ أوضحَ، مجموع «الآليات والأساليب التي تلجأ إليها الأطراف المتنازعة؛ بهدف الوصول إلى حلٍّ للخلافات بينها، دون التعرُّض للجهات القضائية»[1].

*- باحث مغربي.

فإذا كان القضاء هو الجهة الأصيلة، التي تُعْرَض على أنظارها عادةً النزاعاتُ للفصل فيها بقرارات وأحكام، فإن هذه الوسائل تقدم بديلاً لتلك الجهة تحقيقاً للغاية نفسها؛ بديلاً يمتاز بجملة من الخصائص، منها: اللارَسْمية، والسرية، والمرونة، وسرعة البت، والاقتصاد في الجانب المادي الذي تتطلبُه عادة إجراءات التقاضي أمام المحاكم، والحفاظ على العلاقات الإنسانية والاجتماعية. ولذا، كثر الإقبال عليها في الوقت الحالي، وصار اللجوء إليها أمراً ملحّاً، ولا سيما في أنواع من المنازعات؛ مثل المنازعات المتعلقة بالتجارة، وحماية المستهلك، والاستثمار، والملْكية الفكرية. وتتحول تلك الوسائل أو الطرق، في بعض الأحيان، إلى «وسائل أصيلة»، يُلجأ إليها ابتداءً لحل النزاع؛ بالنظر إلى مزاياها العديدة، وليس في مرحلة لاحقة، بعد الإخفاق في ذلك الحل بسلوك الطريق القضائي؛ ولذا، يفضِّل بعضُهم أن تسمى، والحالُ هذه بـ«الطرق المناسِبة لفض المنازعات».

وفي الحقيقة، فإن حل النزاعات من دون لجوء أطرافها إلى أجهزة العدالة المعروفة ليس وليد العصر الحديث، بل هو قديم، يعود بنا إلى الوراء قروناً كثيرة؛ بحيث عرفتْها حضارات وشعوب عدة شرقاً وغرباً، ويكفي أن نشير، مثلاً، إلى ما ذكره القرآن الكريم بخصوص الصلح و«إصلاح ذات البين» بين المتخاصمين، وكذلك الشأن بالنسبة إلى التحكيم، الذي طالما تحكّمت فيه التقاليد والأعراف السائدة في المجتمعات نطاقِ التطبيق، علماً بأنه يُسْبَق عادةً باللجوء إلى الوساطة أو التوفيق. وقد تطورت مثل هذه الوسائل، تاريخيّاً، إلى أن استوَتِ الآنَ طُرقاً فعالة في تسوية المنازعات، مشكِّلةً صنفا قائما بذاته من العدالة، يمكن تسميته بـ«العدالة التفاوُضية» أو «التصالُحية» أو «العدالة البديلة» باختصار.

ولا يمكن، في هذا الصدد، أن نُغْفل حضور تلك الوسائل في المدارس الفقهية، سواء الحديثة

أم المعاصرة؛ كما عند المدرسة الوضعية (بيكاريا)، التي أبدعت -فعليّاً- فكرة «التدابير الوقائية»، وعند حركة الدفاع الاجتماعي بَعْدها، التي اشتهرت بما اقترحته من إجراءات وتدابير دفاعية في سياق سعيها إلى تقديم حلول لمشكلة الإجرام والمُجْرمين. والملاحَظ أن بعض هذه الوسائل يكون أصلح في مجالات بعينها؛ كالتحكيم الذي يشكل الآلية الأكثر فعالية اليومَ في حلّ المنازعات المرتبطة بالتجارة الدولية، وإنْ كان بروزها الأقوى، ضمن وسائل تسوية المنازعات سلمياً، يعود إلى النصف الثاني من السبعينيات في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالضبط عام ١٩٧٧م؛ حيث «كانت هناك دعوى عالقة أمام القضاء منذ ثلاث سنوات، وكان هناك محامُون ومرافَعات وخبراء وجلسات ومُسْتَنَدات ونفقاتُ خبرةٍ ونفقات قضائية وأتعاب محامين. وأرهقت الدعوى الطرفين بالوقت والمصاريف، ثم طُرحت فكرة وسيلة بديلة لحسم هذا النزاع: لماذا لا تؤلَّف محكمةٌ مصغّرة من كل طرف، يختار كلٌّ منهما أحد كبار موظفيه ممن له دراية ومعرفة بتفاصيل النزاع، ثم يختار الموظفان رئيساً محايداً؟ وراقت الفكرة الطرفين؛ فأوقِفت إجراءات المحاكمة القضائية، وعقدت المحكمة المصغرة جلسة ليست إلزامية في شيء، واستمرت الجلسة نصف ساعة، أدلى بعدها رئيسُ المحكمة المحايد برأي شفهي لعُضْوَي المحكمة. ثم دخل موظّفَا الطرفين؛ أي عضوا المحكمة، إلى غرفة جانبية؛ فدخلا في مفاوضة استمرت نصف ساعة، وخرجا ليُعْلِنا اتفاقهما. وانتهت الدعوى بخير وسلام، ووقف نزيف الوقت والنفقات والرسوم والأتعاب؛ فكانت ولادة ما سُمي، في الولايات المتحدة، بـ«Alternative Dispute Resolution»، واختُصِرت، وعُرفت بالـ ADR؛ أي (الوسيلة البديلة لحسْم النزاع)[٢]. وقد وُضِعَ حديثاً وضع الإطار القانوني الذي ينظم كل وسيلة من هذه الوسائل، ويقنّنها بصورة مضبوطة. ولم يكن المشرِّع المغربي استثناءً في هذا الإطار؛ لذا، نراه ينص على جملة من تلك الطرق البديلة، ويسعى إلى ضبطها وتقنينها كذلك؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى الصلح، والتحكيم، والوساطة الاتفاقية.

إن الوسائل البديلة تكتسي أهمية بالغة كما هو بادٍ، سواء على المستوى النظري أم العملي. ومردّ ذلك إلى ما أضحت تؤديه من دور طلائعي في تسوية كثير من المنازعات في المادتين المدنية والتجارية وغيرهما، وإلى الاهتمام المتزايد الذي صارت تحظى به على المستوى العالمي، وإلى ما تقدمه اليوم من مساعدة واضحة للقضاء العادي، من حيث إنها تسهم في تخفيف الضغط عليه، وتُعِينُه في تسوية كثير من النزاعات والخلافات. فلهذا، يُرحَّب بتطبيق تلك الوسائل، والتوسع في استعمالها؛ بالنظر إلى تعدد إيجابياتها ومزاياها.

يقودنا ما تقدم إلى طرح سؤال إشكاليّ، سيكون تناوله ومعالجته مدارَ حديثنا في هذا المقال، بمختلف محاوره وعناصره، نصُّه كالآتي: ما موقع الوسائل البديلة لتسوية المنازعات في المدارس الفقهية الوضعية، ولا سيّما المعاصرة[٣] منها؟ وتتفرع عنه جملة تساؤلات مترابطة ومتدرجة؛ من قبيل: كيف نظَرَ الفقه الوضعيُّ المعاصر عَمَليّاً إلى الطرق البديلة لحل النزاعات؟ وهل كانت محلّ ترحيب وتقدير لدى كل المدارس والنظريات المعاصرة التي عرفت ميلادها في الديار الغربية تحديداً، سواء في أوروبا أم أمريكا؟ وما فائدة هذه الطرق؟ وهل لها جوانب شَبَه، تجعلها متقاطِعةً مع نظيرتها من بدائل العقوبة في الفقه الوضعي الحديث؛ كما لدى أصحاب حركة «الدفاع الاجتماعي» مثلاً؟ تلكُم جملة أسئلة، تقترن بها فرضيات، سنتطرق إليها، بما يكفي من التفصيل، في ثنايا مقالنا هذا، متوسِّلين بمنهج نراه أنسبَ وأنجعَ؛ لمعالجة إشكاليته وما تفرع عنها، هو المنهج المركَّب، المبني على قاعدة التوفيق بين التأريخ والتوصيف والتحليل والمقارنة.

إن عَمَلَنا، ها هنا، سينصَبُّ على تناول الوسائل البديلة لتسوية المنازعات لدى فقهاء القانون المعاصرين، مما يدل على أن الاهتمام بها لم ينقطع منذ أنْ عُرفت، بل إنها لَتَحْظى اليومَ بمكانة خاصة، وتنتشر على نطاق واسع؛ بالنظر إلى فعاليتها في حلّ النزاعات سِلْمِيّاً، من دون سلوك الطريق القضائي المعتاد. وقد أتاح لنا البحثُ في الموضوع الوقوفَ عند جملة من النظريات الفقهية التي درست تلك الوسائل، وتعرضت إلى مدى نجاعتها في حلّ المنازعات الناشئة بين الأشخاص، ويمكن تصنيفها إلى قسمين كبيرين؛ قسم يضم نظريات تؤيِّد وسائل حل النزاعات وُدّياً، وتعُدُّها بدائلَ مهمةً في هذا الصدد، وترصد إيجابياتها وحسناتها، وإنْ كان لكل واحدة منها تصورها الخاص لها، وخلفيتها الفلسفية التي ترْفِدها، وتستمد منها ذلك التصور (المحور الأول)، وقسم ثانٍ يضم نظريات تنتقدُ الطرق البديلة لحل النزاعات، وتتعقب نقائصها وسَلبياتها، التي تجعل مفعولها محدوداً جداً (المحور الثاني). على أنّ مقالنا هذا سيستفيدُ، بشكل أساسٍ، من المجهود القيّم، الذي بذله الباحث المغربي رضى بن خدّة في دراسته الأكاديمية لنيل درجة الدكتوراه في القانون، قبل بضع سنوات، في موضوع الوسائل البديلة لحل النزاعات. ولعل ما قُمْنا به لا يعدو أن يكون، بشكل أو آخَر، قراءة في جزءٍ من ذلك البحث المائز في بابه، الذي يسجَّل عندنا خصاص واضح فيه، بخلاف ما نراه في الغرب؛ حيث تكثر الدراسات والمقالات العلمية عن تلك البدائل العقابية، في الفقه الوضعيّ الحديث وما بَعْده كذلك.

أولاً- النظريات المؤيِّدة للوسائل البديلة لتسوية المنازعات:

تشير إلى مجموعة من التصورات والنظريات التي تقف موقفاً إيجابياً من الطرق البديلة لحل النزاعات، وتؤمن بفعاليتها في هذا الإطار، وإن اختلفت فيما بينها حول مقدار هذه الفعالية، وتدعو إلى العمل بها على نطاق أوسع؛ لما لها من فوائد وآثار تعود بالنفع على المؤسسة القضائية، وعلى العلاقات الإنسانية بين المتخاصمين. وعلى الرغم من تعددها، فإنَّ أبرزها - فيما يبدو - ثلاث، كما سنوضح في الفقرات الموالية.

ولْتَكُن البداية بما يُسمّى «نظرية الإرضاء»، التي تروم، في المحلّ الأول، «إرضاء أو إشباع تطلعات الأطراف بتسوية، أو - على الأقل - بتدبير مُرْضٍ للنزاع يستجيب بذاته، أو يسدّ رغبة أو احتياجاً»[٤]. ومن هنا، يتضح أن هدف الطرق البديلة هو إيجاد حل مُنْهٍ للنزاعات التي تقوم بين الأفراد على نحو سلمي، من دون اللجوء إلى التقاضي، رسمياً، أمام المحاكم، على أن هذا الحل يلزم أن يُرضي طرفي المخاصمة، وأن يراعي حاجياتهما، ويستجيب لها، وأن يسعى إلى إشباعها إلى أقصى حد ممكن، حتى لا يُثير رَدّات فعل رافضة من قبلهما. ومن شأن ذلك أنْ يوفر حظوظاً كبيرة لقبول ذلك الحلّ من لدن طرفي النزاع، اللذين يشْعُران حِياله بأنه قريب منهما، ويحترم احتياجاتهما، ويأخذ بالحسبان ذاتيهما، ولا سيّما أنّ التجارب قد أثبتت أن الحكم حين يراعي رغبات أطراف المخاصمة، ويُشْعِر بأنه شديدُ الاعتناء بها، وحريصٌ على تلبيتها وإشباعها، فإن المعنيين يتلقونه بقبول حسن، ويُولُونَه ما يستحق من تقدير واحترام، بوصفه الأسبق إلى تقدير واحترام رغباتهم وحاجاتهم. ولذا، يُبْدون تعاوناً وتجاوباً واضحين في هذا الإطار.

وحتى إذا لم تفْضُ الوسائل البديلة إلى حل نهائي للنزاع، فإنه يمكن - في تصور هذه النظرية - أن تدبّره على نحو يرضى به المتنازعان، لمّا يلْمَسان فيه مدى اهتمامه برغباتهما واحتياجاتهما، وسَعْيَه إلى إشباعها والاستجابة لها.

ولا يمكن لحل النزاع أن يكون فعّالاً، باتباع طريقة هذه النظرية، ما لم تتوافرْ ظروفٌ تُعين على ذلك، وما لم يمتلك القيّمون على العملية جملة من المؤهلات والمواصفات الضرورية. يقول أحد الباحثين: «بسبب مهارة القائمين على المسار التفاوُضي في معالجة الاختلال في القوة، تستطيع الطرق البديلة أن تحُدّ من المناوَرات الإستراتيجيّة، والمغالاة في الطلبات. وينتج من هذه السمات المختلفة أنْ تتمكّن الطرق البديلة (الوساطة مثلاً) من تيسير حلّ المشكلات بطريقة تعاونية وتكاملية، بدلاً من المساوَمات التي تزيد من الشقاق، وتفرّق أكثر

ممّا توحّد. وبالتالي، فإنها تستطيعُ أن تصل إلى نتائجَ خلّاقة يَكْسب فيها الطرفان، وتمتدّ إلى ما هو أبعد من الحقوق الرسمية؛ من أجل حلّ المشكلات، والإرضاء الحقيقي للطرفين في وضع معين»[٥].

وتبلورت في مجال العلاقات الاجتماعية، ولا سيّما في عالم الشّغّالة، وانطلاقاً منه، نظرية أخرى ذات موقف إيجابي من الوسائل البديلة، عُرفت بـ«نظرية العدالة الاجتماعية»، هدفُها الأساس يكمن في تحقيق هذه العدالة، وما يتصل بها من قيم وأخلاقيات؛ إذ إنها ترى في تلك الوسائل طرقاً ناجعة لتجاوُز حالات الخصام والصراع والتباعد في اتجاه الوئام والتصالح والتقارب؛ وبالتالي إنهاء المنازعات الناشئة سلمياً، من دون المرور عبر المسلك القضائي المعهود، على أنها تضْمَن العدل والربح، وتحقيق المصلحة المشتركة لأطراف النزاع. وعلاوة على هذه الغاية المحورية، تضطلع بأدوار أخرى ثانوية، ولكنها مهمّة، طبعاً، في مضمار حل النزاعات. فلهذه الوسائل (وفي مقدمتها الوساطة)، في القضايا والمشكلات الاجتماعية، «فاعلية قصوى لإحلال العدالة والتصالح الاجتماعي، إضافة إلى أنها تحقق أهدافاً ثانوية أخرى، لها أهمية كبيرة في التحول الاجتماعي نحو التسامُح والرحمة وتسامي المعاني الإنسانية، وتحسِّن قدرة الإنسان على الاستيعاب والمرونة ورهافة الإحساس بالآخَر، وكذلك الثقة بالنفس والتعامُل برُوحيّة نبيلة تجاه الخصوم، وتحويل العداء إلى سببٍ للتقارب والعلاقات الحميمة، وتنمّي الشجاعة الفائقة للاعتراف بالخطأ، ومحاولة إصلاحه»[٦].

وتقوم هذه النظرية على مبدأين رئيسين[٧]، يُلِحّ أحدهما على ضرورة انخراط الفرد في مجتمعه، وانتمائه إليه؛ لأنه لا يستطيع بمفرده، مهما أوتي من قوة وخبرة، أن يحُلَّ المشكلات، ويُصْلِح مظاهر الخلل البنيوي في المجتمع، ولكنه -بالمقابل- يستطيعُ ذلك لو انتسبَ إلى جماعته؛ فهو ضعيف بنفسه، قويٌّ بغيره، عاجز عن الفعل وحده، قادرٌ بمساعدة أفراد مجتمعه. فضلاً عن ذلك، فالإنسان - كما قيل قديماً - «ابن بيئته»، وعليه، لا يُتصور أن يعيش، أو يفعل، بمفرده، بل تستلزم هذه الخاصية أن ينتمي إلى بيئته/ مجتمعه، ويتفاعل معها/ـه تأثراً وتأثيراً. وبذلك، يكتسب القدرة على الإسهام في علاج اختلالات المجتمع، وحلّ مشكلاته، وإعادة التوازن المفقود إليه.

ويتجلى المبدأ الآخَرُ في أنّ تحقيق التنظيم داخل المجتمع لا يتوقف على المنظومة التشريعية فحَسْبُ؛ أي على القانون فقط، وكذا القضاء الرسمي، بل إن ثمة عواملَ أخرى يمكن أن تسهم -وبقوة- في هذا الإطار، ولا سيّما بعد أن تعقدت العلاقات الإنسانية، وكثُرت

المشكلات المترتبة عنها، وأبان الاقتصار على القانون وحده عن محدوديته في معالجة القضايا والنزاعات، ومن أهمها الطرق البديلة التفاوضية، التي توفر «أداة فعالة لتنظيم الأفراد حول مصالح مشترَكة؛ وبالتالي بناء علاقات وهياكل اجتماعية أقوى. وذلك الأمرُ له أهميتُه؛ لأنّ الأفراد، الذين لا ينتمون إلى جماعات، هم الأكثر عُرضة للاستغلال في هذا المجتمع، ولأنّ المنظمات الاجتماعية الأكثر فاعلية تستطيع أن تحدّ من هذا الاستغلال، وأنْ تُوجِد مزيداً من العدالة الاجتماعية»[٨].

ويؤمن أنصار هذه النظرية بأن الطرق البديلة قد تكون أنجع في ضمان التنظيم في كنف المجتمع، وتعزيز العلاقات ومطلب العدالة الاجتماعية، وأنها أنفع، بصورة أقوى، للأطراف الضعيفة في هذه العلاقات داخل جماعات المصالح. فهذه الطرق «تستطيع أن تعزز التنظيم المجتمعي بوسائل متعددة. ولأنّ الطرق البديلة قادرة على وضع القضايا في إطار مختلف، والتركيز على المصالح المشتَرَكة، فإنها تستطيعُ أن تساعد الأفراد، الذين يتصوّرون أنهم على طرفيْ نقيض، على رؤية إطار أوسع، يواجهون فيه عدواً مشترَكاً. ونتيجةً لذلك، تستطيع الطرق البديلة أن تضفيَ القوة على الضعفاء؛ بالمساعَدَة على إقامة تحالفات فيما بينهم. يُضاف إلى ذلك أن الطرق البديلة، بقدرتها على مساعدة الأطراف على حل مشكلاتهم، تقلل من الاعتماد على الأجهزة البعيدة عنهم، وتساعد على بذل الجهود الذاتية، بما في ذلك تشكيل هياكل المجتمع القاعدية»[٩]، وتستَحِثُّ الأفراد على المشاركة الفاعلة في نطاق الحياة المدَنيّة[١٠].

علاوةً على نظريتي الإرضاء والعدالة الاجتماعية، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، في العقود القليلة الماضية، نظرية أخرى سُميت بـ«نظرية التحول»، ويطلق عليها، أيضاً، «نظرية التمكين والتقدير»، أرسى أُسُسَها الفقيهان روبرت باروخ بوش (Bush)؛ أستاذ مادة حل النزاعات في جامعة هارفارد، وجوزيف فولجر (Folger)؛ أستاذ مادة التواصل في جامعة تيمبل، والخبير في مجال الوساطة والتوفيق. وقد فصّلا القول فيها في كتابهما المشترك القيّم، الموسوم بـ«The promise of mediation: Responding to conflict through empowerment and recognition»، والمقسَّم إلى أربعة محاور كبرى، جامعة بين التأسيس النظري وإيراد حالات واقعية وسيناريوهات تدريبية لكيفية تطبيق الطرق البديلة، ولا سيّما آلية الوساطة (Médiation)، ووَقَفا فيه، بإسهاب، عند بعض النُّهُوج المعتمَدة في تسوية المنازعات وُدّياً، دونما مرورٍ عبر المؤسسة القضائية، ولا سيّما «النهج

التحويلي». ولئن كانت هذه النظرية تهمُّ، في الأساس، الوساطات، إلا أن ذلك لا يمنع مِنْ أن تمتد إلى سائر الطرق البديلة تفاوُضية الحلّ[11].

يتضح مما قيل أن ثمة مفهومين يشكّلان عماد هذه النظرية، ويمثلان بُعدين أساسين فيها (البعد التمكيني، البعد التقديري)، ويُعدّان عاملين مهمّين لتحقيق التحويل والتحول؛ وبالتالي المساعدة، بفعّالية، في تسوية أنواع النزاع بطرق سلمية غير رسمية. فأما أولهما فهو «التمكين»، و«معناه، في أبسط صوره، أن يستعيد الأفراد الشعور بقيمتهم وقوتهم وقدرتهم الذاتية على معالجة مشكلات الحياة»، وأما الثاني، وهو «التقدير»، «فيَعني إثارة التعاطف مع مواقف الآخرين ومشكلاتهم»[12]. بأسلوب آخر، فالتمكين يتعلق بالأنا، التي ألحّ أصحاب هذه النظرية على ضرورة إعطائها ما تستحق من اعتبار لتكون، حقاً، ذاتاً فاعلة، ولتستعيد ثقتها بنفسها، ولتعزز قدراتها على الفعل وإحداث التغيير الإيجابي، ولتضطلع بدور طلائعي في حلّ المشكلات عبر آلية الوساطة التحويلية، التي ترمي إلى تحقيق عمل ترميمي في غاية الأهمية لتجاوز ما بين الأطراف المتخاصمة من وتوترات. على حين يرتبط التقدير بالآخَر، الذي يَلْزَم الاهتمامُ به كما يجب، ووضْعه في المكان اللائق به، والاعتراف له -هو الآخَر- بطاقاته وفعاليته وإيجابيته، وإنْ اختلفت معه الأنا أوجُهاً من الاختلاف، على أن ذلك التقدير قد ينطوي على جانب إيديولوجي وقِيميّ. وبهذا وحده يمكن تحقيق التغيير والتحول المنشودين، وتسوية المنازعات، من دون حاجةٍ إلى سلوك الطريق القضائي المعتاد. ويأتي التمكين والتقدير، أحياناً، بوصفهما نتيجتين للطرق البديلة، وإنْ بكيفية غير مقصودة.

بناءً على ما ذُكر، يمكن أن تؤدي الوسائل البديلة لتسوية المنازعات إلى تغييرات ذات أهمية كبيرة؛ فهي - من جهةٍ - تُسْهِم في تغيير نظْرة الفرد إلى ذاته، وفي تغيير نظرة الناس إلى بعضهم بعضاً داخل المجتمع من جهة ثانية؛ وذلك في الاتجاه الإيجابي - بطبيعة الحال - في كلّ منهما، ومن خلال «إعطائهم شعوراً حقيقياً - أو حتى زائفاً- بالقدرة الفردية على إحداث التغيير (التمكين)، وقبولاً أكبرَ تجاه الشخص الذي يمثل خصْماً في النزاع (التقدير)»[13].

من هنا، يتبدّى أن «نظرية التحول» تركز على الفعل وتحقيق نتائج ملموسة، ذات فعالية وديناميةٍ، ووقْعٍ يتجلى في الفصل في النزاعات بقرار ملزم، عوض الاكتفاء بالخطاب المجرد والكلام التفاوضي النظري، بل إنها تدعو - في حال عدم قدرة الطرق البديلة على حل الخصومة نهائياً - إلى حسن تدبيرها والتعامل معها، على الأقل، بما يُوقِفُ تدمير العلاقات التي تطَلَّب إنشاؤها وقتاً وجهْداً[14].

كما أنها تَصْرِف عنايتها إلى تحقيق التغيير على مستوى الأشخاص، وليس الطِّباع والمواقف المجردة فقط، بوصف ذلك مقدمة طبيعيةً لإحداث التغييرات على مستويات أكبر وأعمّ؛ وذلك من خلال اعتماد آليتي التمكين والتقدير. فحسبَ هذه النظرية، فـ«إن «الوعد الفريد» للوساطة، كأنموذج بارز للوسائل التفاوضية الحلّ، يتمثل في قدرتها على تغيير شخصيتي المتنازِعين خاصّة، وعلى تغيير المجتمع ككلّ عامّة»[١٥].

ولا يخفى على أحد ما لهذه النظرية المهمة، ولا سيّما في مجال الوساطة الاتفاقية، من دور فعال في تسوية المنازعات سلمياً، وفي تقديم يد العون والمساعدة لطرفي الخصومة على تعبئة مواردهما الخاصة من أجل حلّ ما قد ينشأ بينهما من صراعات، وفي تجنب قيام نزاعات بينهما مجدَّداً في المستقبل. ولهذا، فقد «استخدمت حركة الطرق البديلة – ولو إلى حدّ ما – إمكانات هذه العملية لمساعدة الطرفين المتنازعين على تعزيز قدرة كلٍّ منهما على معالجة الظروف المعاكسة، على اختلاف أنواعها، ليس فقط في الحالة الراهنة أو المباشرة، بل أيضاً في الأوضاع المستقبَليّة».

ولعل هذا الطرح، في مجال الوسائل البديلة لتسوية المنازعات، يصلح، بفعالية أكثر، في هذه الأخيرة حينما تكتسي بُعداً دَوْلياً؛ كما يرى بعض الباحثين، ومنهم يَرَى أن ذلك الطرح «قد يصْدُق أكثر على النزاعات العابرة للحدود، ربما ينطلق فيها القائمُ على المسار التفاوضي من فكرة التطبيع، أو إعطاء شعورٍ كاذب بالتمكين، وصادق بالتقدير للضعيف تُجاه القوي، من دون الرغبة الحقيقية في الوصول إلى حلّ فعليٍّ للنزاع، وإنْ كنا لا ننفي هذا الأثر للطرق البديلة في أطراف النزاع الفردي الداخلي»[١٦].

ويُسجَّل على هذه النظرية الفقهية المعاصرة غلبة الطابع التنظيري عليها، أو كونها – على الأقل – تراكُمية أكثر منها واقعية حالّة [١٧]. ولهذا، تقل ثقة بعضهم فيها بوصفها وسيلةً لحل النزاعات وُدّياً؛ لأنهم يبحثون عن آليات ذات منفعة مباشرة، وذات صبغة براجماتية واضحة، تُعِين على تقديم حلول عملية للنزاعات الناشئة بين الأفراد. ولكنْ – على الرغم من ذلك – يُلاحَظ، في إطار حركة الطرق البديلة، «أن الاهتمام المستمر، على نطاق أوسع، بالتمكين والتقدير مِنْ شأنه أن يُسْفِر – بصورة تراكمية، ومع مرور الزمن – عن تحول في الشخصيات؛ من الخوف، والتزام الموقف الدفاعي، وتركيز الاهتمام على الذات، إلى أشخاص مملوئين بالثقة، ومهتمين بالآخرين. كما تساعد هذه النظرية على تحويل العلاقات الاجتماعية ممّا يشبه الهُدنة بين الأعداء إلى شبكة قوية من الحُلفاء» [١٨].

ويُصِـرّ آخـرون على استعراض سلبيات أخـرى، وتسجيل مآخذ عدة علـى نظرية التحول، منطَلقين من واقع الممارسة وتطبيقها المحتمَل ضمن زمرة الطرق البديلة، ولا سيّما الوساطة. فهـذا أحدُهـم يرى أن «قضية التحول قضية وهمية، تعبر عن أحـلام مجردة... كما أن قضية التمكيـن والتقدير قد لا تأتي بحلول صائبة؛ إذ قد يرضى المتخاصمون على حلول غير جيدة، ومُجْحِفة في حق بعضهم بعضاً، وإنْ كانوا هم الذين اختاروها؛ فلا يكفي تراضيهم، ولا يصلح - من جانب أخلاقي - إذا كانت غير عادلة، ولا سيّما وأن هدف الوساطة، في دائرة الأخلاق، أن تؤسس للعدل الاجتماعي، وتُشِيع مفاهيم إنسانية وأخلاقية»[١٩].

ثانيا- النظريات المنتقِدة للوسائل البديلة لتسوية المنازعات:

على الرغم ممّا للطرق البديلة من إيجابيات؛ من مثل الاقتصاد والمرونة والسرعة والسرية، وعلـى الرغم مـن مقاصدها النبيلة التي تُختـزل في هدف أساس، يتجلى فـي تسوية المنازعات سلميـاً، فـإنّ ثمة مَنْ ينتقدهـا، ويرصد جملة من نقائصهـا وسلبياتها ومواطـن قصورها، التي تجعـل مـن الصعب الاطمئنان إليها، وعَدِّهـا بديلاً حقيقيّاً للعقوبـات الكلاسيكية. ولعل من أبرز النظريـات، في هـذا الإطار، ما يُسمى «نظرية تكريـس اختلال التوازن»، التـي آثرنا أن نخصّها بالحديث، على نحو مفصل، في هذا المحور؛ من خلال الوقوف عند عددٍ من النقط المتعلقة بها.

إن ممّـا عِيبَت به الطرق البديلة التفاوضية اقترانَها بمسلسل من التراجُعات عن المكاسب المحققـة، على امتداد أزمنة، وبفضـل جهود متعاقبة، في مجال حـل النزاعات. فاللجوء إلى هذه الطرق قد يؤوَّل على أنه علامة ضعف لدى القابلين بالاحتكام إليها، واعتمادها عملياً في حـلّ النزاعات؛ بمعنى أنه يُنظر إلـى اللاجئ إليها على أنه طرف ضعيف، لا يَقْوى على سلوك الطريـق القضائي لنيل حقوقه، أو تسوية خلافاته أو صراعاته مع الخصم. وقد يُفهم على أنه نتيجـة مباشرة لفقدان الثقـة في أجهزة العدالة الرسمية، المنوط بهـا، أصلاً، إحقاق الحق، وإنصاف المظلومين.

كما أن العمل بهذه الطرق قد يكون مكلّفاً لأحد طرفي المخاصمة، الذي يجد نفسه مجبراً علـى تحمل مصاريـف اختياره هذا؛ بأن يؤدي مقابلاً مادياً للجهة القائمة على تفعيل الطريقة البديلـة، وإجـراء المسطـرة المتبعـة (مركز وساطة مثـلاً). هذا بخلاف ما لـو سلك طريق القضـاء، وربـط أداء أتعاب المحامي بربح القضية المسندة إليـه للدفاع عنها. ويكون الضرر واضحاً حين يكون هذا الطرف ضعيفاً، يواجِه آخرَ أقوى منه بكثير.

ويخشى بعضُهم أن تُستغَلّ الأدلة، التي يقدمها أحد الأطراف، من قِبَل خصْمه في إعداد تدخلاته لاحقاً، فيما لو أخفقتِ الوسيلة البديلة في مسعاها لحل النزاع. و«يمثل هذا الاعتبارُ مشكلاً - على وجه الخصوص - عندما لا توصل المسطرة إلى تسوية نهائية باتّة. وحتى إنْ كانت المعلومات، المحصَّل عليها خلال محاولة الطريق البديل، لا يمكن أن يقع استعمالها في دعوى لاحقة، فإن الخصم لن يغفل أخْذها بعين الاعتبار، وهو بصدد تهْييء إستراتيجيته»[٢٠].

ويترتب على اعتماد الوسائل البديلة، أحياناً، الانحياز إلى طرف من دون آخر، ولا سيّما القوي، الذي يستفيد من العمل بها، مقابلَ تضرُّر الطرف الأضعف. ومن هنا، تشكل خطراً على أحد طرفي المنازعة، وتكون سبيلاً إلى تغييب العدالة، ولو عن غير قصد. على أنه يلزم التفريق، هنا، بين الطرق البديلة المطبّقة على العلاقات المتكافئة، وتلك المطبقة على العلاقات غير المتوازنة من حيث القوة؛ بحيث إنه لا خطَرَ في الحالة الأولى، بخلاف الحالة الثانية، التي يتضرر منها الطرف الضعيف. ففي مدونة التأمينات، أو تشريع العمل مثلاً، نجد أن المستفيد، عادة، من تطبيق الوسائل البديلة لحل ما ينشأ من نزاعات بين المِهنيّين أو أرباب العمل والمؤمّن لهم أو الأجراء هو الطرف الأقوى، الذي يحاول الالتفاف على محل النزاع للتخلص من الجزاءات المرتبة في حقه؛ لذا، فهو يظل المستفيد الأساس من أي تسوية للخصومة من دون سلوك طريق القضاء. ومن هنا، يسعى جاهداً إلى تفادي عرض القضية موضوع النزاع على أنظار المؤسسة القضائية؛ ليقينه بأنه سيتضرر من ذلك حتماً، ويتحمل تَبِعاتها المادية وغير المادية. إنّ من أبرز آثار حركة الطرق البديلة لتسوية أشكال النزاع، إجمالاً، «تحييد مكاسب العدالة الاجتماعية، التي تحققت من خلال الحقوق المَدَنيّة، والحركات النسائية، وحركات المستهلِكين، وحركات الأجَراء، وغيرها من الحركات، والمساعدةَ على تأكيد مواقف الأطراف المتميِّزة والطبقات الأقوى، وإطالة أمَدِ قمْع الضعفاء» [٢١].

ومن هذا المنطَلَق، ذهب بعضهم إلى أن الطرق البديلة، وإنْ كانت نيّات الملتجِئين إليها حَسَنة، وغاياتُهم شريفة، قد تشكل أداةَ قمع خطيرةً يستغلها الأقوياء، وتكرّس استمرار لاتكافؤ العلاقة بين المتنازعَيْن. يقول ابن خدة: «نظراً لما تتسم به هذه الطرق من عدم الرسمية، والحرص على توافق الآراء؛ وبالتالي عدم وجود قواعد إجرائية وموضوعية، فهي ربما تضخم اختلالات القوة، وتفتح الباب أمام الإكراه والتلاعب من جانب الطرف الأقوى» [٢٢]. ويؤكد هذا الأمرَ آخرون، سواء في حديثهم عن الوسائل البديلة عموماً، أم عن بعضها فقط؛ من مثل الوساطة، التي يقول الباحث العراقي عدنان سلطان، راصداً بعض ثغراتها ونقائصها: «إن

الوساطة لها منتقدوها، وحُجّتُهم أنها قد تتعامل مع الأمور في صورة صفقات، تتم مع الجانب الأقوى، وترمي بالمظلومية على الجانب الضعيف؛ فليس كل الوُسَطاء لهم المزايا النبيلة في التعامل في حلّ الخلافات، وليسوا كلهم يبحثون عن المعاني الإنسانية، وتهمّهم التحولات الإيجابية في المجتمع؛ ولذا، فقد تكون الوساطة وَبالاً، تبتعد عن الأخلاق العادلة، وتلجأ إلى التسوية في خسارة الجانب الضعيف؛ وبذلك، تزيد من المظلومية في المجتمع، ولا تحقق القدْر المعقول من العدالة المفتَرَضة فيها».

وقد سبق أن عدّ كادييت (Loïc Cadiet) هذا الأمر أحد أبرز خَطَرَيْن يطرحهما اعتماد الوسائل البديلة في تسوية النزاعات؛ مما يؤكد - حَسبَه - أن الحل غير القضائي للنزاع لن يكون أكثر ديمقراطية من نقيضه. يقول: «يمكننا القول إن التعاقدية، باعتبارها السمة الأبرز للطرق البديلة التفاوضية الحل، والاتفاقية بالأساس، هي التفافُ أصحاب المراكز الاقتصادية القوية واقعياً على أمانةِ وضمانات المسار القضائي أو الدعوى؛ فلا تكافؤ أسلحة بين الأطراف، ولا حياد حقيقي من الغير القائم على المسار؛ بحُكم الواقع المجتمعيّ، الذي يبقى الوسيط أو المُوفّق من إفرازاته، والذي - بحكم الواقع، أو حتى المنطق - ربما لا ينظر إلى المشغّل كالأجير، ولا ينظر إلى المرأة كالرجل، ولا ينظر إلى الزوجة كالمطلّقة، ولا قاعدة أو قانون يجْبره على ذلك، والأهمّ أنه لا ينظر إلى المسار، وما يمكن أن يحققه، وإنما فقط إلى الحلّ، الذي غالباً ما يبدو له نفسيّاً أنه ينبغي الوصول إليه؛ لأنه بدأ له عادلاً، ولكنه عادل بمعيار شخصيّ. وهنا، يبدأ، بوعي أو بدون وعي، متأثراً بما يُفترَض أنه ينبغي أن يُراعيَه إزاء الطرف القوي، وليس الضعيف، بالتوجيه نحو ذاك الحلّ» [٢٣].

ويتمثل الخطر/ التخوف الثاني، الذي يحُدّ من فعالية بدائل العقوبة المعهودة، حسب الفقيه نفسه، في أن تطور الطرق البديلة اختيار سالب وحُكمي Par défaut، في جزء كبير منه، يلجأ إليه الأطراف عادةً مُجْبَرين، ويتيح لبعضهم (الأقوياء خصوصاً) إمكانية الإفلات من العقاب، ويعكس، في جانب منه، إفلاس المؤسسة القضائية، وفقدان الثقة في فعالية دورها ومدى قدرتها على توفير ضمانات المحاكمة العادلة. فـ«الحل الوُدّي للنزاعات ليس بالضرورة أكثر عدالةً من الحل القضائي. ومثالُ ذلك المادة التعاقدية؛ بحيث إن الأطرافَ المتنازعة ليست، بشكل طبيعيّ، متساوية، ولا تمتلك بالضرورة الدراية التقنية نفسها، أو القدرة الاقتصادية نفسها. تخاطر العدالة الودية، أو التعاقدية، إذاً، بأنْ تكون عدالة من الأسفل Au rabais، من درجة ثانية؛ عدالة تحتية سيؤدي تكاليفَها المُتقاضُون الأكثر تسليحاً فكرياً أو اقتصادياً».

كما يمكن أن يكون مصدر الخطر في لجوء أطراف المخاصمة إلى الوسائل البديلة هو الغير الذي يُختار ليرعى العملية، والذي لا يلزم الحياد أحياناً، بل ينحاز إلى طرف من دون آخر؛ فتضيع العدالة في خضمّ ذلك. يقول أحدُ الباحثين في موضوعنا، عن تلك الوسائل: «إنها تتيح للغير القائم على مسار (التسوية) سلطة إستراتيجية واسعة للتحكم في المناقشة؛ مما يفتح الباب واسعاً أمام انحياز هذا الغير. كما يمكن أن يؤثر هذا الانحيازُ في تحديد القضايا واختيارها، والنظر في خيارات التسوية وتصنيفها، وفي الكثير من العناصر الأخرى التي تؤثر في النتيجة. وتبعاً لذلك، مرةً أخرى، كثيراً ما نتج عن الطرق البديلة نتائجُ غير عادلة» (٢٤).

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، ومن غيرها، ظهرت موجة من التشكيك في نجاعة الوسائل البديلة لتسوية النزاعات، بعدما كان الخطاب السائد هو تثمين هذه الطرق، والنظر إلى إيجابياتها فقط، دونما التفات، بقصد أو دونه، إلى ما قد تنطوي عليه من مظاهر سلبية، في صورة نقائص ومخاطر. ولعل أبرز ما ألحّت عليه تلك الموجة، التي تنامت مع مرور الزمن، ولا سيّما عقب بروز جملة من ثغرات تلك الطرق وسلبياتها، أنه «لا يجب نسبة الكمال، بإفراط، إلى الطرق البديلة، وجعلها كما لو كانت مثالية بإطلاق. فعددٌ من الكُتاب يعتقدون أن الأمر يتعلق بأفضل صيغة يمكن تصورها للعدالة؛ لأن مجموع الأطراف المتنازِعة تقبل الحل المقترَح. الحل لم يعد مفروضاً، بل أصبح مقبولاً، لكن لا يجب أن نبخس أو نقلل من نزاعات المصالح التي تستمرّ. بالتأكيد، توجد مصلحة مشترَكة في التسوية التفاوضية للنزاع، لكن خلف المفاوضات تكمن نزاعات مصالح، بل من الممكن حصول «الخسارة» نتيجةَ وساطة، كما أنه من الممكن الانتهاء إلى عقد بشُروط مُجْحِفة» (٢٥).

إن التركيز المبالَغ فيه، أحياناً، على الطرق البديلة التفاوضية، والنظر إليها بوصفها آليات ناجعةً في مجال تسوية المنازعات، أفضَيَا إلى نتائج مدمّرة للعدالة، من أبرزها، حسب جان بابتيست راسين (J. B. Racine) (٢٦)، أن نمو تلك الطرق خلق نوعاً من الاضطراب أو عدم التنظيم (Déréglementation)، المدعوم، بوعي أو دونه، من قبل الجهات الرسمية نفسها؛ مما فسح المجال لظهور مَرافق أخرى، متأثرة بمنطق السوق، تنافس بقوة العدالة العمومية؛ من مثل قطاع الاتصالات، ولا سيّما في ظل توجه أغلب الدول اليومَ إلى اتباع سياسة الخَوْصَصة، ونقل ملكية المرافق العامة إلى الخواصّ، وهو ما أسفر عن نمو عدالة خاصة تتجه، بخطاً حثيثة، نحو الانتظام في شكل سوق؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى مراكز التحكيم والوساطة المنتشرة على الصعيد العالمي. كما أن هذه العدالة تجتهد في تطوير خِدماتها،

فـي مجال حل المنازعات سلمياً، لتكون لهـا فاعلية وجاذبية وتنافسية في سوق العدالة. وهي، بذلـك، إنمـا تشكل منافِساً قوياً للعدالة العامة، وإن ظـلّ ميدانها غير مهيكل، وغير منظم بما يكفي، زمناً ليس بالقصير.

ومـن تلـك النتائج، كذلـك، أنّ نمـو تلك الطـرق سيفرض عمـلاً كبيراً في مجـال تكوين القائميـن عليها، ولا سيّما الوسطاء والموفِّقون. ولهذا، نـرى دورات تدريبية كثيرة تنظَّم، هنا وهنـاك، لتحقيـق الغاية المذكورة، وتُتـوَّج بمنح شهـادات ودبلومات مختلفـة، وبعضها يُنظم عـن بُعـد؛ باستثمار تكنولوجيا المعلومـات والتواصل الجديـدة (NTIC). كما ظهر، في هذا الإطار، مدرّبون يحترفون هذا التكوين، يُقْبل على الاستفادة من خبراتهم وخدماتهم، على نحو متزايـد، الراغبون في تعلم مهـارات الوساطة والتحكيم وغيرهما من طـرق تسوية النزاعات سلميـاً. ويثور، هـا هنا، تساؤل مشروع عن إمكـان تحول الوساطة أو التوفيـق إلى مهنة قائمة بذاتهـا. والواقع أن الإجابة عن هذا التساؤل لم تكن موحدة ووحيدة، بل انقسم فقهاء القانون فيهـا إلى فريقين؛ فريقٍ يعترض على تحول الوساطة، وغيرها من طرق تسوية النزاعات ودياً، إلـى مهنة؛ كمـا أكد الفقيه الفرنسـي بلييـتّ (M. Pluyette)، لمّا ذهب إلـى أن «الوساطة القضائيـة» لا يجب أن تكون مهنة مستقلة، بل تظل مجرد خدمة طوعية تقدَّم لمساعدة أجهزة العدالـة الرسمية في حلّ النزاعـات المعروضة على أنظارها. في حين ذهـب آخرون إلى أنه لا مانع من تحول أيٍّ من تلك الطرق (الوساطة الاتفاقية أنموذجاً) إلى مهنة حقيقية، ولا سيّما في ظل وجود سوق متنامية للعدالة الخاصة في الوقت الراهن.

وبالنظر إلى ما سلف، سُجّل أن الطرق البديلة؛ كما تراها نظرية «تكريس اختلال التوازن»، تحمل بين طياتها عوامل ضعفها وإخفاقها، وليست بتلك الهالة التي صوّرتها بها النظريات التي تؤيّدهـا؛ ذلك بأن «الاتفاقية، والتعاقديـة، والمرونة، والبُعد عن الرقابة، والتحرر من القواعد القانونيـة الموضوعيـة والمسطرية... أمور جعلـت الطرق البديلة، وبشكـل -ربما- مقصود، لا تؤسـس نماذج قاعِديّة معيارية يمكن التأسيسُ عليها، والعودة إليها. وإذا كان النظام العامّ، والبحـث عن المصلحة العامة؛ لاستمـرار المجتمع في حدود دُنيا من العدالة، واحترام قواعدَ قد تكون غير ملزمة، يحمي الجماعة في الأساس، فإنّ كل ذلك يتلاشى في كُنْهه؛ لأن الحلول، ضمـن الطـرق البديلة، هي حلـول فردية وغيـر مُذاعة؛ مما يَهْـدم فكرة التأسيـس لمرجعية معياريـة، تظهـر فيها العدالـة بمعايير موضوعيـة لا شخصية، وبما كان يـؤدي إلى المصلحة العامة في الأخير»[٢٧].

اتضح، مما سلف، أن المسلك القضائي لم يعد الطريق الوحيد الذي يجب اتباعه لفض نزاع ناشئ في أي مجال من المجالات، وإن كان هو الطريق الأصيل والمألوف، بل ظهرت - لعدة اعتبارات موضوعية - وسائل أخرى بديلة لتسوية المنازعات ذات فعالية ومزايا عدة، تحقق الغرض نفسه الذي يرومه الجهاز القضائي، بل إنها تكون، أحياناً، أنجعَ من سواها؛ بالنظر إلى ما تمتاز به من إيجابيات ومميزات ذكرْنا بعضها في مقدمة هذا المقال. على أن هذه الوسائل ليست وليدة اليوم؛ كما قد يتوهم بعضهم، بل هي قديمة، عرفتها شعوب وحضارات كثيرة، ومارستها في فض المنازعات الناشئة بين أفرادها، وكان لها حضور، لا سبيل إلى إنكاره، في المدارس الفقهية الوضعية، وبالتحديد لدى تيارين معروفين باجتهاداتهما المائزة في التنظير لمكافحة الإجرام، وهما المدرسة الوضعية وحركة الدفاع الاجتماعي. وامتد ذلك الحضور إلى الفقه والنظريات المعاصرة في المجال القانوني، التي يُميَّزُ فيها بين نظريات مؤيِّدة لتلك الوسائل؛ لِما رأته فيها من فعالية وقدرة كبيرة على تسوية المنازعات وُدّياً، من دون اللجوء إلى القضاء العادي، وأشهرها ثلاث: نظرية الإرضاء، ونظرية العدالة الاجتماعية، ونظرية التحول (التمكين والتقدير)، وبين نظريات مقابِلة منتقِدة ورافضة لتلك الطرق البديلة؛ لِما لمسته فيها من نقائص وعيوب وسلبيات تحدّ من نجاعتها في تصورها، ولعل أهم أنموذج يمثلها هو النظرية المسماة بـ«نظرية تكريس اختلال التوازن».

وما نَوَدُّ أن نَختِم به موضوعنا هذا هو تأكيدُ أهميةِ تلك الطرق، الهادفة إلى تقديم حلول سلميّة أو ودّية للنزاعات والخلافات في شتى المجالات، وتجذرها في ماضي البشرية البعيد، واهتمام فقهاء القانون بها، وقبلهم فقهاء الشريعة الإسلامية، وتنوعها الملحوظ بين الصلح والتفاوض والوساطة والتوفيق والتحكيم وغيرها، علماً بأنها اليوم مقننة، بشكل كبير، في عدد من الأنظمة التشريعية، وللمغرب إسهام وجهدٌ في هذا الإطار، وإنْ كان بحاجة إلى مزيد من العمل لترسيخ تلك الآليات الجديدة لفض المنازعات. ولا مناص من بذل مجهود أكبر للرقي بهذه الطرق، وتبويئها المكانة التي تستحقها، والتوسع في استعمالها لفوائدها ومزاياها الكثيرة، ومحاربة أي تصورات خاطئة بشأنها؛ من قبيل النظر إليها كعلامة نقص يلجأ إليها الطرف الراغب في تفادي جزاء ما.

الهوامش:

(١)- رزان صلاح: الوسائل البديلة لحل المنازعات، مقال منشور إلكترونياً بتاريخ ٢٠١٨/٠٩/٣٠. انظر نصه على الرابط الآتي: https://mawdoo3.com

(٢)- من مقالٍ مطوّل مُتاح على الشابكة، بعنوان «الوسائل البديلة لحل النزاعات»، منشور بتاريخ: ٢٠١٤/١٢/٢٢. انظر نصه كاملاً على الرابط الموالي: https://alhoriyatmaroc.yoo٧.com/t1329-topic. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٠/٠١/١٨، في الساعة ٢٠،٠٧.

(٣)- إننا نفرّق - على غرار ما يفعله كثيرون - بين ما هو حديث وما هو معاصر.

(٤)- ابـن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطـرق «البديلة» لمعالجة النزاعات – نحو نظرية عامة، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ٢٠١٩، ص ١٠٣، بتصرف.

(٥)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٤.

(٦)- عدنـان عباس سلطان: قراءة فـي كتاب «تحقيق أهـداف الوساطة: مواجهة المنازعات عـن طريق التمكين والتقديـر المتبـادَل» لبوش وفولجر، مقال منشـور في موقع «شبكة النبأ المعلوماتيـة»، بتاريخ: ٢٠١٠/١٢/٢٢. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٠/٠١/٢٠، في الساعة ٢٣،١٦. انظر نص المقال كاملاً على الرابط: https://annabaa.org/nbanews/2010/12/166.htm

(٧)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٨)- روبرت أ. باروخ بوش وجوزيف پ. فولجر: تحقيق أهداف الوساطة – مواجهة المنازعات عن طريق التمكين والاعتراف المتبادل، تر: أسعد حليم، من منشورات الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، مطابع المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ٣٧.

(٩)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١٠٥-١٠٦.

(١٠)- روبرت بوش وجوزيف فولجر: تحقيق أهداف الوساطة...، ص ٣٩.

(١١)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، ص ١٠٧.

(١٢)- عدنان عباس، سلطان: قراءة في كتاب «تحقيق أهداف الوساطة...»، م. س.

(١٣)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، ص ١٠٧.

(١٤)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٦.

(١٥)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٧.

(١٦)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١٧)- المرجع السابق نفسه، ص ١٠٨.

(١٨)- روبرت بوش وجوزيف فولجر: تحقيق أهداف الوساطة، مرجع سابق، ص ٤١، بتصرف.

(١٩)- عدنان عباس، سلطان: قراءة في كتاب «تحقيق أهداف الوساطة...»، م. س.

(٢٠)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢١)- روبرت بوش وجوزيف فولجر: تحقيق أهداف الوساطة، ص ٤٣.

(٢٢)- المرجع السابق نفسه، ص ١١١-١١٢.

(٢٣)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١١١.

(٢٤)- روبرت بوش وجوزيف فولجر: تحقيق أهداف الوساطة...، ص ٤٣.

(25)- Jean-Baptiste Racine: Pluralisme des modes alternatifs de résolution des conflits. pluralisme du droit. l'Hermès. Lyon. 2002. P 16. (نقل بواسطة)

(26)- Ibid. PP 16-17.

(٢٧)- ابن خدة، رضى: مدخل لدراسة الطرق «البديلة» لمعالجة النزاعات، مرجع سابق، ص ١١٥.

* * *

سلوى بكر
والكتابة عن النساء

بدران المخلف

عندما بدأت سلوى بكر تنشر أولى قصصها في عام ١٩٧٩، لم تكن قد احترفت الأدب، وبالتحديد لم تكن قد اختارت فن القصة القصيرة كي تكون إحدى كاتباته المجيدات في ظرف سنوات قليلة، إذ كانت قد حصلت على بكارليوس التجارة عام ١٩٧١، وبعد ذلك التحقت بمعهد الفنون المسرحية، وحصلت على شهادته عام ١٩٧٦، وكتبت بعضاً من المقالات في النقد المسرحي، مثل دراساتها عن نجيب سرور، وهذه الدراسة كانت مشروع تخرجها، ثم كتبت عن مسرحيات تكاد تكون مستبعدة لأسباب مختلفة لكتّاب من جيل الستينيات مثل ميخائيل رومان، ومحمد الفيل وغيرهم. هكذا كانت سلوى قد وطدت نفسها على أن تسير في طريق نقد المسرح، وذلك تبعاً لدراستها الجامعية، ولأنها كانت تهواه في ذلك الوقت، وكان فاعلاً وجاداً، وكانت أسماء محمود دياب وسعد الدين وهبة ونعمان عاشور وألفريد فرج ما زالت تعطي، وهذا كان يحفّز الكتّاب والنقاد والممثلين الشباب أن يتمسكوا بالعمل بكل حماس، وكانت سلوى بكر من الذين يتطلعون إلى مستقبل باهر في مجال الثقافة والفنون، وأودُّ أن أضيف بأن الشباب الجامعي المثقف في ذلك الوقت، كان مشاركاً في الأنشطة السياسية عبر الأسر الجامعية، وسلوى كانت إحدى المشاركات بقوة في الحركة الطلابية بكل حيوية.

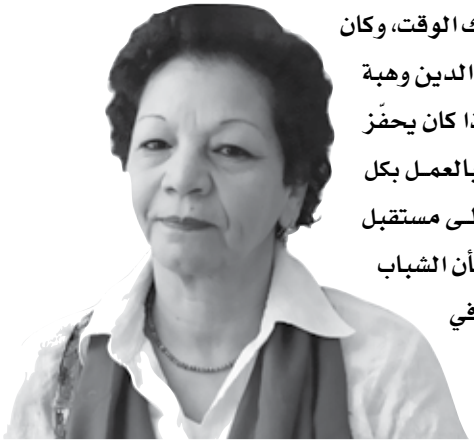

الكاتبة المصرية سلوى بكر

لـم تسلّم سلـوى بكر نفسها تماماً لكتابـة المقالات والدراسات النقديـة ومتابعة المسرح، ولكنها كانت تمارس هواية أخرى بين الحين والآخر، وهي كتابة القصص القصيرة، ولم تُقبل علـى نشـر تلك القصص قبـل أن تعرضها على أحد كتّـاب القصة أو النقـاد، وبالفعل عندما قـرأ لها الكاتب يحيى الطاهر عبد الله، قـال عنها إنّها ستكون كاتبة عظيمة، وبناء على ذلك، نشـرت سلـوى بكر كراسة صغيرة فـي سلسلة الفنـان والناقد التشكيلي محمـود بقشيش، في سلسلـة أسماها «آفـاق ٧٩»، وضمَّت الكراسة قصتين قصيرتيـن، وكانتا أول قصتين تنشران لسلـوى، وهمـا: حكاية بسيطة، والـزار. ورغم أنهما باكـورة نشر الكاتبة الشابـة، ونشرتا في كراسة متواضعة فإنهما أحدثتا ردود فعل طيبة وقوية.

لا بـد أن نتذكر أنه في تلك الفتـرة، نهاية السبعينيات، ومطلـع الثمانينيات، كانت الكتابة تجريبيـة إلى حـد كبير، وكان الكتّـاب في الشعر خاصة، ثـم في القصة القصيـرة والرواية، مشغوليـن بما يسمى تفجير اللغة، وكان هناك مبدعان كبيران في مصر يكرسان ذلك الاتجاه الـذي يجعـل من اللغـة بطلاً أساسياً فـي الفن، هذان المبدعـان هما: الكاتـب الروائي إداور الخـراط، والشاعر محمـد عفيفي مطر، ولكل واحـد منهما تلاميذه ودراويشـه الذين يلتفون حولـه، وقلـدوا كتاباتهمـا بشكل أو بآخـر، فضلاً عن شيوع بقايـا فانتازيا وبعض السيريالية المتفشية في كثير من الكتابة المنتشرة والمؤثرة في ذلك الوقت، كما أنها كانت كتابة معتمدة، وما عداها فهو ضرب في التيه.

مـن هنا كانت أهمية قصتـي سلوى اللتين نالتا الإعجاب، وأحدثتـا ردود الفعل القوية، رغم أنهما جاءتا من العالم الواقعي المباشر الذي ترفضه الذائقة النقدية النخبوية آنذاك، وارتبطت كل قصة من القصتين بهموم إنسانية مباشرة، فقصة «حكاية بسيطة»، تحكي قصة سيدة أرملة، تتعرض لموقف «التحرش» وهي عائدة من العمل في إحدى وسائل المواصلات المزدحمة.

عنوان القصة «حكاية بسيطة» كما أسلفنا القول، وبالفعل هي حكاية بسيطة، ولكنها تندرج تحـت عشرات الحكايات المسكوت عنهـا، والمضمرة في كثير من الحكايـات الكبيرة. القصة كانـت صادمة من حيـث فكرتها وطرحها في ظـل طروحات قصصية لا تكـاد تلامس الأرض، وجـاءت مكتوبة بلغة بسيطة وممتعة وبمفردات قريبة إلى اللهجة العامية رغم فصاحتها، وهذه ملامح صارت سمات رئيسة في كتابات سلوى بكر التي أتت بعد ذلك، مع كثير من التطوير الذي عرفناه في الإنتاج الوفير الذي نشرته عبر أربعة عقود ونيف.

لـم تمـر بضعة شهور بعـد نشر الكراسـة الأولى، وبعـد الترحيب أو الجدل الـذي دار حول القصتين القصيرتين، وكانت القاهرة آنذاك في أوج نشاطها الفكري والأدبي والسياسي، حتى نشـرت سلـوى كراسة أخرى في سلسلة «آفاق ٧٩» عند محمـود بقشيش، تضمنت قصتين هما:

«الخصبة والجدباء»، و«تعالي يا شمس». القصة الأولى تتعرض لأم وابنتها، الابنة متزوجة منذ سنوات قليلة، ولكنها لم تنجب، وجربت الأم وابنتها الذهاب إلى كل الطرق التي تذلل عملية الحمل والإنجاب، وبرعت سلوى في سطور مكثفة، في عرض كل الطرق التي تسلكها النساء في مثل هذه الأمور، من الوصفات الشعبية التي تفرض «أنماطاً» من السلوك والطلبات المالية والعينية والأوامر، والأطباء الذين فشلوا في الوصول إلى حل أو نتيجة أو حتى إعطاء الأمل في إنجاز. من هنا بدأت رحلة الوصفات البلدية، والأحجبة المركبة، والبسيطة، والملغمة، وبعد سلسلة من المتاعب والذهاب والإياب إلى كل تلك المقاصد التي ذكرناها، لم تطرق السعادة باب الابنة، ولكن الأم شعرت بألم شديد في بطنها، والمفاجأة التي أدركها الأهل بعد زيارة الطبيب، أن الأم هي التي حملت، وظلّت الابنة تعاني من عدم الإنجاب. وفي ندوة أعدت في فندق القاهرة شارك فيها الناقد الراحل الكبير إبراهيم فتحي رحمه الله، وهو أول النقاد الذين دفعوا سلوى للأمام، وقدم قراءة عميقة في القصتين، وتأويلين في القصة التي لخصناها؛ التأويل الأول واقعي محض، وهو النقد الذي قدمته سلوى لتلك الطرق والوصفات التي لجأت لها الأم وابنتها، وهذا يدل على أن المجتمع ما زال متأخراً عن المنظومة العلمية التي تغزو العالم بدرجات مختلفة. والتأويل الآخر رمزيٌّ، حيث إنه افترض أن الابنة هي الجيل الجديد، والأم هي الجيل القديم، ورغم كل المجهودات التي بذلت لحل مشكلة الابنة، فإنّ الأم هي التي حملت، ويرى فتحي بأن الكاتبة أرادت أن تقول إنّ الجيل القديم ما زال يعطي، والجيل الجديد لم يأتِ دوره في العطاء، وأضاف فتحي بأن كل ذلك أبدعته سلوى في بناء قصصي ممتع، وفي لغة طيعة وسلسلة، ولها جماليات الكتابة التي تنحو إلى الصفاء والنقاء اللغوي، بعيداً عن كل الأشكال التجريبية التي كان يقدمها الأدباء الجدد والقدامى.

رغم أن تلك الفترة كانت حيوية من الناحية الأدبية والثقافية، فقد كانت الحياة الاجتماعية خانقة، فكتّاب وأدباء كثيرون تركوا أعمالهم ووظائفهم، وكانت سلوى بكر تعمل مفتشة تموين، وذلك عمل يحتاج لمرونة اجتماعية عالية، لأنها كانت تخرج مع حملات شرطية لضبط بائعين يغشون في البيع والشراء، ويستلزم الأمر اصطحاب رجال الشرطة لإجراء محاضر، وهذا عمل شاق على أي امرأة، فما بالنا لو كانت تلك المرأة كاتبة ومبدعة وفنانة، لذلك قررت سلوى بكر أن تترك الوظيفة، وفعلت مثلما فعل مثقفون وأدباء كثيرون، وذهبت إلى بيروت، قبلة كل المثقفين العرب في ذلك الوقت، وعملت محررة في دار الفارابي، ومارست العمل الصحفي بشكل شبه منتظم في صحف ومجلات لبنانية، ولم تترك حلم القصة القصيرة الذي كان يطاردها طوال الوقت، وكانت تنشر بعض قصصها في صحف ومجلات قاهرية ولبنانية، ووجدت ترحيباً واستقبالاً طيبين من النقاد والباحثين، وهناك منّ نوهوا بقصصها قبل أن تنشر في كتاب، مما دفع سلوى إلى الأمام كي تثق في أنها اختارت طريقاً أدبياً يناسبها، يليق بها وتليق به.

كانـت بيروت في ذلك الوقـت تعيش غلياناً متعـدد الوجوه، وجه الصراعـات الطائفية التي كانت تمـزق لبنان بشكل يومي، ووجه التدخلات الإسرائيليـة السافرة، التي كانت تحدث بشكل متواتـر، وهنـا وجد الجميع أنفسهم في حرب لا بد أن يكونوا فاعلين فيها، كل من موقعه الفكري والسياسـي والأيديولوجي، ولكن الهـدف الأعظم هو الدفاع عن لبنان، وتفاصيل الحرب معروفة ومدونـة فـي أدبيات كثيرة، ولا توجد الدواعي التي تجعلنـا نكرر ما خاضت فيه صحف ومجلات وكتـب وتقاريـر كثيرة آنذاك، وكان المثقفون قد شاركوا بكل مـا استطاعوا في تحرير المجلات والصحـف التـي كانت تصدر، وصـدرت بصدد الحرب، مثـل مجلة «المعركة» التـي كتبت فيها سلـوى بشكـل يومي، ثم كانت وجهة سلوى بكر إلى قبرص، وفي ذلك الوقت كثّفت سلوى كتاباتها الصحفية، وكذلك كتبـت مجموعتها القصصية الأولى (زينات في جنازة الرئيس) في قبرص، ونشرتهـا فـي القاهرة___على نفقتها الخاصة___ عام ١٩٨٦، وفـور صدورها كتب عنها النقاد صافـي ناز كاظم، والدكتور جلال أمين، والدكتور سيـد حامد النساج، وقوبلت بكل ترحيب فقد جـاءت القصـص بالفعل كـي تعبر عن ذائقة كانت معطلـة بعض الوقـت، أو مستبعدة قليلاً من الكتابات التي تكاثرت. ليست كتابات سيئة، ولكن الكثير منها كان تغريبياً وتجريبياً ومتأثراً إلى حـد كبير بالاهتمام بالحيل اللغوية التي أغـرق فيها إدوار الخراط وتلاميذه، وهذه كانت مرحلة ارتفـع فيها نجم إدوار الخراط الذي كان يتابع تلاميـذه، ويكتب عنهم، ويذهب إلى ندواتهم في أي مكـان، ويرشح كتاباتهم إلى الترجمة، وجاءت قصـص سلوى بكر لتسد نقصاً فنياً وإبداعياً في تلك المرحلة، هناك مزيج من الحس الشعبي الاجتماعي الذي يتماس مع قضايا طبقات دنيا مـن المجتمـع، دون مباشرة ولا هبوط لغوي، وفـي إمتاع وبناء فني بديعين. ففـي قصة أسمتها الكاتبـة «أم شحتة التي فجرت الموضوع»، وهي سيدة بسيطـة تعاني كثيراً من أزمات اجتماعية ومادية مثل القطاعات العريضة من الشعب، وكانت كثيراً ما ترسل رسائل إلى رئيس الجمهورية كـي تشكو له شظـف العيش وضيق الحياة وقلّـة الموارد، والبطالة التي كـان يعاني منها الناس، كانت الخطابات تكتب بلغة بسيطة، ولكنها لغة معبرة ومكثفة، إنها بلاغة الفقراء عندما يعبرون عـن أنفسهم. واعتادت السيـدة أم شحتة أن ترسل تلك الرسائل منـذ عهد جمال عبد الناصر، وتقـول له في إحدى رسائلها: «مش معقول يا سيـادة الرئيس يعيش الشعب في كل تلك المعاناة، وحضرتـك لا تعلم». وكثير من تلك العبارات البسيطة التـي تتدفق بها الكاتبة دون أن تهبط إلى اللغة الدارجة، ولكن سلوى كانت حريصة على أن تدرج كثيراً من المفردات التي كانت مستخدمة في لغة الناس في الشارع وفي البيت وفي العمل، ولكن كل تلك المفردات كانت لها جذور في اللغة العربيـة، وعبر مسيرة الكاتبة الطويلة، استطاعـت أن تبدع معجماً لغوياً خاصاً يحتاج إلى رصد وتحليـل وقـراءة سوسيولغوية إذا صحّ الاشتقاق، وهذا سوف ينطبق على كتّاب كثيرين في مصر وكل البلدان العربية التي يتحدث أهلها اللغة العربية الدارجة، ولكن في لهجات مختلفة.

لـم تكـف أم شحتة عن إرسال رسائلهـا، ولكن الرئيس لم يرد عليها مـرة أخرى، فتحولت الرسائـل إلـى حالة من العتـاب والشجن، للدرجة التـي عدَّت فيها جمال عبـد الناصر واحداً مـن عائلتها، حتى بعد رحيله بكت عليه بهذا المعنى، حتى أتت لحظات فاصلة خرجت فيها أم شحتـة مع بقية قطاعات وطبقات الشعب الذين خرجوا يطالبـون بحقوقهم التي كانت تطالب بهـا في كـل رسائلها، وتنتهي القصة لتظل رسائل أم شحتة مـن أجمل الرسائل التي كتبت من واحـدة من أبناء وبنات الشعب المطحون، إلى أعلى رأس في الدولة، رسائل تتجلى فيها بلاغة المطحونين في جمل دافئة وحميمية وحادة في الوقت نفسه.

ولكـن القصة الأكثـر حضوراً في المجموعة، هـي قصة «نونة الشعنونة». ومـن الواضح أن عنوان القصة ذاته عنوان ذو نكهة شعبية كما أسلفنا، والشعنونة في اللهجة المصرية الدارجة، هـي البنت التي تقول ما يحلو لها دون أي حسابات، ومقابلها الذكوري «الفاجومي»، أي الصادم فـي لغته وأفكـاره ومواقفه. هكـذا كانت الشعنونة فـي القصة التي تحولت إلـى فيلم تلفزيوني أخرجتـه الفنانـة الكبيرة إنعام محمد علي، وقامت ببطولته الفنانـة عائشة الكيلاني، والقصة تحكـي حكاية بنـت صغيرة أتى بها أبوهـا وأمها من الريف كي تعمل خادمـة عند أحد الأكابر، ومنذ أن تركها الوالد والوالدة في بيت الأكابر، أصبحت نونة واحدة من أعضاء البيت الجديد، رغم كـل أشكال التمييز الواضحة، فإنها مارست حياتها بشكـل طبيعي، وكانت تجاور المنزل، مدرسة ابتدائية، كانت نونة تستيقظ مبكراً قبل أهل البيت، وتتسلل إلى البلكونة كي تعيش حالة طابـور المدرسـة، وتتسلل في بعض الأوقـات كي تراقب المدرّسات وهـن يشرحن بعض المواد لتلاميـذ الفصل، ثم استطاعت أن تلتقط بعض المعلومات التي كانت تضايق بها ابن سيدتها، إلـى درجة تضايقَ منهـا أهل المنزل. كانت نونة تقاتل من أجل أن تقول «أنا هنا، ولا يوجد فرق بيـن عقلـي وبين عقل ابن صاحبة النعمة»، وكانت بشكل عفـوي وغير عفوي تبرز ذكاءها، ذلك الذكـاء الـذي يورطها في أمورٍ كثيـرة، ورغم ذلك، كـان أهل المنزل لا يضجـرون منها، حتى أصبحـت نونة جزءاً من المنزل، ومن المدينة، ونسيت البلـد والريف، حتى كبرت، وجاء أبوها كي يأخذها معه لأن هناك من جاء ليخطبها، وفي أثناء ذلك، تسللت نونة من منزل مخدومتها واختفت تماماً، ولم يُجدِ الذهاب إلى قسم الشرطة للعثور عليها في ذلك النهار الكئيب بالنسبة لأسرتهـا، ولكـن نونة حققت ما تريد بالخلاص من كل الأعباء التـي أثقلتها في منزل من تعمل عندهـم، ثم تمردت على الحل الذي أتى والدها مـن أجله. لم تتصور نونة بأنها ستنهي حياتها بـزواج لا تعرف عنه شيئـاً، رفضت أن يجرها والدها إلى قفص سيكبّلها طيلة حياتها، وهكذا تصبـح نونـة نموذجاً ملهماً إلى حد بعيد دون أي هتافـات وشعارات جوفاء، فرغم ذلك المعنى الكامن داخل القصة، فإنها لم تفقد البناء المحكم، واللغة الحادة والممتعة في الوقت نفسه.

بتلك المجموعة الأولى «زينات في جنازة الرئيس»، لم ترسخ سلوى بكر أقدامها في عالم الكتابة السردية فحسب، ولكن تَميَّزت بأنها اشتقت طريقاً خاصاً بكتابة لها نكهة ومذاق يخصانها دون غيرها في الحياة الثقافية، مما أكسبها مصداقية عالية بين الكتاب والكاتبات، وبدأت كتابتها تأخذ شكلاً خاصاً يشبه المغامرة اللغوية على مستوى البناء الفني، وطرح الأفكار الجريئة التي لم تطرق إليها كتابات سابقة. ولم تتأخر سلوى عن إصدار كتابها الثاني، مجموعة قصصية جديدة تتضمن رواية قصيرة، وذلك في العام نفسه ١٩٨٧، عن دار الفكر، وكان العنوان الذي جاءت به المجموعة «مقام عطية»، وتتضمن المجموعة رواية قصيرة هي «مقام عطية» التي اتخذتها المجموعة عنواناً لها، مع ثلاث قصص أخرى: «إحدى وثلاثون شجرة جميلة خضراء، بساط الريح، كيد الرجال»، وكانت «مقام عطية» بمنزلة الرواية الأولى لسلوى بكر، وذلك قبل عدد وافر من الروايات. الرواية أخذت شكل التحقيق، صحفية شابة، يستدعيها رئيس التحرير، وتندهش، لأن العلاقة بينها وبينه ليست على ما يرام، ولكنها تذهب لمقابلته، فيكلفها بإجراء تحقيق شامل عن مقام يدعى «مقام عطية»، وتندهش مرة أخرى، لأن المجلة يعمل فيها مئة وخمسون محرراً تقريباً، فلماذا يختارها هي خاصة، رغم التضييق الذي كان يمارسه عليها هو ومدير التحرير؟ وقبل أن تبحث عن صيغة مناسبة كي تطرح بها هواجسها، فاجأها رئيس التحرير بأنه اختارها لمعرفته بكفاءتها في إنجاز مثل ذلك الأمر الصعب، لأنها أولاً مثقفة ثقافة رفيعة، والأمر يحتاج إلى ذلك.. ثانياً لأنه يعرف عنها الجرأة، والتحقيق يستلزم ذلك، لأنها سوف تتعامل مع فئة متنوعة من الناس. ثالثاً لأنها ذكية، وذلك العنصر الأخير تقوم عليه كل خطوات التحقيق، والذي يتعلق بالترتيبات التي سوف تنظمها الصحفية الشابة عزة يوسف، وكان الأمر يتعلق بمقبرة لسيدة تدعى عطية، التي ظهرت علامات غريبة على مقبرتها الحديثة، فبعد أن دفنوها بمدة، فتحوا المقبرة، فوجدوا أن جسدها ظل طرياً لم يتحلل، ولم تطرأ عليه أي علامات ما بعد الموت، كما ظهرت أشياء غريبة في المقبرة، مثل شيء يشبه الذهب، ثم كثر الكلام حول المقبرة التي أراد الأهالي أن يحولوها إلى مقام لتلك السيدة «المبروكة»، فاهتمت كلّ الأجهزة الأمنية بالأمر، وكذلك سارعت مجلة الصباح التي كلفت الصحفية الشابة بإجراء تحقيق شامل. وبالفعل ذهبت عزة إلى عدد من الأطراف، منها حارس المقبرة الذي رفض الإدلاء بأي تصريحات حول الأمر، مما أثار حوله شكوكاً في المسألة برمتها، ورغم رفضه الإفادة بأي جملة في موضوع التحقيق، وحقيقة وجود أي مظاهر لبركة الست عطية، فإنّ الصحفية الشابة استطاعت أن تجري التحقيق كاملاً شاملاً ليتضمن معلومات كثيرة ومفيدة، وسُلِّمَ التحقيق للمجلة، ولرئيس التحرير شخصياً، الذي لم يحرك ساكناً لنشره رغم أهميته، والمثير أنه لم يخبر عزة بأي سبب لذلك، لكنها كانت محتفظة بصورة أخرى من التحقيق الذي شمل شهادات كثيرة، أهمها شهادة نجلها الذي يعمل أستاذاً للغويات في إحدى الدول الأوروبية، ولذلك كان يدلي برأيه بين الحين والآخر في شهادته

ببعض الآراء اللغوية، والتي لا يخفى على القارئ بأنّها آراء الكاتبة ذاتها، مثلما قال الابن الوحيد للسيـدة عطية، بأنه لم يحضر معه «صـوارة»، وهو يقصد الكاميرا، ويؤكد في شهادته صحة تلك المفردة، لأنه لا يحب استخدام مفردة «الكاميرا»، وهكذا تستخدم الكاتبة تلك الحيلة الفنية كي تدلي بكل تصوراتها الاجتماعية والفكرية والسياسية كذلك.

بالطبـع كانت تلـك السمة التي اتسمت بها كتابات سلوى بكر كلها، وهي أن هناك مستويين لمدلـول الكتابـة، المستوى الأول، وهو الحكايـة أو القصة المحبوكة والمتقنـة البناء، ثم تلك التدخـلات الكثيرة التي يتدخل بها الكاتب فـي الأوقات المناسبة، وبرزت تلك السمة في أعلى تجلياتهـا، في رواية «العربـة الذهبية لا تصعد إلى السماء»، والرواية تتحدث عن بطلة رئيسة، وهي عزيزة، قد دخلت السجن لأسباب جنائية، عندما حاول زوج أمها الاعتداء عليها، قذفته بآنيـة المطبـخ، فمات، وذهبت إلـى السجن، ومن شعورهـا المفرط والمتفاقـم بالظلم الذي وقـع عليها، أصابها بعض الخلـل العقلي، وفي إحدى الليالي العاصفـة، وبعد عمليات التفتيش التـي تقوم بها سجانـات قاسيات اعتدن على هذه القسوة أزمنـة طويلة من خلال تعاملهن مع مجرمات وقاتلات وبائعات مخـدرات، ومن خلال تلك الحكايات الغرائبية التي تتعلق بجرائم تكـاد تكون فريدة، وجدت سلـوى بكر الكاتبة مساحة ثرية وواسعة كـي تقول كثيراً مما يحدث فـي المجتمع على ألسنة السيدات المظلومـات دون أي رحمة، ولا بد أن ننوه بأن الكاتبة سلوى بكـر قد تعرضت للحبس في قضية سياسية عام ١٩٨٩، أي قبل صدور الرواية بخمس سنوات، وكانت قد تعرفت إلى سجن القناطر الخاص بالنساء، ويقال عنه «سجن النسا»، وبالتالي فهي كتبت تلك الرواية عن إدراك كامل بكل ما يحدث في ذلك السجن.

لـم تترك تلك السمة كتابات سلوى بكر ففي قصة «كـل هذا الصوت الجميل»، التي نشرت في مجموعة «عن الروح التي سرقت تدريجياً»، وتحكي عن سيدة تستيقظ صباحاً، فتجد لديها رغبـة جارفة فـي الغناء، فراحت تغني، ووجدت أن صوتها جميل، فقررت أن تصارح به زوجها عندمـا يأتي من العمل، وعندمـا صارحته بذلك، شكك في سلامة عقلهـا، وأصرّ أن يعرضها علـى دكتور نفسي، وهي تصرّ أن تخبر الناس جميعاً بموهبتها التي اكتشفتها في نفسها، ولكن الجميع للأسف خذلها، واعتقد أن خللاً عقلياً قد أصابها حديثاً. تلك القصة تُرجمت إلى عدة لغـات فور نشرهـا في الكتاب، كما أنّ كتابـاً قصصياً جمع عدداً من الكاتبـات العربيات نشر فـي القاهرة، وقدمت له الدكتورة لطيفة الزيات بدراسـة وافية، واختارت أن يكون عنوان تلك المجموعة القصصية المشتركة «كل هذا الصوت الجميل».

كتابـات سلوى بكر تحتاج إلى دراسات نقدية عميقة وواسعة، للكشف عن مساحات مازالت لم تُدرس حتى الآن.

* * *

متابعات

قراءات:

- الواقعية في قصص فاضل السباعي (الابتسام في الأيام الصعبة) نموذجاً — **عبد اللطيف الأرناؤوط**

الواقعية في قصص فاضل السباعي
(الابتسام في الأيام الصعبة) نموذجاً

عبد اللطيف الأرناؤوط

الأديب فاضل السباعي

من عنوان المجموعة القصصية (الابتسام في الأيام الصعبة) يستشف القارئ أبرز الخصائص الأدبية للأديب فاضل السباعي، في مرحلة تردّي الواقع العربي، وردود فعل الأدب على هذا الواقع الذي اتخذ مسارين: الشكوى ورفض هذا الواقع من خلال أدب ملتزم جامد يطرح شعارات يسارية وقوميّة حدّية ومباشرة تفتقر إلى روح الفن، أو رومنسيات شاكية بكّاءة تتقوقع داخل ذات فردية رفضت كل شيء، ورأت في الموت أو اجترار الذات خلاصاً لها، وبمعنى آخر كانت ردود فعل الأدب على الواقع عنيفة ومتطرّفة، إما أن تسحق الأمل وإما تحيله إلى أحلام فردية ذاتية يفرّ من خلالها الأديب من مسؤولياته الاجتماعية، ويهمّش دور الكلمة التي هي سلاحه في طلب الخلاص.

وما يُعجب في أعمال الكاتب فاضل السباعي أنه في كلٍّ ما كتب كان مؤمناً بإنسانية الإنسان، متفائلاً بقدرته على تخطّي الصعوبات والعوائق؛ إذ تُشعر أعماله بأن الدنيا ما زالت بخير، وأن الإنسان قادر على الانتصار على الشدائد، إذا واجهها بابتسامة الواثق من إنسانيته.

لقد أصدر فاضل السباعي ثلاث مجموعات قصصية وكتاباً في تراجم الأعلام عن المناضل «إبراهيم هنانو»، ثم تحوَّل إنتاجه الإبداعي إلى الرواية والقصة القصيرة معاً، فكتب ثلاث روايات وثلاث مجموعات قصصية، استغرقت كتابة كلٍّ منها ما بين عام أو عامين وشَجَّعه على نشرها نفاد طبعاتها الأولى وإقبال القراء عليها، ثم عَقبَ ذلك مدَّة ركود تفرَّغ فيها لإعادة طبع بعض أعماله، وإصدار رواية واحدة: (رياح كانون)، ثم استأنف نشاطه القصصي الروائي، وتابع نشر أعماله السابقة التي نفدت طبعاتها، ثم تحوَّل إلى كتابة سلسلتين من أدب الناشئة بعنوان: (أبطال العرب) و(نوابغ العرب)، وكتاب في أدب الرحلات بعنوان: (رحلة إلى المغرب)، ومجموعتين قصصيتين بعنوان: (هديل الحمام، والعصافير تستحم بمياه البركة).

يعدُّ الإنسانُ الفرد بكل ما تنطوي عليه أعماله وشخصيته المادةَ الأساسية لقصص السباعي، فهو ينطلق في رسمه وتحليله من ملاحظة الواقع المادي أو البيئة المكانية، وليس من القيم المثالية التي تتبناها الشعارات النظرية، فهو كاتب واقعي شديد الاحتفاء برصد العلاقة بين الإنسان الفرد وبيئته المكانية والتأثير المتبادل بينهما، وفي حين تنطلق واقعية الكتّاب الملتزمين من إيديولوجية مسبقة تُسقَط على الواقع بلون من القسر والرتابة والجمود، يرفض فاضل السباعي هذا القالب الذي يحاول أصحاب الإيديولوجيات اليسارية والقومية تطبيعه بجمود وحدّة وعنف في شعاراتهم المطروحة حول مفهوم الالتزام، ويحلّل عالم الإنسان الداخلي في شخصيات قصصه، ويُبرز خصوصية الشخصية وتنوّعها من خلال المواقف والسمات المميزة، مستفيداً من واقعية المدرسة الكلاسيكية، وما قدَّمته المدرسة الرومانسية من نزعة إنسانية في عصر النهضة من ثورة على الحواجز التي كانت تفصل بين الأدب الرسمي والشعبي، والاعتراف بموضوعات واقعيّة حياتيّة للأدب كان أدب البلاطات الرسمي يرفضها، فمثلما رأى «فيكتور هوغو» في (أحدب نوتردام) أن القبح يمكن أن يكون موضوعاً للأدب، يرى فاضل السباعي أن موضوعات مقززة كالمجاري مثلاً يمكن أن يعالجها الأدب القصصي، في حين يُخيّل لبعض من يرفض أن يلتفت الأدب القصصي إلى تفاصيل تافهة في الحياة لتكون موضوعاً للقصة كموضوع أزرار بطل قصته (الأزرار المقطوعة) أو بطل قصة (غش الأصحاب) بائع البطيخ، أن الأدب يتنزّه عن مثل هذه الموضوعات الهامشية التافهة، وأن الكاتب يحاول في نقل مثل هذه الموضوعات تزجية فراغ القارئ، وفات هؤلاء أن هموم الإنسان الصغيرة هذه التي تقضّ مضجعه إنما تعكس في الأعماق واللاشعور عالماً من النزوع الإنساني إلى التحرر من هواجسه المقلقة، فهي أصدق من قيم ومبادئ وشعارات كبيرة رنّانة لا تعكس بصدق وأمانة واقع الإنسان الفردي أو الاجتماعي ولا تُعبّر بصدق عن آلامه وآماله.

من هذا المنطلق يُعد «فاضل السباعي» كاتباً ملتزماً، يستمد التزامه وقيمه من الواقع

المعيش، ويربط بين الشروط الإنسانية للوسط الاجتماعي، وشخصية البطل عبر القيم الشعبية التي تصل تاريخياً ومكانياً بين الماضي والحاضر، وتستشرف المستقبل؛ ليس من خلال شعارات إيديولوجية قبلية، بل من خلال ردود فعل الإنسان على الواقع الذي يعانيه والقيم التي يؤمن بها.

واقعية «فاضل السباعي» تراوح بين الواقعية التسجيلية التي ترسم الإنسان كما هو كائن لا كما يجب أن يكون، ولكنها أيضاً توجّه حقيقته الإنسانية إلى التزام القضايا الإنسانية والاجتماعية الكبرى التي جعلتها الإيديولوجيات الغيبية والمادية شعارات لها، حين يرسم شخصياته كما هي ثمرة تفاعل بين الفرد والوسط المحصّل تاريخياً ثم يقوده تدريجياً إلى أن يعي أن هذه التفاصيل الصغيرة التي تشغل باله ترتبط بقضايا إنسانية وطنية وقومية نبيلة يعي أبعادها بالممارسة والتجربة العمليّة ويتبنّاها بالممارسة لا بالتلقين أو التوجيه الفوقي الذي يَنظر إلى الإنسان وكأنه كائن محدود الأفق محتاجٌ دوماً إلى العون والمساندة.

في قصة «المجاري» يختار السباعي موضوعاً منفرداً للذوق العام ولكنه من واقع حياتنا المعاصرة، فقد حملت التقنية متاعب مستجدة للإنسان بمقدار ما أراحته، هكذا يعزز التطور المادي والتقني صوراً من المعاناة، من مظاهرها في موضوع القصة الروائح القذرة والصراصير التي تستوطن المجاري وتكدر حياة الفرد، في حين كان الإنسان العربي في حياته الصحراوية والرعوية والريفية يعيش مع الطبيعة وفي حضنها وهي تتولى بحكم دورتها المتكاملة تنقية نفسها بنفسها. فالواقعية التسجيلية في القصة على تفاهة موضوعها تثير قضية إنسانية عميقة الأبعاد تتصل بنمط الحياة، ومشكلات التطور المادي في تظاهرية الفردية والاجتماعية. فمعاناة الإنسان الحضاري وقلقه من معايشة الصراصير في المجاري تستدعي مكافحتها بالمرشّة، وذلك بحد ذاته يفرض أخطاراً ويستهلك نفقات مالية، في حين كانت الفضلات الناجمة قديماً عن الحيوانات والطيور في نمط الحياة تحوّلها الطبيعة إلى سماد يجدّد دورة الأرض، وينقّيها... وروائح الزّبل في حياة الإنسان القديم أقلّ إزعاجاً من روائح الفضلات حين تتعطّل المجاري.

تتخذ السردية لدى «فاضل السباعي» طابعاً واقعيّاً موارباً، فهو يحرص ألّا يتورّط في عرض رؤيته الإنسانية مع النظام الذي تحمله بالإيديولوجيات السياسية مسؤولية كل تخلّف؛ لذلك تراه يهتم في قصصه بالوسط المكاني، وفي عرض رؤيته للتطور التاريخي ينأى عن أي طرح إيديولوجي، فبطل القصة يسرد بنفسه تجربته الحياتية من دون حاجة إلى وسيط يُملي عليه الشعارات، والمؤسسات الاجتماعية التي يعمل في إطارها غائمة المعالم، ليست مؤسسات رسمية أو خاصة يمكن أن تفرض إدانتُها إدانةَ نظام سياسي محدّد، فالبطل يعمل في (مؤسسة

الإنشاءات البديعة) وليس في مؤسسة تابعة لنظام سياسي في زمن محدّد، وسماته الذاتية محصّلة من تجربته الحياتية وممارسته، لا من شعارات فوقية مطروحة، فقد استمد إخلاصه في العمل من طبيعة تكوينه الفردي وعمله في إطار الجماعة. والنماذج الإنسانية التي يرسمها على المستوى الفردي والجماعي ليست أحاديّة الرؤية والسلوك ولا هي تمثل الخير كلّه أو الشر كلّه، هي نماذج واقعية تدرك جيداً مصالحها الخاصة وتعمل بدافع منها، ولكنها تتفاوت في ستر نواياها الأنانية، ومن ثم فإنها نماذج فردية لا تصلح للتعميم، فالبطل في القصة يتميز بإخلاصه في العمل في زمن قلّ فيه المخلصون، وانساقوا وراء مصالحهم من غير أن يستروها بقشرة من التظاهر الزائف بالغيرية وحب الصالح العام. وفي مثل هذا الواقع لا ينتظر الإنسان المخلص أن يكون مقدّراً بل غالباً ما يُتّهم بالسذاجة والغباء ويجور عليه رؤساؤه.

يتعامل «السباعي» مع البعد المكاني للقصة أكثر مما يتورّط في ربط المشكلات بإطار زمني محدد، فنحن لا نستدلُّ من سرد البطل متى وقعت القصة؛ لأن تحديد زمنها من شأنه أن يدين النظام السياسي الذي أفرز إنسانها النفعيّ. ويبرهن «السباعي» من خلال القصة أن إلقاء المسؤولية على نظام سياسي محدّد لا يخلو من تعصّب، فغالباً ما يجدُ النظام السياسي نفسه عاجزاً عن حل المشكلات، إمّا بسبب قلة إمكاناته المادية وإما بسبب افتقار الأفراد لروح المسؤولية والإحساس بالصالح العام أو تغليب المصلحة العامة على الخاصة، وقد تُردُّ معاناة النظام إلى أنه يواجه تحدّيات قاسية من الخارج في ظل قوى عالمية تكيد له وتعطل مسيرته في إطار النظامين الرأسمالي والإمبريالي، وإغراءات الحضارة الوافدة ونزعاتها الشهوانية والاستهلاكية.

في تعامله مع المسرود قد يؤخذ على السباعي التزامه الصارم بلغة سردية راقية المستوى، ورفضه التنازل عن جمالية اللغة وجزالة تعبيرها حتى في مواقف الحوار، ولو قورن أسلوبه السردي بأساليب نظرائه من الكتّاب الواقعيين المعاصرين مثل «محمود تيمور» الذي يلتقي وإياه في الواقعية التسجيلية بانَ لنا الفارق بين لغة «السباعي» الراقية والمتصلبة أو الخشبية وافتقارها إلى المرونة، وهو بذلك يخرق المبدأ الواقعي الذي تبنّاه في قصصه من حيث كسر الحواجز بين الأدب الرسمي ولغة الشعب المحكيّة. ربما يعود ذلك إلى غيرته على جمالية اللغة وسلامة تعبيرها بحكم أنها الوسيلة الأدبية التي تربط بين ماضي الأمة وحاضرها، وهي في الوقت ذاته المعادل الموضوعي للواقع الذي يفترض أن يكون من الناحية الأدبية ميداناً لإبراز جمالية هذا المعادل الذي يُغنيه عن التهويم في آفاق لغة هابطة عامية، أو الاسترسال وراء غموض رومانسي تنزاح فيه اللغة عن دلالاتها.

ما يُعجب حقّاً في قصص السباعي قدرته العجيبة على الغوص إلى أعماق القضايا الإنسانية، ومتابعة الوقائع والتفصيلات ورسم الشخصيات من الداخل والخارج، وكأنه وهو يسرد القصة

بلسان بطلها الراوي مختصٌّومراقب عليم بكل جزئيات المشكلة. هي واقعية تذكرنا بكتابات «عبد العزيز البشري» في مجموعته (في المرآة)، بل يتجاوزه السباعي في الإحاطة ببواطن الإنسان الداخلية وتحليله العميق للشخصيات، وبالجانب التِّقني الذي يعرض فيه التعقيدات والهواجس التي تثيرها حرفيَّة سرد القصة، وكأنه يعيش فيها ومعها. ربما يُؤخذ على القصة عودة بطلها إلى طرح الشعارات، التي نأى عنها المؤلف، فالعمال الذين كانوا يعملون آليّاً مع البطل يرفعون أبا ماهر لمهارته ويردّدون: عاش، عاش من يفكر. وكأنهم -وقد نجح في إراحتهم، وفتح كوَّة من الوعي العقلي في تجاربهم مع العمل- أحوج إلى من ينير بصيرتهم ويحسِّن شروط حياتهم من أدب موجّه يرفع الشعارات ويحثّ على العمل ويخاطب الجماهير، من فوق من غير أن يلامس الواقع أو ينطلق من القاعدة في إدراك معاناة الجماهير وترشيد ممارساتها وتوعيتها، وكذلك يبدو القاص السباعي حذراً حين يصور العلاقة بين العمال والمسؤولين. ثمة تراتبية في العمل يقدّمها القاص باعتدال، فالتعامل بين الرئيس والمرؤوس في القصة لا يتَّخذ طابعاً بورجوازياً يقوم على التمييز بين الطبقات باستثناء فروق في المظهر الخارجي وانقباض نفسي من كل مسؤول تجاه رائحة العامل، وبالمقابل بدا أبو ماهر بطل القصة في منتهى السعادة لأن رؤساءه يكلِّمونه. كان ذلك في نظره منّة وتكرماً، بل رأى في ذلك أكبر مكافأة ينالها، فالعلاقة بين الرؤوس والمرؤوس لم تكن علاقة رفاق عقيدة أو مبدأ وإنما علاقة تهيّب، ومرؤوس يشعر بالدُّونية والانسحاق أمام مسؤوليه، مثلما شعر بطل رواية «المعطف» أنه أساء للجنرال ولا يعرف كيف يكفّر عن جُرمه وهو ليس جُرماً، ما يوحي أن التراتبية الاجتماعية ما زالت تحمل لدى العمال أصداء من القهر والسلطوية في المجتمعات القديمة، مع أن المسؤولين أنفسهم يخضعون لهذا الإحساس أيضاً، على الرغم من تلطّفهم مع بطل القصة، وثنائهم عليه.

ويختم الكاتب القصة بتصوير إحساس بطلها الذي شعر وكأنه خُلِق من جديد: «في البيت أخذت حمّاماً ساخناً، فطهّرت جسمي مما علق به من أقذار بالمجاري المسدودة، ولكنني كذلك غسلت صدري مما شابه من أكدار، أدركت أني أعمل عقلي وفكري خيراً مما يفعل غير واحد من رؤسائي، وأهل الكلمة النافذة في عملي، وأما التقدير فحسبي ما لقيت من العمال العشرة الذين عملوا معي. وما همَّني بعد ذلك شيء قط... وغفوت في ليلتي قرير العين وحلمت؛ حلمت بأني أسهر على أمر المجاري وأزرع شطآنها أشجار حور ووروداً وياسميناً... وزروعاً كثيرة لا حصر لها».

في قصته الثانية من المجموعة بعنوان: «الأزرار المقطوعة» يتناول القاص السباعي موضوع صورة الإنسان العربي في عالم الاقتراب وصورة الآخر في نظره، وهو موضوع عالجته القصص والروايات من قبل، فكتب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق»، وكتب «الطيب صالح» السوداني: «موسم الهجرة إلى الشمال» وبالمقابل كتب الشاعر الفرنسي لامرتين «رحلة إلى

الشرق»، وغزت ألف ليلة وليلة بسحرها الشرقي منذ زمن باكر العقلَ الأوربي المادي، وسحرته بأحلامهـا الرومانسية الورديـة، ولكنها كوّنت لدى الغربيين فكرة مغلوطـة عزّزها الاستشراق، وكذلك أوضح زيف تلك الصورة وبُعدها عن الواقع.

غير أن القصاص السباعي ينحو في قصته منحى واقعياً رمزياً بحسب قراءتي التأويلية لها، فالمعطـف أو الممطر الذي تتقطع أزراره هو رمز ومعـادل موضوعي للهوية العربية الإسلامية، والأزرار هـي تلـك القيم التـي تصون جسد الأمـة وهويتها من التفكك والانحـلال. يحاول بطل القصـة وهو السارد العليم -ولعله «السباعي» نفسه، وقد جعل من تجربته في باريس في مرحلة الدراسـة موضوعـاً للقصة- يحاول فـي مواجهة الغرب الآخـر وعالمه المختلـف تثبيت هويته الإنسانيـة بوصفه عربيّاً مسلماً، من خلال الحفاظ على شخصيته وصونها من الانجراف مثلما تحـاول المحاولة ذاتهـا الفتيات العربيات اللواتـي يتابعن الدراسة في باريس؛ بل هنّ أحرص وأقدر من الذكور على تثبيت هذه الهوية، من خلال عملية رمزيّة، هي خياطة عرى أزرار معطف البطـل التي لاحظ أنها بدأت تتقطع، وهن يتبارين متنافسات أمام بطل القصة الرقيب الساهر علـى حفظهن بحكم أنـه الرجل الشرقي المراقب لسلوكهن. وبهذا تتحـول القصة من واقعيتها التسجيلية إلى الرمزية الهادفة، بل إن «مارلين الفرنسية» صديقة البطل وزوجها اللذين يحبان العـرب والمسلميـن يخضعان لامتحان صدق هـذا الحب حين تسهم «مارليـن» في تثبيت عرى أزرار بطل القصة في وسط عالم غريب حافل بالمغريات. أما البطل نفسه فيبدو أحياناً ضعيفاً أمـام تجربة الاغتراب، فهو بقدر حرصه على تثبيت انتمائه، ومراقبته الدائمة لأزرار ممطره أو معطفـه، تغريه أحياناً الحضارة الغربية فيعمد قاصداً تقطيع الأزرّار؛ أي التنازل عن هويته في مواقف من الضعف تمليها نوازعه الشهوانية.

وفـي قصـة بعنوان: «المنشـور يعبق في الحديقة» نقـد عنيف وساخر للإجـراءات الروتينية والبيروقراطيـة فـي تسييـر معاملات المواطنين، وهـي تلتقي مع موضوع قصتـه «لعبة الأرقام المتوافقـة»، فالسباعي فيهما ينقـد بحرية وجرأة كاملة هـذا الإرث المؤسساتي منذ القدم في الوطـن العربي؛ فالموظـف بدافع الخوف مـن المسؤولية يحاول حماية نفسـه بتطبيق الأنظمة والقوانيـن حرفيـاً، بل الاجتهاد فـي تخريجها ضماناً لعـدم المحاسبـة، والمواطنون من عامة النـاس -ولا سيّما المهمشون- هم ضحايا الروتين والبيروقراطية، وبدلاً من أن يسعى المسؤول لتسهيل الإجراءات والحدّ من الروتين لإراحة المواطن تراه يبحث عن ثغرات في القوانين ليدفع عـن نفسه، فهو يسخّـر عقله وممارسته الإدارية لإعاقة الإجراءات بـدلاً من تسهيلها، وقد سبق الكاتـب عبـد العزيز البشري -كما أشرنا- أن نشر في مجموعته «فـي المرآة» قصة تلك الأتان التي اختُلِـفَ في صاحبها، واستمرت المعاملة ثلاثين عاماً، وماتـت الأتان وصاحبها والمدعي، ولكن المعاملة ظلت حيّة جاثمة كالجبل تُثقِل كواهل العاملين في المؤسسات.

الواقعيــة التسجيليــة فــي القصتيــن المسرودتيــن بلســان البطــل، وهــو موظــف مسؤول، تثيــران الدهشــة لدى القارئ من قــدرة «فاضل السباعــي» العجيبة على متابعــة وقائع الروتين والبيروقراطيــة بدقة ومتابعــة، وتحليل النوازع الداخليــة لأبطالها من الإداريــن (الفهلويين) الــذي سخّروا عبقريتهــم الإدارية لتعذيب الجماهير، ولا سيّما العامة مــن الناس الذين لم تُتِح لهــم حياتهــم الاحتكاك بالعمل المؤسساتي، ومن وراء هذا الجهــد العجيب لدى السباعي عالم من التحليل النفســي للشخصيات والممارسات المغلوطة للسلــوك الروتيني والبيروقراطي يهزّ القارئ من الأعماق، ويضاعف ثورته على الواقع المتردّي. وأي مرارة أقسى من أن يضيع العامل البــدوي بطل قصتــه الأولى الذي أكلت الآلة أصابع قدمه، بين الدوائر سنوات ثم يعجز الروتين عــن حلّ مشكلتــه إلا من خلال التوسّــط غير القانوني بيــن مديرين صديقيــن، أحدهما مفتون بالأزهــار، تنسيــه عبقها رائحة الممارسات النتنة والإجراءات بحــق الضعفاء والبسطاء! بل أي أمر أشد مرارة من معاملة إهداء كتاب ثمنه عشر ليرات عقوداً من السنوات، صرفت فيها جهود عقلية ومراسلات تجاوزت مئات التواقيع لتحديد مسؤولية المهدي!

هــذا إذا نحّينــا جانباً مشكلة الفســاد الخلقي في مستوى الأفراد والجماعــات، إذ يقع بطل قصتــه «غشــ الأصحــاب» بسبب فقره ضحية صفقــة من البطيخ الذي لا طعم لــه، فيجد نفسه مضطــراً إلــى أن يمارس الفساد ويتخلص من الغبن بتوزيعها علــى زملائه وأصحابه، وقد تبنَّى في غشّهم الأساليب ذاتها التي استخدمها الغشّاش الذي باعه إياها.

واقعيــة القصــة القصيرة لدى فاضــل السباعي تنطلق مــن أسس إنسانيــة، وتؤمن برسالة الأدب الإنسانــي في التوعية بدلاً من الثــورة والعنف، وتسعى إلى ترقية (أصحاب المصلحة من قيــام الثورة) ترقية عقلية وروحية، وتمجيد العمل الخــلاق الذي يترك أثراً، والإنسان في رؤيته فيــه جوانب من الخير والشــر، ولا يصح أن ينظر إليه نظرة أحاديــة... في عالم الإنسان تلتقي المتناقضات، ولكنه يطمح دوماً أن يدلل على إنسانيته ونبله ولو كان يسلك سلوكاً مغايراً، فيشجع السباعــي المبــادرات الفردية الحــرّة على أن تصبّ فــي المصلحة الاجتماعيــة العامة، ويؤمن أن ينابيــع الإنسان العربــي الروحية قد جففها التزييــف والدّجــل، وازدواج الشخصية والنفاق الاجتماعــي والانتهازيــة، ولكنه يؤمن إيماناً مطلقــاً بقدرة الإنسان العربي علــى تجاوز كل هذه العوائــق إذا واجهها بالصبــر والأمل، وتغلّب عليها بالسعي والانتقال إلــى لون من الديمقراطية يمــرّ بها المجتمع، يكون لكل فرد فيه حق الحرية في إبــداء الرأي والمشاركة في اتخاذ القرار، وصبّ الطاقات الإبداعيــة للجماهير وتجاربها الشعبية الخصيبة في مسيرة التطور الاجتماعي نحو حياة أسمى وأفضل وأكثر جمالاً وانفتاحاً.

***

حوار الشتاء والصيف

رئيس التحرير

كثيراً ما نسمع حواراً بين اثنين حول تفضيل الصيف أو الشتاء، فيذكر كلٌّ منهما مناقب ومثالب الفصل الذي يعشقه، وتأثيره على حياة الإنسان، مفنداً في الوقت نفسه، رأي الخصم في تفضيله الفصل الآخر. هذه الحوارية الجميلة لها جذورها في بلدان مشرقنا القديم، وعُرفت في التراث السومري والبابلي في سياق نوع من الأدب كان يسمى «أدمن – دو – غا» بمعنى، «حوار بين رجلين»، أو «مناظرة بين متكلمين». وكان هذا النوع من المناظرات يُتلى بين متحاورين أو متفاخرين، في أثناء الاحتفالات والأعياد في قصور الحكام، وكان الملك يحكم بين المتناظرين باسم الإله، بعد أن يُبيّن كلٌّ منهما فضائله ومنافعه للناس، منتقداً أقوال منافسه، ومعرِضاً بنقائصه، ويقبل المتناظران الحكم، وتنتهي المناظرة بالمصالحة.

ومن أشهر المناظرات في هذا الأدب: مناظرة الصيف والشتاء، والراعي والفلاح، والطير والسمك، والفأس والمحراث، والفضة والبرونز،

والشجرة والقصبة، وإلهة القمح والماشية، والصيف والشتاء، والشعير والقمح، والثور والحصان، والنسر والحية، والكلب والذئب، والنخلة وشجرة الأثل/ الطرفاء.

وتعد أسطورة الصيف والشتاء «إيمش وإينتن» من أطول المناظرات، ومن روائع الأدب السومري. وهي تفسر دورة الحياة والموت وفصول السنة، وتذكرنا بأساطير أخرى، مثل: أسطورة دموزي (تموز)، وإنانا (عشتار)، في بلاد الرافدين، وأسطورة بعل وموت الكنعانية في أوجاريت. وتحفل هذه الأساطير بصراع جميل، لا فوز مطلق فيه ضد الخصم، بل ينتهي الصراع بمصالحة بين المتصارعين.

خلاصة أسطورة الصيف والشتاء أن الإله «إنليل»، قرر أن يؤسس الزراعة في البلاد، فخلق لهذا الغرض أخوين هما الصيف والشتاء، وحدَّد لكلٍّ منهما أعماله وواجباته. فمن وظائف الشتاء أن يسبب ولادة الغنم والماعز والأبقار، ويكثر الألبان ويجلب الخضرة للحقول، وينمّي الغلال، وغير ذلك. ومن واجبات الصيف، أن يملأ المزارع بالغلال، ويكدس البيادر، والمخازن والأهراء، ويسهّل تشييد المعابد والبيوت. وهكذا اطلع الشقيقان بواجباتهما على أكمل وجه.

وفي إحدى المرات، قصد الشقيقان مدينة «نفر» جنوبي العراق، لزيارة معبد الإله، حاملين الهدايا من نتاجهما العظيم، وعندئذ دبَّت الغيرة والحسد بينهما. فصار الصيف يتجنب الشتاء كأنه عدوه، ولما نفد صبر أخيه الشتاء بادله العداء، وصار يفاخره ويعدّد مناقبه وإنجازاته، محاولاً إثبات تفوقه، قائلاً: «عندما يرتدي الملك أبي – سين، حلته الاحتفالية، وجبته الملكية، ليقوم بشعائره الدينية. وعندما تعزف القيثارة في «بيت الحياة» (معبد) نفر،

فأنا الذي يهيئ لهذه الاحتفالات الزبدة والدهن». فيجيبه الصيف: «يا أخي الشتاء، في زمنك تتجمع الغيوم الدكناء، وتصطك أسنان الناس، وهم داخل منازلهم في المدن، لا يجرؤ أحدهم أن يخرج إلى الطريق حتى في منتصف النهار». وأخيراً يحتكم المتخاصمان إلى «إنليل» الذي يصدر حكمه قائلاً: «يتحكم الشتاء بالمياه الضرورية للزراعة، والواهبة للحياة في الأرض، وهو فلاح الإله الذي يكدس الغلال، فيا بُنيّ الصيف، كيف تقرن نفسك بأخيك الشتاء؟». وهكذا يحكم الإله للشتاء ويتقبل المتناظران حكمه ويتصالحان ويتصافيان فيخضع الصيف للشتاء ويقدم له الهدايا.

أسطورة ترمز إلى دورة الحياة والخصوبة والأمطار الموسمية. وهي دروس قِيَميّة تؤكد على أهمية التوزان والتعاون بين جميع جوانب الطبيعة، حتى لو كانت متعارضة، لدوام الحياة ونجاحها. وهي تذكرنا بقصيدة اليتيمة التي نسبت إلى دوقلة المنبجي، حين يقول:

فَالوَجهُ مثل الصُبحِ مبيضٌّ والشعُر مثل اللّيلِ مُسوَدٌّ
ضِدّانِ لِما اسْتُجْمِعَا حَسُنا وَالضِدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِدُّ

❁❁❁